الموقف الأدبي



273



الثقافة الجديدة

رئيس التحرير: د. غانم حمدون

273

تشرين الثاني ـ كانون الأول ١٩٩٦

محتويات العدد

ليتسع الحوار ويتعمق- ملف العدد

أدب وفن

● لوحتا الغلاف للمبدع مظفر النواب

أغلق التحرير أواخر تشرين الأول ١٩٩٦ .

ليتّسع الحوار ويتعمق/ ملف م٦

المعارضة والدور المطلوب ليسارها

د. حسن الجنابي

بودي، كمستقل، أن اطرح بعض الملاحظات عن مأزق التشتت في المعارضة العراقية، اسهاماً في المناقشة الجارية بين أعضاء واصدقاء حشع حول الموضوعات التي طرحتها قيادته للنقاش تحضيراً لمؤتمره السادس.

يمثل الوضع العراقي حالة فريدة من الانهيار يصعب معها تبرير جدوى العمل السياسي المعارض العاجز حتى الآن عن تحقيق التغيير المطلوب. فبدلاً من أن تحفّز حالة انحدار القيم وتدني الأداء السياسي للحكم ووحشيته المعارضة كي تقيم بديلها الأرقى، انشغل المعارضون بتأسيس تجمعات واحزاب وحركات زاد عددها على المئة دون أي مبرر منطقي. وإذا كان بالإمكان تفسير ذلك بردة الفعل على انعدام حريات الانتماء والتنظيم التي سادت العراق خلال العقود الثلاثة الأخيرة فيفترض أن تلجأ الحركات الجديدة، بعد مدد قصيرة، إلى معالجات واقعية ومراجعة شاملة لبرامجها وادائها السياسي تمليها الكارثة الوطنية والشعور بالمسؤولية ازاءها، بعيداً عن الرغبات والعواطف الشخصية مهما كانت نبيلة وصادقة، معالجات تقود بالضرورة باتجاه الانفتاح والاتحاد والتنسيق لا الانعزال والانغلاق والجلوس انتظاراً للفرج.

إن عدم تحقق ذلك لهو دليل أكيد على أزمة بنيوية بالفكر السياسي المعارض، تفقد معها المعارضة شرعيتها المستمدة من مقاومتها لنظام حكم همجي مفروض بقوة القمع. وهنا قد يشكك البعض، وهم على حق، بوجود فكر سياسي عراقي معارض اذا ما كانت

الممارسة السياسية للمعارضة القائمة هي المقياس، وهي ممارسة تتميز بعشوائية واضحة وتشتت للجهد الوطني يتحول، مع الوقت، إلى عائق جديٍ لأية محاولة لاقناع الرأي العام العراقي والعربي والدولي بامكانية تحقيق بديلها وأفضليته على نظام الحكم القائم.

ان نظرة بسيطة على برامج الحركات والأحزاب المعارضة تكفي للاستنتاج بأنها برامج متقاربة من بعضها وذات أهداف رئيسية واحدة، على الاقل في هذه المرحلة، مع اختلافات ثانوية هي التي أدت، كما يبدو، إلى بدعة تقسيم المعارضة الى «تيارات» فاصبح الكل بما لديهم فرحين. لقد ابتدع البعض، ثم صدق جملة من المفاهيم (حكاية التيارات مثلاً) وأخذ يصنف الآخرين ضمنها، واحتكر لنفسه تمثيل ما يشاء.

على العموم، تسعى التيارات المعارضة في العديد من بلدان العالم، كما حدث في اوربا الشرقية في نهاية الثمانينات وبداية التسعينات، لتشكيل حركة واحدة (تيار واحد ان شئت) الى أن يتسنى لها تغيير انظمة الحكم، فيحدث اذّاك الاستقطاب الطبيعي فيها وتنقسم، اثره، الى تيارات واحزاب تتنافس على كسب التأييد الشعبي. لاشأن للمعارضة العراقية، كما يظهر، بما يحدث في الأماكن الاخرى من العالم، وكأن ذلك يدخل في باب «الخصوصية» و «الوضع الملموس»، خصوصية تجعل «التيار الاسلامي»، على سبيل المثال، يضم عشرات الاحزاب الدينية وهي بدورها تمنح أو تحجب اعترافها بتيار آخر (اجتماع دمشق الأخير)، خصوصية تميّز مقتلة الأخوة اكراد العراق، بايدي بعضهم، عما فعله على حسن المجيد، انها خصوصية الباب المغلق!.

لاشك أن طبيعة المعارضة في أي بلد تعكس بوجه ما طبيعة السلطة القائمة، لأنها نتاج البيئة ذاتها، ولا يصلح هنا تخيل معارضة عراقية منسجمة تمارس عملها دون مشكلات وتحديات كبرى، غير أن الوضع العراقي يفترض وجود تمايزات واضحة وفاصلة بين طبيعتي المعارضة والحكم، خاصة بعد كوارث الحرب وتدمير الوطن. فنحن هنا ازاء جلاد مستبد وضحية عزلاء. وينبغي للضحية ان لا تكون شبيهة بجلادها مطلقاً.

لقد وزع صدام «مكرماته» على العراقيين بالتساوي، فنالت بذلك كل مدينة عراقية وكل طائفة أو قومية نصيبها من القهر والتعسف، لكن ذلك لم يكفِ لتوحيد ضحايا المحنة الواحدة، لا بل ولّدت الغرائز السفلى عند البعض، اثر ذلك، جدراناً هائلة تتميز خلفها اليوم العديد من التنظيمات والجمعيات الطائفية والعرقية، ومن المؤسف بعد إن تمكنت المعارضة في وقت سابق من وضع خطوات مهمة على طريق تحقيق الهدف الوطني،

سواء في بيروت أو فيينا أو صلاح الدين، مالبثت أن تراجعت الى وضع لاتحسد عليه بالرغم من الضعف البارز في معسكر الحكم.

نواة فاعلة ليسار جديد

من هذه الزاوية «المتشائلة» يمكن النظر الى مؤتمر الشيوعيين المقبل، فالحزب الشيوعي واحد من أعرق الحركات السياسية في بلادنا، وقد لعب دوراً مؤثراً في صياغة الفكر السياسي العراقي المعاصر. فاذا ما عجز عن المساهمة في استنهاض الروح الايجابية والمقاومة للشعب فذلك يعد خسارة فادحة للجميع.

هنا وبكل تواضع، ينبغي القول بعبثية البحث في برامج الحزب عن جمل وعبارات محدّدة، فهذه ومهما كانت صياغاتها محكمة وجميلة، عاجزة عن دفع الهدف الوطني الى الأمام شبراً واحداً إن لم يرافقها عمل محكم ودؤوب يسهم في قراءة متأنية لنبض الشارع العراقي، ويدرك الحاجات الحقيقية للشعب، والامكانات المتاحة لتحقيقها. ولكي يمكن انجاز ذلك، لابد من الاحتكام الى آليات داخلية مرنة تشيع روح الاجتهاد والابداع وتجاوز الصيغ القديمة في التفكير والعمل، وتتطلب قدراً معقولاً من البراغماتية السياسية المتحررة من قيود الايديولوجيا.

من المفاهيم المثيرة للنقاش في «الموضوعات» وعموماً في نشاط الحزب الشيوعي العراقي، موضوعة «التيار الديمقراطي» وكون الحزب جهة اساسية فيه. بدءاً، إن المفهوم نفسه غير دقيق لتوصيف القوى التي تدعي الانتماء اليه أو تصنّف ضمنه، والأخذ به يلغي ضمناً الصفة الديمقراطية للتيارات الأخرى، اضافة الى كون التسمية لا تدل على المضمون الفكري والاقتصادي للأحزاب المصنفة ضمن التيار وبالذات الحزب الشيوعي العراقي. فاذا ما كان لابد للحزب من الانتماء الى «تيار» كشرّ لابد منه، أو تمثيل تيار، فأفضل تسمية له وأقربها الى واقع الحال هي «التيار اليساري» أو «العلماني» مع أفضلية للتسمية الاولى. ولعل لترسيخ هذا المفهوم في الخطاب السياسي العراقي المتداول بعض الفائدة من قبيل أنه يكرس دوراً مهماً في المعارضة لليسار، وهو دور مميز بدون شك، اضافة إلى أن التعاطي معه من قبل التيارات الاخرى (التيار الاسلامي على سبيل المثال) يفضي بالنتيجة، كأمر واقع، الى توسيع هامش التسامح بين «التيارات» والقبول بالتمايز والتعامل على هذا الاساس بالرغم من الفروقات الفكرية والبرنامجية بينها. يمكن كذلك بسهولة التعرف على ملامح اليسار العراقي وتاريخه وبرامجه، ولربما تؤدي

تطورات لاحقة الى تأسيس حركة يسارية أو تحالف موحد لليسار العراقي خاصة بعد غياب المرجعية التقليدية في موسكو. واذا ما استطاع الحزب الشيوعي ان يشكل النواة الفاعلة لهذا التيار فسيجد انه وضع نفسه بشكل كامل على سكة التجديد الشامل لما فيه مصلحة المجتمع العراقي سواء في المساعدة بالتسريع باسقاط الحكم الحالي أو ازالة آثار الظاهرة الصدامية في مرحلة ما بعد صدام.

إن اي نظام مقبل للعراق سيرث تركة ثقيلة وبالخصوص على الصعيدين الاجتماعي والاقتصادي، وهذا يتطلب بدوره جهداً هائلاً وقرارات ذات نتائج اجتماعية معقدة للغاية وذلك للتغلب على آثار الحروب والقمع وتضميد جراح الشعب الى جانب تسديد فاتورة الالتزامات والقيود المالية والسياسية والاخلاقية للسياسة الصدامية. ونظراً لانعدام أية امكانية فعلية لليسار العراقي لاستلام السلطة بعد صدام فإن وجود يسار قوي يعد ضرورياً لتخفيف معاناة الفئات الفقيرة والمهمشة من ضحايا الحرب والقمع والتهجير، وغيرها من فئات المجتمع ذات الدخول المحدودة، عن طريق انتزاع مكاسب اجتماعية تؤمن الحد الادنى للعيش الكريم للطبقات المسحوقة، وهذه لايمكن تأمينها الا ببرنامج يساري فعال.

العشائرية والنكوص للخلف

من المظاهر الجديدة في برنامج الحزب الحديث عن «العشائر» العراقية ودورها «الايجابي» في مقاومة النظام الحالي. ليس جديداً القول بأن النظام الصدامي، في محاولة للمحافظة على حكمه، حرص على احياء قيم زائلة، وأخرى في طريقها للزوال تتنافى مع نزعة المجتمع في التقدم، وتمثل ذلك ببعث قوانين العشائر وتغليب النزعات القروية المتخلفة واعطائها صيغاً قانونية على حساب قيم المدينة الحديثة القائمة على أساس التعايش المشترك والتسامح والخضوع لقوانين مدنية تنظم علاقات الناس مع بعضهم دون الركون الى روابط الدم والحسب والنسب وماشاكل. وقد افرزت تلك السياسة التي رعتها الدولة مظاهر مرضية وجدت تعبيراتها ببروز حركات عشائرية تدعي العمل المعارض وتبحث عن شرعية سياسية. ان هذه الظاهرة يجب ان لاتكون موضع ترحيب في حقل العمل السياسي لعدة أسباب منها، كونها افرازاً لنهج سياسي متخلف أخذ من قيم القرى والبداوة أسوأها في محاولة يائسة للبقاء في السلطة، وثانيها ان محاربة التخلف لا تتم بسلاح التخلف نفسه بل ببديل أرقى يتطلب، بدءاً، الشعور بالانتماء الى

وطن وتاريخ وحضارة أكبر من العشيرة ورابطة القرابة. بهذا التوجه فقط يمكن انعاش الأمل ببناء عراق جديد لا تتكرر فيه التجارب المرّة الماضية.

حول مياه الرافدين

كمهتم بشؤون المياه، لايسعني إلا تأييد جوهر الموقف المعبر عنه في «الموضوعات» في شجب وادانة السياسة المائية التركية التي تنم عن نوايا عدوانية ومطامع بالحقوق الوطنية العراقية، تسعى من خلالها تركيا للعب دور القوة الاقليمية التي تتحكم بالجريان الطبيعي للمياه وتطمع بالسيطرة الغذائية على المنطقة. وسيكون من المجدي أن يتبنى المؤتمر بياناً، كأن يسمى بيان الفرات أو بيان الرافدين، يتضمن كل أو بعض النقاط التالية والتي تلخص الثوابت الوطنية بهذا الميدان يتم السعي، بعد ذلك، لتعميمها على الفعاليات والحركات السياسية العراقية لغرض تبنّيها كوثيقة للالتزام الوطني:

١ــ الالتزام بحقوق العراق المائية في نهري دجلة والفرات باعتبارها جزءاً من السيادة الوطنية العراقية غير القابلة للمساومة والاحتفاظ بحق الدفاع عنها عند التعرض للعدوان.

٢ــ اعتبار دجلة والفرات نهرين دوليين منفصلين ولايحق، تحت أي ظرف، لأي طرف القيام بأعمال مضرّة بحقوق الاطراف المتشاطئة الاخرى.

٣ــ تحريم بيع مياه النهرين الى أطراف اخرى خارج جغرافية الحوضين المائيين.

٤ــ الدعوة للالتزام بالمصالح المشتركة للأطراف المتشاطئة في حوضي دجلة والفرات والحق في استغلال المياه بما يضمن استمرار جريانها الطبيعي وعدم الاضرار بالانظمة الايكولوجية والبيئية المرتبطة تاريخياً بالنهرين.

٥ــ الإلتزام باللجوء للمفاوضات المتعددة الاطراف لحل المشكلات الناشئة حول المياه والسعي لوضع صيغة معاهدة عادلة ودائمة لتقسيم مياه الرافدين بما يؤمن مصالح شعوب البلدان المتشاطئة التي تقرها المعاهدات والقوانين الدولية المعتمدة عالمياً.

ملاحظة اخيرة: فيما يخص الوضع العربي والدولي، فانا عاجز تماماً عن إدراك أية فائدة لمناقشتها من قبل حزب عراقي معارض مقموع وسريّ امامه مهمات وطنية هائلة يسعى إلى تحقيقها، واعتبر المساحة التي خصصت لهما والوقت الذي ستقتضيه مناقشتهما، اهداراً للجهد والمال يحتاجهما الحزب في ميادين اخرى.

١٩٩٦/٨/٣٠

تيار اليسار الديمقراطي

د. صادق البلادي

«اننا اذ نعمل من اجل وحدة نشاط المعارضة ضد الدكتاتورية.. نسعى من أجل تعزيز دور التيار الديمقراطي الذي يناضل لتحقيق الديمقراطية ببعديها السياسي والاجتماعي، في مجمل عمل المعارضة، تمهيداً للدور الذي ينبغي أن ينهض به في عراق الغد الديمقراطي»
من موضوعات المؤتمر السادس

إن جاز لمن ولد بعد ١٤/٧/١٩٥٨، ولم تكن ولادته صدفة في بيت تضرر بعد ثورة ١٤ تموز، أو تنكر اهله لماضيهم اليساري نتيجة احباط او تقية حذر الحزب الذي ذبح الشيوعيين والديمقراطيين اليساريين في شباط الأسود ٦٣، وعاد للحكم بانقلاب القصر في ١٧ تموز ٦٨، إن جاز لمن كان دون العاشرة يوم ١٧ تموز ٦٨، أن يصدق الان الزعم بأن مسألة وجود التيار الديمقراطي في العراق مسألة فيها نظر وهي بانتظار صدور فتوى من بعض فصائل المعارضة، فلا عتب عليه فهو لم يشهد ولم يسمع بنضالات الشيوعيين والديمقراطيين من أجل تحرر العراق من الاستعمار وسيطرة الاقطاع والرجعية، في سبيل الديمقراطية والتقدم الاجتماعي وفي سبيل التحرر العربي، وحقوق الشعب الكردي والأقليات القومية والدينية. فالسنوات التي اعقبت ثورة ١٤ تموز، رغم كل التضحيات والنضالات قد اتسمت بالهزائم والاحباطات، وسنوات

العقدين الاخيرين كانت سنوات نضال ضد نظام دموي ارهب الناس واخافهم من الاتصال بصوت معارض، حتى حقق الصورة التي رسمها ابو نواس لهارون الرشيد في اخافته الناس، والتي بالتأكيد لم يبلغها الرشيد: «تخافه النُطف التي لم تخلق». غير أن محاولة بعض قوى المعارضة انكار وجود هذا التيار و التشكيك فيه فأمر لا يجمعه جامع مع ضرورة حشد كل قوى المعارضة للاطاحة بنظام صدام، الشرط الأساسي لاقامة نظام ديمقراطي برلماني يأخذ بمبدأ التداول السلمي للسلطة. ان محاولة كهذه تدخل في باب التنافس بين القوى السياسية لضمان الموقع الأفضل في سلطة الغد وان جرت محاولة سربلتها برداء عقائدي. يجب التأكيد على ان التنافس والصراع بين تيارات المعارضة العراقية هو صراع مألوف بين احزاب وتيارات سياسية طامعة او راغبة بالسلطة وليس صراعا بين عقائد، ليس بين الكفر والايمان. فالاحزاب غير المتخذة الدين شعاراً تضم أيضاً متدينين من مختلف الأديان والمذاهب. ولا ينبغي نسيان ان ليس جميع العاملين باسم المصلحة العامة يعملون فقط لوجه الله والوطن، ولا ينبغي ان يغيب عنا ما عبر عنه شيخ الأزهر عندما سئل فيما اذا كان سياسيا فأجاب: «انا رجل دين، رجل علم وفقه وفكر اهتم بالسياسة لأن العلم والسياسة صنوان لا ينفصلان. ولا اشتغل بها لأن اساليبها تحتاج الى طراز من الرجال يختلفون عن رجال العلم قليلاً، ففي السياسة دهاء ومكر ونفاق وخديعة ومصالح، أما العلم فحقائق لا تقبل المناورة و الخداع والكذب». وعن دسائس السياسة هذه عبّر الامام كاشف الغطاء بقوله: «إن للسياسة اسرارا غامضة، وآبارا عميقة». كما ورد في رسالته «المثل العليا في الاسلام لا في بحمدون» في رفضه حضور مؤتمر بحمدون لمحاربة الشيوعية، الذي دعا لعقده الامريكان عام ١٩٥٤، وأوضح الامام كاشف الغطاء موقفه من الشيوعية كنظام سياسي، لا كعقيدة فكرية، بقوله «ليست لدينا من نظام الدول الشيوعية واهدافها وأسلوبها في العمل، امارات وعلائم تدل أنها تريد حربنا من الخارج، كما لا نريد حربها». ولا يظنن واهمٌ ان الحزب الشيوعي خلا ويخلو من هذا الطراز من رجال السياسة. فحتى في زمن الرفيق فهد، زمن الارهاب الرجعي وجدت «عناصر من غير المسموح لهم بالاشتغال بالسياسة وطلاب التزعم والمراكز وعشاق حب الظهور» طريقها للدخول الى صفوف الحزب الشيوعي «مما ساعد على بروز الانحرافات داخل الحزب الشيوعي بشكل خطر» كما أشار الرفيق فهد في كراسه «حزب شيوعي لا اشتراكية ديمقراطية». فما بالك في اوقات صارت اقل خطورة نسبياً. وثمة رجال اعمال

ومقاولون وشخصيات بنوا مكانتهم الاجتماعية والمالية على الرصيد الذي تجمع لهم أيام كانوا مناضلين في صفوف الحزب الشيوعي العراقي او محسوبين عليه..

لقد تكون التيار الديمقراطي في العراق في خضم النضال من أجل الاستقلال التام من التبعية للاستعمار البريطاني، النضال في سبيل التحرر الوطني. كان النضال يومذاك بالاساس يجري في سبيل الحريات والحقوق الديمقراطية، في سبيل حرية الصحافة والاجتماع والتنظيم الحزبي والنقابي، في سبيل حرية التظاهر والانتخابات النيابية الحرة، وفي سبيل حق التعليم المتساوي والمجاني، هذا الحق الذي بتحقيقه تمكنت اعداد غفيرة من غير ابناء الذوات والاغنياء من اكمال تحصيلهم العالي ايضاً. وكان الشيوعيون العراقيون في مركز هذا التيار، وكان وصف التيار الديمقراطي او اليساري، الديمقراطيين أو اليساريين هو الوصف الغالب، لدرجة أن تهمة الشيوعية كانت تطلق يومئذ على كل معارض للاستعمار والرجعية، على كل مطالب بالديمقراطية، على كل ديمقراطي يساري، حتى وان لم يكن شيوعياً.

وكان الحزب الشيوعي عبر كل العهود في موقف المعارض عدا بضعة اشهر زمن عبد الكريم قاسم، و ٥ سنوات من عمر الجبهة مع الحزب الحاكم، تلك الجبهة التي ظلت جبهة فوقانية امنت فيها الوجوه القيادية لأول مرة في حياتها من الملاحقة والمطاردة دون ان تتوقف ملاحقة الكوادر والقواعد لحظة واحدة طيلة سنوات عمر «الچبحة» كما كان يسميها الشهيد الدكتور صباح الدرة يوم كان يمثل الحزب الشيوعي في لجنة جبهة بغداد.

لقد برزت تسمية التيار الديمقراطي بشكل خاص منذ الثلاثينات في النضال ضد الفاشية وقوى الرجعية من أجل الاستقلال الوطني ونظام ديمقراطي، وكان الكثير من القوميين ميالين للنازية، وأغلبهم لا إيمانا بها بل في الأغلب من المبدأ البدائي الساذج: عدو عدوي صديقي. وغالبية الناس ما كانت تؤمن بامكانية تحقيق ديمقراطية تحقق المساواة بين الناس. فذهنية التراتب بين الناس وطبيعة وجود فئات فوق بعض، كما في أي مجتمع اقطاعي، هي السائدة يومذاك. فرجال السياسة هم من بين أبناء البيوتات والعوائل الثرية والاقطاعية، من علية القوم، ومن كبار العسكريين في جيش الملك فيصل الاول، أما الدعوة الى المساواة بين الناس سياسياً فهي بدعة طلع بها الشيوعيون والمتأثرون بالبلاشفة من ابناء العوائل ومن غير ابناء العوائل. كانت القوى السياسية تتصارع فيما بينها بعد ثورة العشرين لجني ثمارها، وانشغل الحكام «باخماد

الانتفاضات التي كانت تحدث بين وقت وآخر في المناطق الكردية وفي ألوية الفرات وغيرها، ومعظم تلك الانتفاضات كانت فتنا تثيرها الاغراض الحزبية فيما بين الطبقات الحاكمة، واغراض استعمارية لارغام العراق على اعطاء بعض الامتيازات، كما قال فهد عن أحداث تلك الحقبة. وما كانت تعرف طريقاً للتغيير سوى طريق المؤامرات والانقلابات او المساومات بين رجال السياسة دون الاستناد على الشعب، والذي ليس بالنسبة لهم سوى رعاع. كانوا يعولون في صراعاتهم على الجيش. ونحو هذا النهج اتجهت القوى القومية. فان يونس السبعاوي، وهو رجل قانون وليس عسكرياً، كان ينظر للجيش باعتباره القوة المنظمة الوحيدة في البلاد وليست العشائر ولا الاحزاب التي لا تتمتع بأية سلطة حقيقية، وهذا الموقف هو الذي انعكس في التحالف مع العقداء والذي ساد في حركة رشيد عالي عام ٤١، وقبل سنوات من ذلك في انقلاب بكر صدقي ٣٦. ومن المعروف ان السبعاوي قد اعدم بتهمة «تشجيع الجيش على التدخل في السياسة». وبينما سارت مختلف القوى في طريق الانقلابات والمؤامرات، انتهج الشيوعيون، الذين ارادوا أن يكون حزبهم منظمة شبه عسكرية، انتهجوا طريق الدعوة الديمقراطية: عبر العمل لتأليف حزب شعبي له اهداف وطنية ديمقراطية واضحة، ويضم اكبر عدد من الجماهير الشعبية، و «السعي لتأليف جبهة وطنية موحدة، و بالعمل على تحقيق تمتع الشعب بحقوقه الدستورية.. وكل ما من شأنه تدعيم الحريات العامة وخلق وعي ديمقراطي صحيح بين أفراد الأمة، والسعي لتوسيع تلك الحريات والحقوق بصورة تتناسب وتطور البلاد ومقتضيات الحاجة والزمن كمساواة المرأة بالرجل في الحقوق السياسية والمدنية وكجعل الانتخابات على درجة واحدة وتحديد سن الانتخاب للناخب والمنتخب بثمانية عشر عاماً». كما جاء في برنامج حزب الوحدة الوطنية الديمقراطي، الذي كان الحزب الشيوعي وراء تقديم طلب اجازته نهاية عام ٤١/ اوائل عام ٤٢. وطبعا فان الحكومة الملكية الدستورية لم تجز هذا الجزب بل قامت باعتقال بعض مقدمي طلب التأسيس. وظل هذا سبيل الحزب الشيوعي لانتصار الثورة وادان على الدوام طريق الاغتيالات والانقلابات. وهو فهم عقائدي وايمان بأن الجماهير الشعبية هي صانعة التاريخ وليس النخب السياسية. وبالرغم من تقييد الديمقراطية داخل الحزب متذرعاً بواقع الارهاب داخل البلاد. لقد تزايد الداعون للديمقراطية ومع ذلك ظل هناك تمايز بين التيار الديمقراطي اليساري والقوى الاخرى، وكانت وحدة عمل التيار اليساري دائماً اساس وحدة وتحالف القوى الوطنية الاخرى. ان هذا التيار

الديمقراطي اليساري كان على الدوام يجمع بين النضال في سبيل الديمقراطية السياسية والاجتماعية.

واليوم وبنتيجة السياسة الفاشية البدوية اتسعت صفوف المطالبين بانهاء الديكتاتورية وغدت المهمة الرئيسية اسقاطها واقامة نظام دستوري ديمقراطي تعددي يحقق تداول السلطة سلمياً. وصار البعض لا يقرون بتسمية التيار الديمقراطي بل يرون فيه تجاوزاً على قوى اخرى اخذت تتبنى الديمقراطية السياسية نهجاً في تداول السلطة وتحقيق التغييرات سلمياً، تلك القوى صارت تعلن عن قبولها بالاحتكام الى صناديق الاقتراع، وصار البعض لا يريد تجمعا لقوى التيار الديمقراطي بل تجمعاً من أجل الديمقراطية. حقاً ان اتساع صفوف المطالبين بتبني الديمقراطية اساسا كنهج للحكم دون اشتراط ربط ذلك بالديمقراطية الاجتماعية يجعل مصطلح التيار الديمقراطي غير واضح وبه غمط للقوى الاخرى التي تتبنى الديمقراطية منهجاً في التعامل السياسي، لكن موقعها ضمن التيارات السياسية الاخرى. فمن أجل ازالة الالتباس والوضوح يكون اعتماد مصطلح اليسار الديمقراطي ادق تعبيراً عن هذه الحالة الجديدة، ويتجاوب مع التغيرات الحاصلة في العديد من البلدان حيث تأسست فعلاً تنظيمات او جبهات بهذا الاسم وتسعى الى اعادة تأسيس يسار جديد وتنسيق نشاطاته عربياً وعالميا. واقترح لذلك ان تتغير في «الموضوعات» عبارة «تعزيز دور التيار الديمقراطي» الى «دور تيار اليسار الديمقراطي». وانطلاقاً من واقع ان ليس بقدرة أي تيار بما فيه اليسار الديمقراطي تحقيق التبدلات الضرورية في العراق، وليس فقط من عدم قدرة اي تيار بمفرده بل ومن ضرر انفراد اي تيار على مستقبل العراق وحياة اهليه، يكون من مهمات اليسار الديمقراطي العمل على تجميع كل القوى الداعية للديمقراطية بحيث تصبح كفة راجحة يمكنها ان تعبئ رأياً عاماً قوياً يتصدى لكل محاولة، وهي محتملة جداً لضرب الديمقراطية والتنكر للتعددية والتداول السلمي للسلطة. ان تقوية اليسار الديمقراطي لا تتعارض مع العمل من أجل تجميع كل القوى الراغبة في تحقيق الديمقراطية والتعددية بل هو يشترطها ويفرضها. ان مجريات المؤتمرات والاجتماعات التي عقدتها قوى المعارضة همشت دور قوى اليسار بعد ان لم يعد سلما تستخدمه قوى المعارضة الاخرى سبيلاً للحصول على معونات الدول الاشتراكية، المادية والمعنوية. فلابد أن يكون ذلك التهميش دافعاً لقوى وشخصيات تيار اليسار الديمقراطي للتجمع والتلاقي لرص صفوف اليسار الديمقراطي من أجل الاسراع بالاطاحة بالطاعون الذي يفتك بالبلاد وبالعباد.

إن الرصيد الكبير الذي حققه اليسار الديمقراطي قبل ثورة ١٤ تموز تكون بالأساس في النضال ضد الاستعمار والرجعية ومن أجل الحقوق والحريات الديمقراطية لصالح الجماهير الشعبية، وبالاعتماد على الجماهير الشعبية، عبر التنظيمات الديمقراطية والجماهيرية، التي حققت له النفوذ الكبير في الشارع فجعل كل القوى السياسية الاخرى تحسب له حساباً وتسعى للتحالف معه، واستمر هذا التأثير الكبير حتى تظافرة ايار ٥٩ الكبيرة، ولكن هذا الرصيد أخذ يضعف بعد تموز ٥٩، بعد الجلد الذاتي، الذي كان بمثابة إهانة كبيرة ولطمة للجماهير التي سارت وراء شعار لم يكن خطأ، شعار اشراك الحزب الشيوعي في الحكم. فمنذ ذاك الوقت بدت حسابات المساومة السياسية على مصلحة الجماهير هي الغالبة، فحصل الانفصام بين الوطنية والديمقراطية. لكن بدء ضعف هذا الرصيد الجماهيري عوض عنه يومذاك تنامي الرصيد الأممي للحزب لعلاقاته بالاتحاد السوفييتي والمعسكر الاشتراكي وكانت الحكومات العراقية المتعاقبة بدءا من قاسم حتى حكومة انقلاب ١٧ تموز ٦٨، وكل التيارات السياسية المعارضة وخاصة احزاب الحركة القومية الكردية بحاجة الى المعسكر الاشتراكي ودعمه في سياسات التساوم في الصراع الدولي والاقليمي، سياسة فن الممكن. فعوض ازدياد الرصيد الأممي للحزب الشيوعي الى حد ما عن بدء انحسار الرصيد الشعبي. وبعد مؤتمر بيروت في آذار ٩١ وإنهيار المعسكر الاشتراكي ضاع هذا الرصيد أيضاً، وانعكس في تعامل القوى الاخرى مع اليسار الديمقراطي.

إن قوة اليسار الديمقراطي أساساً هي قوة الرصد الشعبي الذي امتلكه تاريخياً ويمتلكه موضوعياً لدفاعه عن مصالح الجماهير، وقدرته على تعبئة الجماهير وكسبها في وقت لا يملك لا سلطة ولا مالاً. فينبغي أن يعتمد على وحدة عمل كل عناصره وتجمعاته، وليس له من سبيل آخر. فالدولار يسيل في قنوات اخر، الدولار الذي قال فيه الشاعر:

تلوى به عصب البلاد وتشترى ... ذمـم الرجـال وتحجز الافكار

النظام الداخلي

كشف انهيار أول تجربة لبناء الاشتراكية والتي لم تدم سوى حوالي ٧٠ عاماً. من جديد كيف أن انبل المثل والتعاليم قد ترتد الى نقيضها عبر المؤسسات التي تتكون من أجل تنفيذها، والاشخاص الموكلين لخدمتها، إذ يتحولون بغياب أو اضعاف الرقابة من

أجير وسادن الى متصرف وسيد. وعبر المعري عن مثل هذا الحال بقوله:

مل المقام فكم أعاشر أمة أمرت بغير صلاحها أمراؤها
ظلموا الرعية واستجازوا كيدها فعدوا مصالحها وهم أجراؤها

وجاء الجواهري بعده يؤكد بقوله لأم عوف:

من عهد آدم والأقوام مزجية، خوف الشرور، الضحايا والقرابينا
أكلما إبتدع الانسان آلهة للخير صيرها شر ثعابينا؟

وهكذا يمكن أن تصبح خير المثل والمذاهب وسائل لخدمة الرؤساء والزعماء، لخدمة البيروقراطية عموماً.و لذلك فالضروري ليس فقط التأكد من نبل وصدق الاهداف المعلنة، وخلوص نوايا العاملين من أجلها، بل التحقق من سلامة أدوات التنفيذ، ووضع آلية تمنع أو تعرقل نشوء مثل هذا السلوك، لان نتيجته إبتعاد الناس عن المؤسسة، فتصبح اعجاز نخل هاوية لا تستطيع الصمود أمام هتافات الناس: «نحن الشعب» كما حصل في ألمانيا الديمقراطية، أو أمام خرخشة ضبّات المفاتيح كما في براغ.

والنظام الداخلي هو إحدى الادوات الهامة التي يمكن أن تسهم في الحد من سرعة الوقوع في تحول الهيئات الحزبية الى سلطات فوق الأعضاء وفوق الحزب، أداة تسهم في الحد من نشوء وتضخم نفوذ البيروقراطية الحزبية، التي شخصها لينين كواحد من عوامل ظهور الانتهازية في الحركة الثورية. صحيح أن النظام الداخلي وحده دون الرقابة القاعدية لا يعصم من التجاوزات إلا أنه يشكل أداة فعالة للرقابة ضد الخروقات. ولقد أقر المؤتمر الخامس نظاماً داخلياً هو مقارنة بما سبقه من انظمة داخلية أكثرها ديمقراطية وانفتاحاً. وحرية النشر المتاحة في الصحافة الحزبية منذ التحضير للمؤتمر الخامس تبين الى أي حد يمكن الاستفادة من وجود نظام داخلي جيد. إن اقرار النظام الداخلي في المؤتمر الخامس تم في إطار الانتقال الى الديمقراطية والتجديد، وهي سيرورة طويلة ومعقدة، لايمكن تحقيقها دفعة واحدة، وهو ليس المبتغى والمنتهى في هذه السيرورة، فلم يتخلص من كل نواقص وسلبيات التقاليد التنظيمية السابقة. وعلى المؤتمر السادس أن يدقق في هذا النظام الداخلي وعلى ضوء التجربة منذ المؤتمر الخامس.

على العكس من كثير من الأحزاب المماثلة لم يتخل الحزب الشيوعي العراقي بعد عن «المركزية الديمقراطية» بينما تخلى عن شعار «ديكتاتورية البروليتاريا» وهي بالنسبة الى فهد «الشيء الأساسي في اللينينية» و «جوهر محتويات الثورة البروليتارية». فلماذا

الاصرار على تبني هذا المبدأ، رغم أن كل تجاربه التطبيقية كشفت أن التمسك به يقود الى البيروقراطية المركزية.

وفيما يخص تشكيل المؤتمر الوطني للحزب فإن المادة ١٤ تجعل أعضاء المؤتمر الذين يشكلون أعلى هيئة في الحزب ينقسمون الى ثلاثة أنواع:

الأول: أعضاء تزكية: أعضاء اللجنة المركزية ولجنة الرقابة للحزب الشيوعي العراقي وللحزب الكردستاني ــ العراق، من غير العاملين في المنظمات الحزبية وهيئات الاختصاص.

الثاني: اعضاء بالتعيين: المختصين والشخصيات الحزبية بنسبة لا تتجاوز ١٠٪ من أعضاء المؤتمر.

الثالث: الأعضاء المنتخبون في كونفرنسات المحافظات.

وكلهم لهم نفس الحقوق في المؤتمر. وهذه التشكيلة غير ديمقراطية وتعطي اللجنة المركزية إمكانية التأثير في تركيب المؤتمر. فأعضاء اللجنة المركزية أعضاء في الحزب ينبغي أن يكونوا خاضعين للانتخاب كغيرهم. ومن لا يفوز بالانتخاب عليه الحضور للمحاسبة عن أعمال اللجنة السابقة. ويمكن دعوة شخصيات ومختصين لاغناء أعمال المؤتمر، ولكن ليس لهم حق التصويت والترشيح، بل فقط حق المناقشة في مواضيع اختصاصهم. وإذا كانت الظروف القومية والظروف الاستثنائية بفضل منطقة «الملاذ الآمن» قد قادت الى تكوين الحزب الشيوعي الكردستاني ــ العراق بدل منظمة الاقليم، فهذا لايعني تحوله الى حزب مكافىء للحزب الشيوعي العراقي، بل «تبنى العلاقة بينهما على أساس برنامج الحزب الشيوعي العراقي ونظامه الداخلي».

إن عضوية المؤتمر يجب أن تكون كلها بالانتخاب في المنظمات، ورفاق اللجنة المركزية يكونون عاملين في المنظمات التي يقيمون في أماكن عملها.

إن خبرة البرامج والانظمة لاتكفي وحدها لترسيخ الديمقراطية فإمكانية التجاوز عليها، بل الميل للتجاوز، يبقى قائماً. ولذلك يتطلب تشديد الرقابة القاعدية ورفع درجة حساسيتها، الأمر الذي يثبت من جديد أنها سيرورة تحتاج لنضال. فبالرغم من أن المادة ١٢ الفقرة ٢ من النظام الداخلي حددت مجال عمل حشكع، لا أقول حشك، بأن: «الحزب الشيوعي الكردستاني ــ العراق يضم جميع أعضاء ومنظمات الحزب العاملين في نطاق اقليم كردستان» وصل الأمر الى القبول بأن تكون له شخصية معنوية في عموم العراق وخارج البلاد، وأن تتشكل له تنظيمات شكلية ليس لها غير الأسم، بعضوية نفر معدود

من الأكراد، من بين مجموعة عددها كلها صغير من العراقيين، وكل هذا دون أن تكون هيئة حزبية لها الحق في تغيير النظام الداخلي، اللهم الا عودة للتقاليد التنظيمية التي اتسمت بخرق الشرعية وتسلطن البيروقراطية المركزية. ولا أظن أن مبعث ذلك ضرورات يقتضيها الوضع الحالي في اقليم كردستان العراق بقدر ماهو تعبير عن النزعة الارادوية والذاتية والمبالغة في تقييم الوضع في كردستان العراق وإعتباره قد تجاوز الفدرالية، الأمر الذي خلق صعوبات وعراقيل غير قليلة بين حشع وحشكع لدرجة يجري فيها التوصل بعد نقاش الى استنتاج: «ضرورة استمرار العلاقة بين حشع وحشكع».

اسم الحزب

قبل المؤتمر الخامس جرت مناقشات وطرحت مقترحات حول تسمية الحزب، لكن المؤتمر لم يأخذ بها. ان تغيير اسم الحزب لا يعني وحده الشيء الكثير حالياً، فهو لا يغير ذهنية الحزب واهدافه. ثم أن تغيير اسمه الآن هو بالنسبة لكثير من الذين قضوا زهرة شبابهم وحياتهم في النضال تحت راية هذا الأسم المجيد يعني التخلي عن قطعة عزيزة من أنفسهم. فليس من السهل القبول به. غير أن الشيوعيين الذين كانوا دوماً على إستعداد للتضحية بأرواحهم وللاستشهاد في سبيل مثلهم لن يصعب عليهم القبول بهذا إن رأوا فيه فائدة للحركة.

عندما صاغ ماركس وإنجلس بيانه أواخر ١٨٤٨/١٩٤٧ كان حزبهما يدعى عصبة الشيوعيين المنبثقة من عصبة العادلين. ولكن بعد فشل الثورة الديمقراطية الأوربية ١٨٤٨ وضرب الحزب الشيوعي ومحاكمته أعيد تأسيس الحركة العمالية باسم جمعية العمال الدولية (الأممية الاولى ١٨٦٤-١٨٧٦). وبعد حلها بدأت تتشكل الأحزاب على نطاق قطري وإتخذت إسم «حزب العمال الديمقراطي الاجتماعي» (الترجمة العربية التي شاعت حزب العمال الاشتراكي الديمقراطي) في ألمانيا أو في روسيا وغيرهما، أو الحزب الاشتراكي. وحزب العمال الاشتراكي الديمقراطي في روسيا قام بثورة اكتوبر الاشتراكية بهذا الاسم. ولم يتبدل الاسم الى الحزب الشيوعي الا بعد إنتصار الثورة، وتأسست الأممية الثالثة باسم الكومنترن (الاممية الشيوعية) تمييزاً لها عن الاممية الاشتراكية. وبعد الحرب العالمية الثانية تخلى أكثر الأحزاب الشيوعية في اوروبا الشرقية عن اسم الحزب الشيوعي، وإتخذت أسماء اخرى كحزب العمال الاشتراكي في

بولونيا أو في المجر أو الحزب الاشتراكي الموحد في ألمانيا الشرقية، وبعد انهيار الاشتراكية تبدلت أسماء كثير من الأحزاب الماركسية ــ اللينينية. وحتى في فترة وجود المعسكر الاشتراكي لم تكن كل الأحزاب الماركسية ــ اللينينية تتسمى باسم الحزب الشيوعي. والحزب الشيوعي العراقي إتخذ أول تأسيسه إسم «لجنة مكافحة الاستعمار والاستثمار»، وبدل إسمه في صيف ٣٥ إلى الحزب الشيوعي العراقي، وقد يكون صحيحاً في فترة بدت وكأن الانتقال الى الشيوعية لم يعد بعيد المنال.

لقد شخص فهد ضرورة تأليف حزب شعبي له أهداف وطنية ديمقراطية واضحة، يضم أكبر عدد من الجماهير الشعبية، وكان يسعى حتى في تلك الفترة حين يعاقب القانون على «جريمة» الانتماء للحزب الشيوعي» الى العمل في إطار حزب علني لا يحمل إسم الحزب الشيوعي. وكانت الأسماء التي إقترحها تعبر عن الهدف المرحلي أو القاعدة التي يستند إليها. ففي أوائل ١٩٤٢ كان فهد وراء تقديم طلب تأسيس «حزب الوحدة الوطنية الديمقراطي» فاعتقلت الحكومة الملكية إثنين من مقدمي الطلب بدل إجازته. وفي تموز ١٩٤٣ دعا الى تأليف «حزب الشعب الديمقراطي» وفي اواخر عام ١٩٤٥ قدم طلب تأسيس «حزب التحرر الوطني». وزمن قاسم بعد إجازة حزب داود الصايغ باسم «الحزب الشيوعي» طلب الحزب إجازته باسم «إتحاد الشعب».

واليوم بعد أن أصبح هدف بناء الشيوعية هدفاً لمستقبل بعيد، والهدف الألح هو الاطاحة بدكتاتورية صدام واقامة مجتمع ديمقراطي تعددي يضمن توفير العدالة الاجتماعية، بتامين حقوق الجماهير الشعبية قد يكون إسم «حزب الشعب الديمقراطي» الأسم الأكثر تعبيراً عن أهداف المرحلة التي يناضل الشيوعيون من أجلها الآن، من أجل خير الجماهير الشعبية وباعتماد الديمقراطية منهجاً، ولا تتنكر لهدف الشيوعية النبيل: إقامة مجتمع خال من الاستغلال، يحقق للشعب سعادته بتوفير أقصى درجات العدالة الاجتماعية، تحقيق مجتمع الكفاية والعدل. وبالتخلي عن الاسم يتخلص تدريجياً مما ينسب للشيوعية من سيئات ألصقت بها نتيجة التشويهات التي خلت بها.

١٩٩٦/١٠/١٤

القضية الكردية هي السبب الرئيسي لمشاكل العراق

محمد صالح ناميدي*

قبل الدخول في مناقشة الآراء التي سطرها الأستاذ صباح الجزائري (انظر العدد ٢٧١- ث جـ) حول الفيدرالية والقضية القومية الكردية، أود أن أركز على بعض الجوانب المهمة والحقائق الموضوعية، التي وضعت العراق في البؤس المستمر ومنذ التأسيس في سنة ١٩٢١. كما أن تشخيص الأمراض الحقيقية، التي يعاني منها العراق والتي أدت وتؤدي إلى استلام السلطة من قبل الزمر العسكرية والبوليسية والقمع الدكتاتوري، أمر ضروري بغية البحث عن الحلول الضامنة الجريئة والكفيلة لاستراحة هذا الشعب المنكوب والمغلوب على أمره، وفسح المجال أمامه للدخول في عملية البناء والتنمية واللحاق بتطورات العصر.

منذ أن أصبح العراق دولة مستقلة وذات سيادة قبل ٧٥ سنة، فإن الأوضاع السياسية لم تستقر في العراق لحظة واحدة، فقد بلغ مجموع سنوات الحرب في العراق أكثر من ٥٠ سنة وبشكل مستمر وإن حصة الأكراد من هذه الحروب أكثر من ٤٠ سنة.. كما أن القضية الكردية أصبحت السبب الرئيسي في دخول العراق حرباً مدمرة مع إيران لمدة ٨ سنوات (٢١/ ٩/ ١٩٨٠ -٨/٨/ ١٩٨٨) راح ضحيتها أكثر من نصف مليون مواطن بين قتيل وجريح وأسير ومعوق حرب، ناهيكم عن تدمير الاقتصاد العراقي وابتلاع أكثر من ٢٠٠ مليار دولار.. وسبب ذلك هو أن نظام صدام لم يكن مستعداً

* محام وكاتب كردي.

للاستجابة للمطاليب الكردية وفق منطوق بيان ١١/آذار/١٩٧٠.. مما اضطر الى الدخول في صفقة خيانية مع نظام الشاه والاتفاق معه في الجزائر سنة ١٩٧٥ تنازل بموجبه عن جزء من أرض وسيادة العراق (عمق ٥ كيلومترات من حاج عمران شمالاً إلى خط تالوك في شط العرب جنوباً) لقاء قيام نظام الشاه بقتل التمرد الكردي بقيادة ملا مصطفى البارزاني.. وبعد تسلم قيادة الخميني الحكم، الغى صدام الاتفاق ونصوصه، فكان سبباً لنشوب الحرب الإيرانية ـ العراقية. . . وعندما شعر صدام بأن الميزانية أصبحت خاوية وأن موارد النفط لا تكفي لتغطية فوائد الديون المستحقة المتراكمة نتيجة الحرب مع إيران، وليس بإمكانه تنفيذ مشروعه الميكافيلي الحقير امام الشعب العراقي، فقفز إلى الكويت محاولاً السيطرة على آبار النفط هناك والاستئثار بحصتها النفطية وفق استحقاقات منظمة (أوبك) وتعويض الأضرار الفادحة نتيجة الحرب مع إيران، وبنتيجة ذلك أبيد أكثر من ٥٠ ألف جندي عراقي عدا الأضرار والتعويضات الاقتصادية والحصار المفروض عليه منذ أكثر من ست سنوات والفرص التي خسرها العراق في مجال التنمية والاستثمار ومن جميع النواحي. . .

إذاً فإن السبب الرئيسي لمشاكل ومعضلات العراق السياسية والاقتصادية والاجتماعية هي القضية الكردية، لأنها مفتاح البلاوي والمآسي للشعب العراقي. وهذه القضية من الأسباب غير المباشرة الهامة في تدشين النظام العسكرتاري ومن ثم الدكتاتوري في العراق ومنذ التأسيس، لأن الدولة العراقية كانت كياناً مصطنعاً ومولوداً جاء إلى الحياة بعملية قيصرية وجبرية بعيداً عن إرادة الشعب العراقي، وتاسست على أساس تعدد القوميات الإجباري لا الطوعي. . . والكيانات المصطنعة تلقى تحديات داخلية كبيرة ومعرضة للانقسام والتفتت في وقت من الأوقات، بسبب عدم وجود الضمير المشترك أو معطيات الوطنية الحقة للحفاظ على سيادة الوطن، وخاصة أن العراق يشكو من عدة جوانب في هذا المضمار. . . فهناك الشيعة والسنة والأكراد والعرب والتركمان والآشوريون والجميع في تناقضات وتناحرات وصراع على السلطة. . . وقد شعر القادة العراقيون بهذا الواقع المر منذ اليوم الأول من تاسيس الدولة العراقية. . . كما أن الحركات الكردية المسلحة التي انفجرت منذ البداية (حركة شيخ محمود ١٩١٩/١٩٢٥) وحركة اليزيديين في جبل سنجار سنة ١٩٢٧ وحركة بارزان الأولى بقيادة شيخ أحمد (١٩٣٢) ومشاكل التياريين في الموصل ونتائج ثورة العشرين، كلها قد حفزت القادة والسياسيين الجدد لتشكيل سلطة مركزية قوية في بغداد بغية الحفاظ على الكيان

المتارجح، وخاصة أن معظمهم كانوا ضباطاً في الدولة العثمانية المنهارة أمثال نوري السعيد وتوفيق السويدي وجعفر العسكري والاخوين ياسين وطه الهاشمي وحكمت سليمان وغيرهم والمتشربين بالتقاليد العسكرية العثمانية والنزعات الكولونيالية ذات الأهداف التوسعية بالقوة والقمع، والمتأثرين بنهج رواد الطورانية (الدولة القومية) والعنصرية من أمثال قادة الاتحاد والترقي أو ما يسمى بالاتحاديين وأعضاء جمعية «تركيا الفتاة» والأتراك الشبان المغمورين وعلى رأسهم مؤسس تركيا الجديدة كمال أتاتورك، وخاصة بعد أن أحرز نجاحات كبيرة بتوحيد القادة الأتراك وتأسيس الجمهورية وضرب الحركات الكردية بيد من حديد ـحركة شيخ سعيد بيران/ حركة شيخ رضا الدرسيمي)، فانشئ كيان قوي على حساب الشعوب المضطهدة مثل العرب والأكراد واللاس والشركس.. فمنذ اليوم الأول من استلام اولئك القادة الشوفينيين زمام الأمور في العراق، طلبوا من حلفائهم الانكليز تأسيس جيش عراقي حديث بغية الحفاظ على الكيان المصطنع وفعلاً تم تاسيس الجيش وفق التقليد الانكليزي، المطعم بالفكر الشوفيني الطوراني، الذي يعتبر بأن «العسكري فوق الجميع» مما جعل اللبنة الأولى للسلطة في العراق بنية مركزية أولاً، وعسكرتارية ثانياً وبعيدة عن التقاليد الديمقراطية ثالثاً. ومن جانب آخر فقد تم سن دستور فُصلت بموجبه السلطات التشريعية والتنفيذية والقضائية ووضعوا آليات الدولة وهياكلها الإدارية وفق النمط الإنكليزي الديمقراطي.. والهدف من ذلك ربط الطبقة الإقطاعية ورؤساء العشائر بالدولة بغية إعادة إطار عام لعملية الإندماج بين قطاعات الشعب والمذاهب الدينية والقوميات المتعددة. . . ولم يكن لهذه السلطات أو الهيئات أي اعتبار سياسي أو نفوذ سلطوي على الدولة. وما قول الشاعر العراقي « علم ودستور ومجلس أمة / كلها عن المعنى الصحيح محرف» إلاّ دليل على هذا الواقع. ولم يكن وضع إيران تركيا (. . .) أفضل من وضع العراق.. حيث أن الدافع الموضوعي والتحديات الجدية لكياناتها نتيجة تعدد القوميات فيها قد فرض عليها تأسيس سلطات مركزية يكون الجيش والقوة العمود الفقري فيها.. ونلاحظ بأن دول أخرى تأسست مثل الاردن والسعودية والكويت، إلاّ أنها لم تكن تعاني من تعدد القوميات والمذاهب ولم يفكر قادتها بتشكيل جيوش حديثة إلا بعد الحرب العربية الإسرائيلية ١٩٤٨، حيث كانت تملك قوات رمزية مثل الشرطة والدرك الحدودي.

ونتيجة للواقع المفروض فقد لعب الجيش العراقي منذ تأسيسه دوراً خطيراً في السياسة العراقية ودخل معارك وحروباً لا نهاية لها وأدناه المعارك والحروب التي

خاضها لكي يتمكن القارئ من الدخول في الاستنتاجات والاستقراءات حول المآسي والويلات التي عانى منها الشعب العراقي وبدد فرص الحياة الكريمة والتنمية الاقتصادية والاجتماعية:

١ـــ ١٩٢١ – ١٩٢٥ ثورة شيخ محمد	٤ سنوات
٢ـــ ١٩٢٧ حركة اليزيديين في جبل سنجار	١ سنة
٣ـــ ١٩٢٨ الحركة التيارية	١ سنة
٤ـــ ١٩٣٢ حركة بارزان الأولى بقيادة الشيخ احمد البارزاني	٢ سنة
٥ـــ ١٩٣٧ انقلاب بكر صدقي	
٦ـــ ١٩٤١ حركة مايس (رشيد عالي كيلاني)	
٧ـــ ١٩٤٣ الحركة البارزانية الثانية بقيادة ملا مصطفى	٣ سنوات
٨ـــ ١٩٤٨ مشاركة الجيش العراقي في حرب فلسطين	٢ سنة
٩ـــ ١٩٥٨ ثورة ١٤/تموز/٥٨ وإعلان الجمهورية	
١٠ـــ ١٩٥٩ حركة الشواف في الموصل	
١١ـــ ١٩٥٩ الحرب الأهلية في كركوك	
١٢ـــ ١٩٦١ الحركة الكردية الكبرى في ١١/٩/١٩٦١	١٥ سنة
١٣ـــ ١٩٦٣ انقلاب ١٤ رمضان وحرب الأهوار	
١٤ـــ ١٩٦٤ انقلاب ١٨ تشرين ١٩٦٤	
١٥ـــ ١٩٦٧ مشاركة الجيش العراقي في الحرب العربية ـــ الإسرائيلية	
١٦ـــ ١٩٦٨ انقلاب ١٧/٧/١٩٦٨	
١٧ـــ ١٩٧٣ مشاركة الجيش العراقي في حرب تشرين ١٩٧٣	
١٨ـــ ١٩٧٥ عودة الاقتتال في كردستان	١٦ سنة
١٩ـــ ١٩٧٦–١٩٩١ اندلاع الحرب الكردية مرة ثانية بمشاركة جميع الفصائل الكردية	
٢٠ـــ ١٩٧٩ انقلاب صدام حسين على أحمد حسن بكر	
٢١ـــ ١٩٨٠–١٩٨٨ الحرب العراقية الإيرانية	٨ سنوات
٢٢ـــ ١٩٩٠–١٩٩١ احتلال الكويت	٦ سنوات
٢٣ـــ ١٩٩١ حرب العراق مع أمريكا وحلفائها	
٢٤ـــ ١٩٩١ الانتفاضة وقمعها	

الفيدرالية والقضية الكردية:

مادامت حلول القضية في الوقت الحاضر تنحصر في إطار دولة العراق وسيادته لوجود الظروف الذاتية والموضوعية والإقليمية، يجب البحث عن معيار يتم بموجبه إخماد النيران ووقف المذبحة المستمرة، وخلق أرضية صلبة لعدم تكرار الكوارث والقتل الجماعي، سواء كان هذا المعيار في صيغة الحكم الذاتي أو الاتحاد الطوعي (الاختياري) أو الحل الفيدرالي.. أو غيرها من الحلول بشرط أن يمثل الإصطلاح جوهر الموضوع ومضمونه، وأن لا يكون شكلاً كارتونياً عديم الفحوى والمضمون، وبالتالي تتراجع الحلول وتنفجر المشكلة مرة ثانية.

إن أفضل معيار لحل هذه القضية الشائكة، التي أصبحت سبباً في تردي أوضاع العراق ومصدراً لجلب الكوارث والحروب إليه، هو أن تكون الآلية التطبيقية والإدارية مضمونة لتمتع الشعب الكردستاني بحقوقه وحرياته الأساسية أولاً وأن يضمن أيضاً الأسس الديمقراطية في العراق، دون مداخلات تعسفية من السلطة المركزية من شأنها إضعاف تلك الحقوق وتسييرها وتمييعها.. ويمكن القول بأن المعارضة العراقية بجميع اتجاهاتها والقادة الأكراد سواء كانوا أفراداً أو أحزاباً، لم يفهموا بشكل واضح مضمون الحكم الذاتي أو الاتحاد الاختياري أو مضمون الفيدرالية والنظم السياسية الأخرى.. ولم يحددوا الفوارق الأساسية بينها.. ولكي يتضح الأمر بشكل جلي، أود أن أعرج على هذا الموضوع وبشكل مختصر في النقاط التالية:

أولاً: إن الحكم الذاتي مصطلح من مصطلحات القانون الدستوري، جوهره يتعلق بالمضامين الحقوقية لا بآليات التطبيق والصيغ الإدارية، وكذلك الاتحاد الاختياري وفق الأسس المتفقة.. أما الفيدرالية فهي نظام خاص بآلية تطبيق تلك المضامين، وإن الخطأ الكبير الذي وقع فيه القادة الأكراد هو اعتبار الفيدرالية أعلى درجة وأوسع حقوقاً من الحكم الذاتي وبالتالي أفضل مطلب..!! لكن هذا هو مفهوم خاطئ وقاتل أيضاً وكان بإمكانهم أن يطالبوا ويرفعوا شعار الحكم الذاتي وبالصيغة الفيدرالية.. وأقصد أن يكون مضمون الحق هو الحكم الذاتي وآلية التطبيق هي الفيدرالية.. لأن الحكم الذاتي كاصطلاح قانوني ودستوري، يعني أن يحكم الشعب أو الجماعة البشرية الأثنية أو الدينية أو المذهبية نفسها بنفسها دون تدخل السلطة المركزية، إلاّ في حدود النقاط المحددة التي تتعلق بأركان السيادة.. كما أن ميثاق الأمم المتحدة قد حدد الأقاليم المشمولة بالحكم الذاتي أو الانتداب والوصاية بشرط أن تكون ذات خصائص قومية أو

دينية.. أما الفيدرالية كنظام سياسي وإداري فإنها تطبق وفق جميع الظروف، وهي بالأساس وسيلة لتخفيف العبء الإداري والمالي على كاهل الحكومة المركزية وضمان مشاركة الشعب في العملية الديمقراطية وتوسيع قاعدتها الهرمية. ولم تأتِ لحل القضايا القومية فقط حسب ما يذهب إليه بعض الأوساط السياسية.

والأمثلة كثيرة بهذا الصدد، فمثلاً النظام الفيدرالي في أمريكا والمانيا لم يأت لحل القضية القومية هناك بل إنه طبق وفق مضمون إداري وسياسي. . أما النظام الإداري في كندا فهو نظام فيدرالي ذو مضمون إداري بخصوص عموم دولة كندا وذو مضمون حكم ذاتي وكالية نظامية لمقاطعة (كيبك) ذات الخصائص القومية المختلفة عن المقاطعات الأخرى.

إلا أن التشويه الفظيع الذي أحدثه نظام صدام حول الحكم الذاتي ونموذجه الكارتوني قد خلق صورة ضبابية ومشوهة للحكم الذاتي لدى الجميع، في حين أن النموذج الأقرب لمضمونه الحقوقي والدستوري هو نموذج الحكم الذاتي الفلسطيني والذي أخذ طريقه إلى التطبيق رغم كونه حكماً ذاتياً محدوداً.. حيث جرت انتخابات تشريعية وانتخاب الزعيم الفلسطيني رئيساً للسلطة. . . وبإمكان هذه السلطة إجراء اتفاقيات اقتصادية وسياسية مع جميع دول العالم واللقاء مع قادة الدول وفق التقاليد الدبلوماسية.. وقد اضطرت الاحزاب الكردستانية في مرحلة من المراحل إلى المطالبة بالحكم الذاتي الحقيقي والغرض من هذا الاصطلاح الجديد هو وضع حد لتشويهات نظام صدام حول مضمون هذا النظام.

ثانياً: هنا سؤال يفرض نفسه بقوة: ماهو مضمون الحكم الذاتي؟ الجواب: وفق القواعد القانونية، أن المطلق يأخذ على إطلاقه ولا اجتهاد في مورد النص.. فللحكم الذاتي معيار أساسي لايمكن الخروج عنه بأي شكل من الأشكال وهو: تحقيق الهدف الذي جاء من أجله.. فإذا كانت القضية قومية وهي محل نزاع وتم اختيار صيغة الحكم الذاتي لأجل حلها، فيجب أن يتمتع أبناء تلك القومية بالحقوق والحريات الأساسية مثل باقي الشعوب. . . كما أن تطبيق تلك المضامين يحتاج إلى ضمانات دستورية وقانونية تضمن تمتع ذلك الشعب بتلك الحريات والحقوق دون تدخل السلطة المركزية. . . كما أن المواثيق الدولية قد حددت تلك الحقوق والحريات بشكل واضح.. ويمكن ذكرها بالشكل الآتي:

١ــ اعتراف السلطة المركزية بالهوية القومية للشعب الآخر وتثبت ذلك دستورياً.

٢ــ تحديد الإقليم المشمول بالحكم الذاتي جغرافياً وفق المعايير المعتبرة، ومنها الغالبية السكانية أو المعالم التاريخية الجغرافية والحضارية للشعب.

٣ــ تحديد الصلاحيات التشريعية والتنفيذية والقضائية وتأهيل تلك السلطات بتشريع القوانين الإقليمية وتطبيقها بما يساعد الشعب على تطوير نفسه في جميع المجالات، وأن يكون حراً في إنماء نفسه اقتصادياً واجتماعياً وثقافياً وإحياء تراثه الحضاري.

٤ــ وضع حدود دستورية فاصلة بين الصلاحيات المركزية والإقليمية بشكل واضح ودقيق تلافياً لتنازع السلطات والقوانين.

٥ــ تشكيل محكمة دستورية للنظر في تنازع القوانين المركزية والإقليمية.

أما إذا كانت آلية التنفيذ والتطبيق بالصيغة الفيدرالية فيكون الأمر ملائماً بشكل أفضل. . . فتطبق الآلية الفيدرالية في عموم العراق على أساس المضامين الادارية.. وفي كردستان على أساس الحكم الذاتي والحقوق القومية.. وبهذه الطريقة فإن القضايا المالية والميزانية ونظام البلديات تحل بشكل أسلم وخاصة القضية الديمقراطية التي تعتبر ضرورية للعراق.. لأنها تنزل إلى المجالس المحلية في المحافظات والوحدات الفيدرالية. ويوجد في العراق قانون غير مطبق صدر سنة ١٩٦٤ يسمى قانون المحافظات. إلا أن نظام صدام حسين قد عدله وغيره وفق مفهوم النظام.

إن الفهم الخاطئ قد أوقع أوساطاً كثيرة من المعارضة العراقية، خاصة التيار القومي والإسلامي، باتخاذ مواقف معارضة ومتحفظة للصيغة الفيدرالية.. وتصوروا بأن الفيدرالية هي امتداد للانفصال!! ولكن العكس هو الصحيح فإن الآلية الفيدرالية تعني الاتحاد والدمج بين جزئين: أما الحكم الذاتي وهو استثناء الجزء من الكل والانسلاخ عنه بشروط معينة. . . والاستثناء والانسلاخ طريقان لأبتعاد الجزء عن قرارات الكل مع ضمان استقلال قرارات الجزء عن المداخلات المركزية، وفق احكام الدستور.

وقد وقع الأستاذ صباح الجزائري في نفس الخطأ عندما أكد بأن رفع شعار الفيدرالية سابق لأوانه وبسبب تفكك المعارضة (رغم أن الأخيرة مفككة بذاتها لا لهذا السبب، وإنما لأسباب ذاتية وموضوعية اخرى. . .)

وفي الختام أؤكد بأن العراق لا يصبح مهداً لأبنائه، إلاّ بحل القضية الكردية حلاً سليماً وعادلاً ووفق مشيئة هذا الشعب.. وإلا فإن جميع المؤشرات تشير إلى أن الزمر العسكرية المنشقة عن نظام صدام هي الآن في دورة تأهيلية لدى الاستخبارات المركزية الأمريكية وبمجرد انتهاء الدورة سوف تكون البديل المحقق لنظام صدام، فتبقى جميع الأوضاع على أحوالها.. وسوف أكون مع الزميل صباح الجزائري من المعارضين للنظام الجديد.. ويمكن أن نقول أن قدرنا أن نظل معارضين.

نحو ترقية الخطاب وتدقيق الاشكاليات

د. صالح ياسر

شهدت السنوات الأخيرة إحتدام الصراع الأيديولوجي والمعارك الفكرية الصاخبة حول جملة من القضايا، بالرغم من «التنظيرات» الرائجة حول نهاية الأيديولوجيا ونهاية التأريخ. وقد إنعكس ذلك على نشاط الحزب والصعوبات التي واجهته في صراعاته المتعددة الصُعد، بأبعادها المحلية وأمتداداتها الاقليمية وتشعباتها الدولية. والقت تلك الوقائع والصعوبات بثقلها على الحزب، وأعباء اضافية عليه، وعرقلت تبلور ونضوج جهوده لترقية خطابه السياسي وممارساته الملموسة. لقد أعاق ذلك الجهود التي بذلت لصياغة خطاب قادر على الإجابة على أسئلة الواقع وكذا تعبئة القوى للتصدي للهجوم الأيديولوجي البالغ التنوع والحدة.

يتعين علينا، إذن، مواجهة الصعوبات التي يعاني منها خطابنا الراهن مواجهة مباشرة داخل دائرة الاشكاليات التاريخية والسياسية الملموسة. ويستحث ذلك فتح الأفق أمام مناقشة ثرية تصب في مسعى البحث الجاد عن ممكنات تطوير خطاب الحزب، وبما يمكن من تدقيق أسئلته القديمة وبلورة أسئلة جديدة، وتحفيز مناضلي الحزب والمشتغلين على الجبهة الفكرية للتفكير ومحاولة الإجابة عليها، لكي يكون خطاب الحزب محصلة العقل الجماعي قولاً وفعلاً. وحسناً فعلت قيادة الحزب في طرحها لصيغة «الموضوعات السياسية الفكرية» باعتبارها مدخلاً للنقاش، معولة على أن الموضوعات بما تحتويه من تحاليل واستنتاجات واجتهادات ستشكل منطلقاً لنقاش على مستوى

الحزب كله، مما سيؤدي في نهاية المطاف الى إثراء تلك الموضوعات واغنائها بتحليل واستنتاجات رفاق الحزب. إن ترقية خطاب الحزب وإثراء خطه السياسي يستحث تركيز المناقشة على توليفه محددة من الاشكاليات. آخذا بنظر الاعتبار ضيق المساحة المخصصة سأركز على ثلاث إشكاليات، أعتقد أنها أساسية.

إشكالية البدائل المطروحة

يتعين التأكيد، في مناقشة هذه الاشكالية، على أن هناك بدائل متنوعة «تتصارع»، وهناك إستراتيجيات عديدة للتغيير في العراق تطرح وتصاغ «وتطبخ على نار هادئة». ولكن مهما تنوعت تلك البدائل وتعددت استراتيجيات تجاوز الوضع الراهن فانها تظل تدور بين مشروعين وإستراتيجيتين كبيرتين ومتصادمتين وبديلين أساسيين: بديل وطني ديمقراطي وبديل ديكتاتوري ــ بيروقراطي سلطوي معدّل، يقدم لنا بطبعات مختلفة.

إن هذه الحقيقة، على بساطتها، تستحث ضرورة تركيز الجهود لإجراء تحاليل أكثر عمقاً لاشكالية البدائل، التي تطرح بحدة اليوم. ويستحث ذلك ضرورة التعامل معها بمزيد من الدقة والفحص المتأني والمعالجة المركبة. ويعني ذلك حتى بين أمور عديدة ضرورة القراءة الصاحية وتفكيك الخطابات المطروحة، والكشف عن المشترك والمختلف فيها. وهناك ضرورة وحاجة ملحة لتحليل الاستراتيجيات الاقليمية ورؤية مستقبل بلادنا في ضوئها. لنعترف بأن التحليل الأستراتيجي في حزبنا ظل لفترة طويلة من قبيل الترف النظري، لأسباب معروفة، لا مجال للخوض فيها، مما ألقى بثقله على تبلور تحاليل متماسكة للعديد من القضايا. ويتعين إستخلاص الأستنتاجات المطلوبة من ذلك، وتنمية وترقية الجهود نحو تحقيق نجاحات فعلية في هذا المجال.

إن القضية التي تحتاج الى عناية كبيرة من طرف قيادة الحزب هو الوضوح والمزيد من الوضوح بصدد العديد من المشاريع المطروحة، التي تسعى وتكافح وتروج أساساً لاجراء تغيير شكلي / فوقاني، يروم في الواقع إجراء تغيير في النظام وليس تغيير النظام. والأمر ليس لعبة مصطلحات، بل أن القضية مفهومة!. ولهذا فان المهمة المطروحة على صعوبتها ومحدداتها الكثيرة، تتمثل بالسعي الدؤوب والمتواصل للترويج الى خلق الأرضية الفعلية لتبلور المشروع الوطني الديمقراطي، والبحث الدؤوب عن قواه المشتتة والسعي لتجميعها في أطر محددة. إن هذه الأطروحة لا تعني

طبعاً الانغلاق على الذات بل يتعين السعي الدائب للتعلم ولتحقيق مزاوجة مرنة بين الموقف والنضال الدائم لتحقيق مشروعنا، وبين التعبير عن موقفنا من المشاريع الأخرى، ومعرفتها عن كثب، ومن دون تحميل أنفسنا بالتزام أو شروط ملزمة أو الدخول في صيغ لم تنضج معالمها بعد.

يتعين التأكيد، في خطابنا، على حقيقة أن عملية تكون وتبلور القوى القادرة على الاطاحة بالنظام الديكتاتوري هي عملية بالغة التعقيد والصعوبة. ولهذا يتعين علينا أن نلعب دورنا الثابت، غير المتأثر بالصعوبات والضغوطات المتنوعة، والمناورات الاستفزازية، ونركز جهودنا على القضايا الأكثر وضوحاً ونضوجاً. وفي قلب هذه المهام ينبغي مواصلة النقاش والتحاور حول أهمية وضرورة البديل الوطني الديمقراطي. الأساس في هذا النقاش أن البديل المذكور هو الحل الوحيد القادر على إخراج بلادنا من أزمتها البنيوية بأقل التكاليف. ولهذا فان نقاشاتنا يجب أن تتركز على السعي للإجابة على عديد من الأسئلة، من بينها:

* ماهي الظروف الموضوعية والذاتية لتحقيق هذا البديل؟
* ماهي الأسباب الفعلية التي حالت، حتى هذه اللحظة، دون نشوء التحالف الوطني الديمقراطي؟
* ماهي الوسائل الكفيلة ببلورة الأشكال التنظيمية للتحالف المذكور؟
* كيف يوفق الحزب بين موقفه المستقل وبين تحالفاته المتعددة الصيغ والأشكال، وكيف يعبر عن تمايزه ووجهه الطبقي/السياسي المستقل في التحالفات والنشاطات المشتركة. ومن المهم التأكيد على أن هذا التمايز لاينبغي أن يكون هدفاً بحد ذاته، لأنه عندما يصبح كذلك فانه سيشكل خطراً سيقود إلى الانعزال. فالتمايز المذكور يجب أن يقترن بالنشاط الدؤوب الذي لايكل من أجل الوحدة.

والخلاصة ينبغي أن ينصب جهدنا الفكري على الترويج للبديل الوطني الديمقراطي وتوضيح أسسه الفكرية والسياسية.

هناك ضرورة تطرح نفسها بالحاح لرفض الخطاب التبسيطي الديماغوجي بصدد أزمة حركة المعارضة وقواها، والتسلح بعُدّة نظرية وسياسية تمكننا من إخراج ملاحظاتنا من السجال بالبيانات، الى نقد الممارسات الفعلية. كما تكشف عن نفسها ومن دون غطاء إيديولوجي يحجبها. إن الرفض أو التباطؤ من قبل بغض القوى في إقامة الحلف المعادي للديكتاتورية مرتبط في العديد من جوانبه بأنشداد يتعاظم باستمرار الى

الخارج والمراهنة على خيارات إقليمية ودولية الأبعاد، تروج لبدائل ممكنة التحقيق تحت حراب خارجية.

إن التاكيد على البديل الوطني الديمقراطي والترويج له يمكن أن يفتح الطريق والأفق أمام تبلور القوى المطلوبة لانضاج أو لإنجاز الشروط لحل وطني/ شعبي/ ديمقراطي مقاوم للديكتاتورية من جهة ولكل المخططات والخيارات البونابارتية ــ الديكتاتورية ــ السلطوية الخارجة من تحت معطف الامبريالية الأمريكية وحلفائها، والرامية ليس إلى حل جذري للأزمة البنيوية الراهنة في بلادنا، بل إستخدامها كأداة، من ضمن أدوات عدة، لاعادة ترتيب الأوضاع الجيوسياسية الأقليمية بأبعادها العالمية.

إشكالية الديمقراطية وكيف نفهمها

يجري الآن، تحت ضغط حراب الخطاب الليبرالي الجديد وهجوم مؤسساته ذات النشاط الدولي، الترويج لتصورات معينة للديمقراطية، هي التي يجب أن تسود. وتحت ضغط هجوم ايديولوجي جارف يجري عرض هذا النموذج وكأنه الوحيد ولاخيار غيره أمام المجتمعات المختلفة. ولهذا فان الحزب، أمام هذا الهجوم الصاخب والعاصف، بحاجة ماسة لتدقيق مواقفه وتوضيح رؤياه لاشكالية الديمقراطية إنطلاقاً من سؤال حاسم: الديمقراطية لماذا ولمصلحة من؟

إرتباطاً بذلك فنحن ملزمون بتبني وخوض صراع فكري من أجل توضيح القضية الحاسمة المتمثلة في أن الهدف الأكثر ديمقراطية، في اللحظة الراهنة، لا يتمثل في الدفاع عن المصالح الضيقة والأنانية لبعض القوى الطامحة نحو السلطة أساساً، والتي تلتقي معها بشكل تلقائي النوايا الانتقامية لشخصيات من داخل النظام أو خارجه، ساخطة عليه لا بسبب عدائها الجذري له، بل لأسباب تكتيكية معروفة. إن الهدف الأكثر ديمقراطية بالنسبة لنا يجب أن يتمثل في الدفاع الصبور والثابت عن المصالح الوطنية والديمقراطية لمجتمعنا المكتوي بنار الديكتاتورية وآثامها، والبحث عن حلول تصب في طريق التقدم العام لشعبنا ومستقبله الديمقراطي. ويعني كل ذلك أن نصوغ ونطور مفهوماً محدداً للديمقراطية، يسمح لنا أن نتمايز ونتعارض بكل وضوح مع تصورات عن الديمقراطية تحملها الاتجاهات المختلفة، بما في ذلك الاتجاهات الليبرالية تحديداً. بمعنى أن المطلوب هنا هو أن يصوغ الحزب ويطرح تصوراً ومفهوماً محدداً للديمقراطية، التي يجب أن تكون مشحونة بكل محتوياتها الأجتماعية، حاملة في طياتها

مجموع الظروف والشروط المادية والروحية للناس عموماً وللفئات والقوى الاجتماعية التي اكتوت بنار الديكتاتورية وحروبها ومصائبها المتنوعة، ديمقراطية تضمن، على وجه الخصوص، التقدم والازدهار العام للمجتمع وتحقيق قدر معقول من العدالة الاجتماعية.

لهذا فانه يتعين على الحزب أن لا ينظر الى إشكالية الحريات الديمقراطية (وبمعنى أوسع ـــ الديمقراطية السياسية) وكأنها مسألة قائمة بحد ذاتها، مستقلة عن الديمقراطية الاجتماعية. إن موقفنا وفهمنا للديمقراطية السياسية يجب أن يعبر عنه بكل وضوح وصراحة، بالتأكيد على أن الديمقراطية السياسية ترتبط إرتباطاً وثيقاً بالعملية العامة لتطور المجتمع بأبعادها الأجتماعية المختلفة. وهكذا فان هناك مهمة ملحة تطرح نفسها على عملنا، في الجبهة الفكرية الساخنة، وتتمثل بضرورة الكفاح الدائب ضد خطر تضبيب الرؤية بخصوص الخط الفاصل بين ديمقراطية مشحونة بكل الأبعاد الاجتماعية والمضامين الثرة لها، وبين «ديمقراطية» مفصولة الجذور عن الواقع الأجتماعي لبلادنا، وتلاوينه ومعضلاته الفعلية، وتناقضاته الملموسة. إضافة لذلك يجب التأكيد على حقيقة اخرى هي الأطروحة المضلّلة التي يروج لها الخطاب الليبرالي الجديد والتي تلح على مساواة الديمقراطية بالرأسمالية بأعتبارها شرطها الوحيد. إن طرحاً كهذا انما يقوم على محاججة إيديولوجية صارخة، تتجاهل خصوصيات مجتمع معين.

لا يستطيع المرء أن يطرح وصفات جاهزة لتحل محل الجدال الديمقراطي بصدد هذه القضايا، غير أنه يتعين الإشارة الى أن حل اشكاليات القبول بديمقراطية سياسية ضمن منطق وسيرورات علاقات الانتاج الرأسمالية تحديداً إنما تعني ضرورة أو إشتراط القبول بالتنمية الرأسمالية بكل نتائجها الحتمية، بما في ذلك الاستقطاب الاجتماعي الحاد. وكما تشير التجربة التاريخية خلال العقود الأخيرة في مناطق مختلفة من «العالم الثالث» فان المشاريع التي قدمتها القوى التي ربطت بين دمقرطة المجتمع ورسملته المتعاظمة كشرط للتطور، قد أدت الى تحديث الديكتاتوريات وتقديمها وكأنها حامي الديمقراطية، بعد إجراء تعديلات في أشكال ممارسة السلطة مع الابقاء على الجوهر دون تعديل. كما اقترن ذلك بتعظيم التبعية والتخلف والاستغلال بدل التنمية والاستقلال، وتفاقم الاستقطاب الاجتماعي بدل تحقيق العدالة الاجتماعية.

إشكالية الأزمة البنيوية الراهنة وكيفية تحليلها، وتحديد طبيعة السلطة

إنه لأمر مهم التأكيد على أهمية المحاولة المثبتة في «الموضوعات» لتحديد طبيعة السلطة وإبراز التغيرات والتحولات الحاصلة فيها. وأهمية هذه المحاولة تنبع من حقيقة أن تحديد طبيعة السلطة يمثل نقطة البداية والمنطلق لجهد الحزب نحو صياغة إستراتيجيته وتكتيكاته في اللحظة الملموسة.

تنطلق «الموضوعات» من الاجتهاد في إبراز أن «التحديد السابق لطبيعة السلطة بكونها برجوازية بيروقراطية وطفيلية، أقامت دكتاتورية من نمط فاشي شمولي (...) يتطلب الاغناء والتدقيق في ضوء التغيرات التي طرأت على السلطة». ويعني ذلك تحديدا مسعى الحزب وقيادته «لاستفزاز» الجميع للنقاش حول إشكالية جوهرية ولكنها بالغة التعقيد. إذا أخذنا بنظر الاعتبار التغيرات التي شخصتها «الموضوعات» بالتفصيل وربطناها بالتحديد السابق لطبيعة السلطة أمكننا أن نتساءل: هل تؤثر «التغيرات التي طرات على السلطة» على تحديد طبيعتها بكونها «برجوازية بيروقراطية وطفيلية، أقامت دكتاتورية من نمط فاشي شمولي»، أي هل أنها مازالت تحمل نفس التسمية أم لا؟ وإذا لم تعد تحمل هذه التسمية ماذا عساها أن تكون؟

ثمة، إذن، ضرورة لتدقيق وتعميق تحليل الحزب بسبب طبيعة النظام، وتجاوز تلك التحاليل المتعجلة أو الشعبوية والاستنتاجات غير العميقة للطبيعة الفعلية للنظام، وملاحظة التمايزات الفعلية الحاصلة في بناه الاقتصادية، والسياسية، والفكرية، بنتيجة تأثير توليفة واسعة من العوامل، وبسبب حروبه الداخلية والخارجية، وأخيراً الحصار الاقتصادي وماترتب عليه من آثار مدمرة عطلت السيرورة الاجتماعية ومنعتها من أن تتبلور وتأخذ وجهتها الصحيحة باتجاه إنفجار تلك الأزمة البنيوية والمتعددة الصُعد.

يستحث كل ذلك، إذن، ضرورة اعتماد منهجية تعتمد مقاربة تمر على مختلف مستويات التشكيل الاجتماعي الراهن وتشخيص المعضلات الفعلية لكل مستوى. لقد شهدت الفترة المنصرمة تركيز الجهود لانتاج معرفة عن أحد المستويات دون إعطاء المستويات الأخرى أهميتها ووزنها المحدد في التحليل.

إن تحليلاً متماسكاً للتشكيل السائد في بلادنا، في لحظته الملموسة، يستحث مقاربة مركبة إذن، تسمح بدفع هذا التحليل الى نهايته المنطقية عن طريق إبراز تلك الرابطة

الجدلية بين هذه المستويات والكشف عن التناقض الرئيسي ولحظاته المتوترة، بما يسمح بتحديد الحلقة المركزية، وبالتالي تحديد القوى القادرة على حل هذا التناقض أو التأثير فيه بشكل إيجابي.

إن هذه المقاربة المنهجية تستلزم ضرورة إثارة الأسئلة حول العديد من الصياغات والمفاهيم غير الدقيقة السائدة في خطابنا الراهن، وبيان عدم قدرتها على إنتاج معرفة متكاملة ومركبة حول التناقضات الفعلية الناظمة لمختلف مستويات التشكيل الاجتماعي. لقد لاحظنا خلال السنوات الأخيرة، على سبيل المثال، استخداماً مكثفاً لمفهوم «الطغمة» لوصف الوضع في بلادنا، ومعاينة التمايزات في بنية النظام بهدف إنتاج معرفة أدق تساعد في تدقيق سياساتنا وبلورة مواقفنا. غير أنه من المفيد الإشارة إلى أن هذا المفهوم الملتبس يثير تساؤلات منهجية حادة، أهمها مدى مشروعيته في وصف «الوضع الملموس» وقدرته على الاجابة على سؤال حاسم: لماذا مازال النظام يمتلك القدرة على المناورة بالرغم من أنه صار معزولاً وتبلور في «طغمة»؟ ونفس الأمر ينطبق على مفهوم «العائلة الحاكمة». هناك العديد من الأسئلة التي يمكن طرحها، والتي تستحث ضرورة البحث عن إجابات معللة، واعتماد منهجية تستخدم وتنتج مفاهيم واستخدام مقولات تعكس ثراء الواقع الاجتماعي بمستوياته المتنوعة وتناقضاته الفعلية، ومن دون أن تساهم في تضبيب الرؤية.

حين إنتقلنا الى صفوف المعارضة في أواخر السبعينات إعتمد الحزب في تحليلاته للنظام آنذاك مفهوم «البرجوازية البيروقراطية»، من دون إعداد نظري مسبق لذلك التحول، لوصف طبيعة السلطة والقوة القائدة لها. ثم جرى تطوير وتعميق هذا التحليل والسعي لإبراز الائتلاف الذي نشأ وتوطد آنذاك بين البرجوازية البيروقراطية والطفيلية كفئتين سائدتين في هذا الائتلاف، وبذلك حصل تطور نظري ملحوظ، بالرغم من الملاحظات التي طرحت آنذاك، غير أن تعمق أزمة النظام وحروبه الداخلية والخارجية، وتنامي مديات القمع وضآلة موارده المالية والحصار الاقتصادي وما ترتب عليه من نتائج مدمرة، كلها بمجموعها قلصت من الامكانيات الفعلية للرهان على الآليات «العادية» لاعادة إنتاج النظام بمستوياته المتعددة واللجوء المتعاظم الى «طابق القمع» كوسيلة حاسمة ومجربة لانجاز الوظيفة هذه. إن هذا التحول في الأشكال وفي مستويات إعادة إنتاج النظام دفعت قيادة الحزب الى التخلي عن أو إهمال تلك المفاهيم والمقولات والارتكان الى مفاهيم من قبيل «الطغمة» أو «العائلة الحاكمة».. .الخ لوصف طبيعة

النظام، التي لم تتغير جوهرياً بل «إغتنت» بمظاهر وتجليات جديدة من حيث اشكال الممارسة وترتيب الأولويات وميكانيزمات الممارسة. هكذا، إذن، وفي لحظة معينة وقع تحريف لمدلول التصحيح النظري الذي بدأه الحزب في أواخر السبعينات، عبر إستخدام المفاهيم السابقة، واليوم تعود «الموضوعات» الى مفاهيم «البرجوازية والبيروقراطية» و «البرجوازية الطفيلية».

إن الملاحظات السابقة تدلل على أن التفكير النظري لحزبنا كان ولايزال يشق طريقه عبر مصاعب منهجية عديدة، متارجحاً باستمرار بين منهجية «كلاسيكية» تعتمد مقاربة غير جدلية لطبيعة المرحلة التي يمر بها الاقتصاد والمجتمع العراقي وبين منهجية أخرى تريد أن تؤسس إشكالياتها وأسئلتها على مقاربة متعددة الصُعد للواقع بمستوياته المتنوعة، واعتماد منظومة من المقولات والمفاهيم القادرة على عكس هذا الواقع بدقة، وصياغته نظرياً بمزيد من العمق والوضوح، كي يمكن العمل على تغييره. ولهذا فان هناك حاجة ماسة لتحليل متماسك يعتمد المنهج المادي بتأريخيته وجدليته ومفاهيمه المفتاحية لانتاج معرفة صحيحة عن الواقع العراقي ومستوياته الاقتصادية، السياسية، الفكرية، وبيان التحولات الفعلية ألتي نشأت في بنية نسيجه الاجتماعي والتمايزات الحاصلة كذلك.

والخلاصة فان ترقية خطاب الحزب وإثراء خطه السياسي بشكل متواصل وإغناءه يجب أن تكون مهمة الجميع وليس مسؤولية هيئاته القيادية فقط. ويعلق المرء آمالاً كبيرة على المؤتمر الوطني السادس ليكون محطة جديدة نوعية، ومنبراً لنقاشات ثرية، إنتقادية، تكون محصلتها النهائية إنتاج خطاب وبناء خط سياسي ورسم سياسة محددة، تسمح جميعها بالتغلب النهائي على أزمة الحزب وتفعيل نشاطه وزيادة فاعليته ليكون بحق أحد المكونات الأساسية للمشهد السياسي المضطرب في بلادنا. إن الحزب أمام رهان كبير، وتقع على الجميع مسؤولية بلورة وعي متوقد، يكون قادراً على الإمساك بالجمرات الحقيقية للواقع، والإجابة على الأسئلة التي تواجهنا على مستوى التفكير والممارسة. فهل ينجح المؤتمر الوطني السادس في تحقيق الانعطاف المطلوب؟ سؤال برسم الإجابة.

حزيران ١٩٩٦

التحالفات السياسية واشكالية الديمقراطية

د. مؤيد عبد الستار

ان التحالف، والاحلاف، تكتيك حربي قديم، اضطر اليه الضعفاء غالباً لمواجهة عدو مكين عسى أن يتغلبوا عليه، لأنهم على يقين من عدم امكانهم الانتصار عليه فرادى، بسبب قلة العدد أو المال أو السلاح. ومن أشهر التحالفات التاريخية في الاسلام، تحالف قبائل الاوس والخزرج ضد قبيلة قريش ذات الجاه والنفوذ والسلطان، ومن ثم تحالف المسلمين واليهود (بني قريظة) ضد تحالف القبائل العربية التي زحفت على المدينة لقتال المسلمين. ويعود تحالف الصعاليك الى تاريخ اقدم من ذلك، يوم جمعهم عروة بن الورد تحت رايته ليقاتل بهم الاغنياء ويسلب اموالهم ويوزعها على أتباعه بسبب فلسفة انسانية آمن بها، واتكاء على تقليد بدوي شائع ألا وهو الكرم الذي كان يحتم عليه بذل ما في يده كي يبز أقرانه من رؤساء عشائر وأمراء ليسير بذكره الشعراء وهو القائل:

أقسم جسمي في جسوم كثيرة وأحسو قراح الماء والماء بارد

واشتهر في التاريخ الحديث تحالف الدول الاوربية ضد دول المحور، فكان أن انتصر الحلفاء، ولم يكن يحصل لو حاربوها دولا منفردة، ويشذ عن هذه القاعدة التحالف الاخير الذي قادته الولايات المتحدة ضد العراق، تحالف الأقوياء ضد شعب أعزل تحت امرة حاكم متواطئ، أرادوا له الدمار كي لا تقوم له قائمة في المستقبل من اجل ضمان مصالحهم النفطية.

وفي تاريخ العراق الحديث كان هناك اكثر من تحالف سواء بين العشائر أو بين

الاحزاب، وقد حقق تحالف العشائر ابان ثورة العشرين نصراً مبينا على الانجليز، ولكنه كان تحالفا عشائرياً لا يمكن أن يسير في الشوط الى منتهاه، وأشهر منه تحالف عشائر جنوب العراق الذي كان برئاسة شيخ مشايخ المنتفك مغامس المانع، الذي احتل البصرة وحارب جيش الوالي العثماني جديد حسن باشا عام ١٧٠٨، وتحالفت معه عشائر شمر والخزاعل وزبيد والمياح وغيرها، وبلغ تعداد رجاله اكثر من مائة الف مقاتل. فوقعت المعركة الطاحنة بينهم وبين جيش حسن باشا على مقربة من البصرة وانتهت بخسائر جسيمة وانتصار جيش حسن باشا.

أما على مستوى الاحزاب، فلدينا تجربة جبهة الاتحاد الوطني التي تعد الممهدة لانتصار ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨. كما اشتهر اثر الثورة شعار سياسي يكشف الحاجة الى التحالف، وهو: على صخرة الاتحاد العربي الكردي تنهار المؤامرات الاستعمارية، وهو الامر الذي حرصت القوى الاستعمارية على عدم تحقيقه ابداً.

أما التحالفات التي تمت بعد فشل ثورة تموز فاغلبها لم يحقق المرجو منه ولم تنهض التحالفات على ارض صلبة فكان مآلها جميعا الى زوال. فكثرت الهزائم حتى آلت الامور الى ضياع البلاد، وما زالت امامنا قائمة طويلة من الخسائر، سندفعها باستمرار مادمنا لم نحسم امرنا ولم نقرر الوقوف معا تجاه عدو تصعب مواجهته دون عدة وعدد.

ولاحظت أن السياسة التحالفية للحزب الشيوعي العراقي كانت على الدوام تحالفات هشة، لا تقوى على مواجهة الواقع الذي يفرضه الاعداء. ولابأس أن استشهد بالباحث الاجتماعي الكبير علي الوردي الذي استنتج قبل ما يقرب من عشرين عاماً نتيجة هامة لها علاقة بالتحالفات التي يعقدها شيوخ العشائر لمواجهة عدو مشترك والذي أورده في كتابه «لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث» الجزء الأول، الذي نشر قبل ربع قرن، يقول الوردي «من طبيعة العشائريين أن اتفاقهم مؤقت وتنازعهم دائم، فاذا اتيح لهم ان يتفقوا على امر ما، وينالوا فيه انتصاراً، فسرعان مايختلفون فيه ويتنازعون بعد نيل الانتصار، وهم بذلك لا يستطيعون ان يؤسسوا لانفسهم كيانا سياسيا ثابتا». فهل يا ترى أن احزابنا مازالت عشائرية في تحالفاتها؟! ورغبة في الاختصار سأجمل بعض الأفكار في نقاط محددة كي تكون أسهل على النظر فيها ومناقشتها، وهي:

أ ـــ ان عدم التحالف لايعني الاحتراب وان ح ش ع يستطيع الحفاظ على علاقات جيدة ومتينة مع القوى والاحزاب الاخرى، والتنسيق معها، دون الحاجة الى التحالف مع هذا الحزب أو ذاك، مما قد يسبب له اشكالات هو في غنى عنها. وبناء على ذلك تتضح لنا

أهمية التركيز على التنسيق مع كافة القوى الوطنية والشخصيات المستقلة من أجل اقامة دولة القانون بشروطها الأولية كمرحلة أولى، ومن ثم يتم العمل الدؤوب على تطويرها مستقبلاً الى دولة ديمقراطية.

ب ـــ ان اقامة صرح سياسي، سواء أكان حزباً أو دولة، بحاجة إلى جهود الجميع، جهود مادية ومعنوية، سياسية وعلمية، تقنية وفنية.. الخ. فالحزب لاينهض بمن قرأ كتاب الامير لميكافلي، ولا كتاب رأس المال لماركس، ولا حتى القرآن الكريم فقط. الحزب بحاجة الى كافة المعارف والعلوم، أما إذا ظل مقتصراً على نخبة من الساسة أصحاب الكلام، الذين يجيدون الاجتماعات، ويتقنون فن طق الحنك، كما يقول اهل الشام، فسيكون مصيره الى الزوال لا محالة.

وإذا أردنا إقامة دولة لها مكانة بين الأمم، أو حكومة تضطلع بمسؤولية الدولة الحديثة، فلا مناص من أن تساهم في إنشائها معظم الاحزاب والشخصيات العلمية والثقافية، وليس غريباً طلب الصهيونية من انشتاين تولي رئاسة دولة اسرائيل عام ١٩٥٢م. ان الاحتراب من أجل الوصول الى سدة الحكم لايعني إقامة دولة أو حكومة، لأن الحزب الذي سيصل الى كرسي الحكم وحده، سيجد نفسه في مواجهة الجميع، وهذا بالضبط ما حصل مع سلطة الحزب الحاكم ببغداد، وسيحصل مع غيره اذا سار على مثل هذا النهج، فاليوم نجد نحو مائة حزب وتنظيم عراقي في صراع مع الحزب الحاكم ومازال الحبل على الجرار.

بسبب المناخ السياسي العالمي وفشل نظام الحزب الواحد اثر تفكك الاتحاد السوفييتي، سارعت بعض الاحزاب الى تبني الديمقراطية، وظهرت تشكيلات متعددة تحسب نفسها ديمقراطية في الوقت الذي لا تتقن فيه الممارسة الديمقراطية، كما نشأت واجهات لاحزاب اتخذت أسماء ولافتات ديمقراطية كذباً.

إن الاحتكام الى الاقتراع، وممارسة حق الانتخاب، واتباع الاساليب الديمقراطية، مفخرة تدل على الرقي الحضاري رغم كل النواقص السلبية في هذه الممارسة. إلا أن اللجوء الى الخداع والاحتيال في تشكيل واجهات ديمقراطية لاحزاب ومنظمات تستفيد منها كواجهات تمرر اهدافها سيكون سلاحاً ذا حدين وسيكون شديد الضرر في المستقبل على أية منظمة تمارس وتسلك هذا السلوك، وستخسر ثقة الجماهير التي ستجد نفسها يوما قد وثقت بمن لا يستحق الثقة. فهناك احزاب تدعو الى الديمقراطية في الحياة السياسية، واحزاب اخرى وتجمعات تعد نفسها ممثلة للقوى الديمقراطية، ومن

البديهي أن الحزب الذي يؤمن بتداول السلطة، ويوافق على أن يصل الى الحكم اي حزب آخر يختلف معه وفق برامج الانتخابات ونظام التصويت، ذلك هو الحزب الديمقراطي، ولذلك لانستطيع أن نعد الكثير من الاحزاب الاسلامية التي تعمل من أجل اقامة حكم اسلامي ثابت، احزاباً ديمقراطية، لأنها حددت بذلك افق الاختلاف معها، ورسمت شكل الحكم الذي تريده هي ولاتقبل بغيره، رغم الادعاء بأن الشورى كانت ممارسة اسلامية ديمقراطية. فالشورى شأن داخلي في هذه الحالة لا يمارسها من كان خارج الحزب الاسلامي، ولايبرر نهجها. ان الغالبية من المواطنين مسلمون، لأنه وفق هذا التبرير يحق لاي حزب مسيحي في البلدان الاوربية مثلاً أن يشكل حكومة مسيحية ولايسمح لغيره أن يشكل حكومة مختلفة بدعوى أن الغالبية فيها من المسيحيين. وهذا ماسيجعل أي حزب مثل هذا خارج اللعبة الديمقراطية التي وصل من خلالها الى الحكم، وهي التي تسمح بتبادل المواقع في الحكم والمعارضة لمدة زمنية متفق عليها. فما دام من حقك أن تحكم، يجب أن أحصل على نفس الحق في أن أعترض عليك، والعكس بالعكس.

إن هذا الكلام ينطبق على الأحزاب الشيوعية أيضاً إذا كانت تدعو إلى إقامة حكومة الحزب الواحد أو الحكم الشيوعي المطلق وعدم التخلي عن السلطة حال الوصول اليها، طبعاً بالطرق السلمية والديمقراطية. هنا تنتفي صفة الديمقراطية عن الحزب الشيوعي، أما إذا كان الحزب الشيوعي يسعى إلى تطبيق برنامجه للمدة المحددة له في الحكم، ويسمح باجراء الانتخابات المقررة في الدستور ويقبل التخلي عن الحكم سلمياً لمصلحة الحزب أو الجهة المنتخبة، حين ذاك نستطيع القول إن الحزب الشيوعي ينهج نهجاً ديمقراطياً، وذلك ينطبق على الاحزاب الاسلامية أيضاً.

المؤسف أن بعض الاحزاب تعمل وفق مبدأ الغاية تبرر الوسيلة، وتتخلى حال استلامها أية سلطة عن كل ما يربطها بالنهج الديمقراطي الذي تلتحف لحافه، وتسعى الى الالتفاف والتحايل على الاساليب الديمقراطية بحجة أن الديمقراطية تسمح بذلك، ساعية بحماس الى استغلال كل ثغرة في الأساليب الديمقراطية لاغتيال الديمقراطية بدلاً من السعي للبحث عن مايقوّم الممارسة الديمقراطية ويجعلها حالة نزيهة. وهذا مانلمسه باستمرار في أبسط انتخابات لمنظمات عامة وجمعيات اجتماعية او ثقافية بسيطة، بله تلك التنظيمات التي حصلت على سلطة بسيطة يوما في كردستان أو اليمن، ناهيك بطبيعة الحال عن الحكومة العراقية التي طرحت مرارا مسألة المشاركة بالحكم والتعددية السياسية زوراً وبهتاناً.

وليس من باب الادعاء ان هناك اشكالية واضحة بين الحزب الشيوعي العراقي والمعنيين بالفكر والثقافة، لم تكن فيما مضى بهذه الحدة، شخّص جانباً منها الحزب في الوثيقة المنشورة صفحة ٢٩، إذ جاء فيها «وعلى الصعيد الفكري ظلت قلة الكادر المختص المؤهل المحيط بالهيئات القيادية ولجان الاختصاص، وضعف استجابة المعنيين... في مقدمة العوامل التي عرقلت توجه الحزب نحو تنشيط العمل الفكري...».

ونحن نعلم أن انحسار النشاط الفكري للحزب سببه ابتعاد العديد من الكوادر العلمية والثقافية عن دائرة الحزب السياسية بسبب الكثير من المفاهيم والممارسات المغلوطة لاجنحة مختلفة في الحزب، وحتى رابطة الكتاب والفنانين العراقيين والتي كانت إطاراً عاماً للمفكرين العراقيين الذين يقفون على ضفاف الحزب أو قرب شواطئه، أصبحت اثراً بعد عين، ولابد أن لذلك أسباباً ليس الكاتب أو الفنان هو المسؤول الوحيد عنها. ويمثل بعض اعضاء الحزب الذين كانوا سابقاً اعضاء في الرابطة نماذج غريبة في توجهاتها كشفت فيما بعد عن ضعف ارتباطها بمبادئها اذ انتظم بعضهم في مؤسسات اعلامية تابعة ومرتبطة بجهات ودول يصعب الانسجام مع اهدافها، حتى اضطر باحث معروف مثل هادي العلوي أن يطالب علنا بطرد هؤلاء من صفوف الحزب، هذا ان كانوا مايزالون اعضاءه ولايخفى ما لمثل هذه الممارسات من أثر في سوء المثال، وابتعاد الآخرينَ عن المراكز التي يحتلها هؤلاء، خاصة وانهم يسرحون ويمرحون على كافة الجبهات السياسية، وتجدهم في مقدمة المدعوين في كافة المهرجانات التي تنظم من قبل الهيئات القريبة من الحزب، من الشام إلى لندن، ومن باريس الى برلين.

هذا أولا، والسبب الآخر في ابتعاد الكادر الثقافي والعلمي عن الحزب، هو تبوء بعض المسؤولين الذين لا نصيب لهم في الثقافة والعلم مراكز قيادية في منظمات الداخل او الخارج، اضافة إلى أن الأزمة الحقيقية ليست الخلاف مع الكاتب الفلاني أو المفكر العلاني، وانما تكون في العلاقة الديمقراطية مع الثقافة، إذ أن الكثير من المنتظمين في صفوف الحزب يمارس سلوكاً عشائرياً مع الثقافة، فكل من في الحزب على حق، وكل من خارج الحزب مشكوك في أمره، ولهذا ذهب جهد الكثير من الكتاب والمفكرين الى سلة الاهمال والنسيان، وتشنجت العلاقة بين بعضهم وبين هيئات الحزب، ومسؤوليه.

إن الأخذ بعين الاعتبار جهد الجميع واعتباره ملكا للشعب والبلاد هو المنفذ الذي تنفذ منه الثقافة والعلوم الى رحاب الوطن وبالتالي يمكن اقامة علاقة ديمقراطية مع الثقافة.

مناقشة لآراء الرفيق عادل حبه في الموضوعات وملاحظات حولها[1]

موسى الدجيلي

حسناً فعلت قيادة حشع بطرحها موضوعات أساسية للنقاش على أعضاء وجماهير الحزب. فقبل عام ١٩٩٠، جرت العادة على توزيع تقارير مصادق عليها وما على اعضاء الحزب الا تنفيذها أو تبريرها، وفي أحسن الأحوال نقدها، ولكن بعد فوات الأوان. ان النهج الجديد يوفر الفرصة لمؤازري الحزب واعضائه للمساهمة بصياغة سياسية وطنية قريبة من نبض الشارع، ويتيح لهم ألفرصة للمساهمة في الترويج لها وتطبيقها.

تضمنت الوثيقة موضوعات جديرة بالنقاش، غير أنني ساركز على جوانب أساسية منها، هي طبيعة السلطة والخلاص من الديكتاتورية، دور العاملين الداخلي والدولي في ذلك، الحصار الاقتصادي والعقوبات الدولية، سياستنا العالمية، والوضع الدولي والعربي، ومبعث هذا التركيز ـــ يعود من بين أسباب اخرى ـــ إلى ان نقاشاً بل صراعاً حاداً يدور في أوساط الشيوعيين، وداخل المعارضة العراقية ايضاً، حول دور التحالف الغربي، وامريكا تحديداً، في التغيير المزعوم للطغمة الديكتاتورية، ومايثيره هذا الأمر من تشوش ومخاطر جدّية على مستقبل البلاد والبديل الوطني الديمقراطي الذي أزعم أنه الخيار الأفضل لتجاوز أزمة العراق المستفحلة.

ونظراً لأن وجهة ملاحظات الرفيق عادل حبه (ث جـ عدد ٢٧١) هي التناغم والتوافق مع العامل الدولي «بعيداً عن روح المجابهة مع القوى الأقليمية والدولية» على

حد تعبيره أراني أميل الى تناول الوثيقة وملاحظاته حولها انطلاقاً من العام الى الخاص، لأن ذلك يجسّد بشكل أفضل وجهة التناغم والتوافق المذكورة.

أولاً: بصدد الوضع الدولي

يتراءى لي أن الوثيقة قد شخصت بصواب السمات الأساسية لتطوره، غير أن ذلك لايعني أن الوثيقة أصابت دائماً، مما يستدعي التدقيق والتصويب وهذا ما قام به الرفيق حبه وغيره مشكورين. فهو يقول (ص ٣١): «وفي الميدان الدولي مازالت الوثيقة مشدودة لأجواء الحرب الباردة. . .» و «يجب أن نخرج من إطار الحرب الباردة أي كل مايتخذه الاتحاد السوفييتي نقف الى جانبه وكل ما تقوم به الولايات المتحدة نقف ضده». وهنا اعلن اتفاقي معه بصدد الفقرة الأخيرة ولكني أتساءل: هل أن مواقفنا الى جانب السوفييت أو ضد امريكا كانت دائماً غير صحيحة أو غير مشروعة أو منحازة فقط للسوفييت؟ أو لم تكن في كثير من الأحيان مواقف أممية صحيحة تدافع عن دول أو شعوب او مصالح وطنية حقيقية أذكر منها: الدفاع عن الجمهورية العراقية الفتية، مساندة قرار تأميم السويس وضد العدوان الثلاثي على مصر، الموقف من حربي عام ٦٧ و ٧٣، ودعم نضال الشعب العربي الفلسطيني، ومساندة كوبا وغيرها؟ وهناك مواقف خاطئة ايضاً للسوفييت دافعنا عنها مما يستحق التصويب.

ولنناقش الآن ما أشار اليه الرفيق حبه من أن الوثيقة تطرح جانباً من سمات الوضع الدولي وتترك الآخر. وبصدد الجانب الأول يشير بصواب الى أن انتهاء الحرب الباردة أزال شبح الرعب النووي، ومنظومة حرب النجوم، ومخاطر النزاعات الخطيرة (مثل جنوب افريقيا وانغولا ونيكاراغوا والسلفادور والحرب العراقية الايرانية). وهنا أجد أن اكمال المحاججة الموضوعية قبل توجيه النقد مطلوب وعلى أساس تناول صحيح لمسؤولية طرفي الحرب الباردة عن انتاج وتخزين وانتشار واستعمال هذه الأسلحة الفتاكة، واشعال الحروب والنزاعات وخلق بؤر التوتر، إضافة الى استعراض الجهود التي بذلت من قبل مختلف الاطراف للقضاء عليها محلياً ودولياً. والحال ان قراءة متمعنة للأمر توصلنا لاستنتاج مفاده أن امريكا هي البلد الوحيد الذي استعمل هذه الاسلحة، وهي وراء برنامج حرب النجوم ومساندة نظام جنوب افريقيا العنصري مع بريطانيا واسرائيل والمانيا الغربية، إضافة الى دورها باشعال حروب انغولا وموزمبيق ونيكارغوا، والتغاضي عن امتناع اسرائيل عن الخضوع لاشراف لجنة الطاقة النووية،

ناهيك عن إجبارها على توقيع معاهدة حظر انتشار الاسلحة النووية.

أما بصدد الحرب العراقية الايرانية، فلا ادري ان امكن حساب نهايتها ضمن فترة انتهاء الحرب الباردة، ولكني أنبه الى الدوافع الحقيقية وراء اشعال الديكتاتورية لها، وتبرعها بالتصدي للثورة الشعبية في ايران حينذاك، وسياسة الاحتواء المزدوج الامريكية لايران والعراق، ودور ذلك في استمرارها وتصعيدها ناهيك عن المساهمة الخليجية الكبرى في تمويلها، ومساهمة الغرب المتميزة في تسليح الطرفين، اضافة الى مساهمة المعسكر الاشتراكي بالتسليح ايضاً، غير أن دُوَلَه لاسيما السوفييت، والحق يقال، لعبت دوراً بارزاً في الجهود المخلصة لوقفها بالتعاون مع دول محايدة اوربية واخرى وقوى محبة للسلام.

يشخص الكاتب بصواب الحملة على العراق اثر غزوه الكويت ضمن النزاعات الجديدة (وفاته أن يذكر اجتياح غرينادا وبنما) التي اندلعت بعد انهاء الحرب الباردة.. غير أنه ابتعد عن الواقع بقوله: «ولكن ينبغي التأكيد على أنه بالرغم من مآسيها فهي أقل خطورة على السلم والأمن في العالم من النزاعات السابقة بالتأكيد» ص ٣٠.

وهنا لا أود الخوض بتفاصيل الحشد العسكري الهائل الذي قام به التحالف الغربي وما رافقه من جهد سياسي ودبلوماسي مسعور، والدمار الشامل الذي أوقعه بالعراق (متخطياً مهمة تحرير الكويت)، ولكنني فقط أتساءل: ألم يكن ممكنا أن تستخدم الديكتاتورية أسلحة الابادة الجماعية؟ (وقد صار معروفاً مرض ١٥ الف جندي امريكي جراء تدمير مخزن لهذه الأسلحة قرب الناصرية) وكم يا ترى تعرَّضَ من أبناء العراق وبيئته لمثل هذه الأمراض جراء تدمير آلاف الأطنان منها على يد فرق التفتيش، أو لم يتسرب الينا خبر التهديد الامريكي للنظام باستعمال الأسلحة النووية؟ ألم يكن ممكنا أن تفلح الديكتاتورية في جرّ اسرائيل للحرب؟ وماذا كان يمكن أن يكون الرد وقتذاك؟ ألم يكن ممكنا لدول التحالف الانتظار بعض الوقت لافساح المجال للجهود الدبلوماسية بدل الاصرار على الحل العسكري؟ ولكن الأهم من كل ذلك هو ماترتب على تلك الحرب بالنسبة لشعبنا ولعالمنا العربي، فعراقنا جائع، ممزق، معزول عن الحياة العربية والعالمية، أعيد الى العصر ما قبل الصناعي، يفتقر إلى امكانية واقعية لتنمية اقتصادية اجتماعية مستقبلاً. أما بصدد العالم العربي فان ما يجري فيه من مصادرة للديمقراطية وحقوق الانسان، وتسليح ونهب للموارد، وتعزيز هيمنة الامبريالية واسرائيل عليه، ناهيك عما يرافق عملية السلام المزعومة من مذابح واجحاف بحق الشعب الفلسطيني،

واعتداءات متكررة على لبنان، وتجاوز على الشرعية الدولية، وترويج للمشروع الشرق أوسطي سيء الصيت، ان كل ذلك لم يكن ليحدث ويتعمق لولا كارثة الخليج الثانية التي ساهم صدام ببدئها وتحيّنت أمريكا الفرصة لاكمال فصولها المريعة. وهذا كله يفتح الباب لتوتر وتصعيد وربما حرب جديدة في الشرق العربي.

وفي اشارة غامضة الى مايبدو أنه الجانب الآخر من سمات الوضع الدولي (المقصود السمات الايجابية طبعاً) الذي يرى حبه ان الموضوعات اهملته، فهو يشير إلى الموقف من الدول الامبريالية، وتحديداً امريكا، حيث يقول (ص ٣١): «فقوانين الحرب الباردة انتهت، ولا تتكرر خبطات امريكا مثلاً في طرد شارلي شابلن بدعوى شيوعيته ولايقتل الأدباء بحجة عدائهم للوطن خاصة في الفترة الستالينية. وهنا لا أود الخوض بمناقشة ما إذا انتهت قوانين الحرب الباردة فعلاً. ولكني أسوق عدداً من الأمثلة والحوادث اكثر مغزى وتأثيراً مما ضربه الكاتب تشير الى الوجه الكالح لامريكا (وغيرها) ومسعاها للاستمرار بدور الشرطي العالمي، أبرزها، على سبيل المثال لا الحصر القوانين التي وقّعها كلينتون بمعاقبة الشركات التي تتعامل مع ايران وكوبا وليبيا، والتي أستثارت دول الاتحاد الأوروبي وكندا فشرعت باعدادقوانين مضادة، واعلان يلتسين الحرب على الشيشان وقتل وتهجير واعاقة حوالي ٥٠ الف انسان فيها دون أن يؤثر ذلك على الدعم الغربي المتواصل لهذا «الديمقراطي الأصيل» يلتسين!. وهنا يتوجب أن أشير ناقداً الوثيقة لاهمالها الاشارة لهذه المجزرة في معرض فضحها ليلتسين وبطانته، في حين أشرّت حادثة قصف البرلمان الروسي على أهميتها والتي راح ضحيتها مايقرب من ٢٠٠ انسان.

وثمة مسالة جوهرية يجب الاشارة اليها: ترى لماذا تستمر امريكا واوربا الغربية بالابقاء على حلف شمال الأطلسي وتسعى جاهدة الى توسيعه بضم دول البلطيق وشرق أوربا اليه؟ الم تنته الحرب الباردة؟ الم يُحل حلف وارسو؟ اليست روسيا الآن «ديمقراطية»؟ ولماذا يجري استفزاز روسيا، وتعزيز مواقع القوى القومية المتطرفة (وغيرها) ويجري توتير الاجواء والعودة للحرب الباردة واجوائها القاتمة؟. الا يمكن الاكتفاء بآليات مجلس الامن والتعاون الاوربي وتطويرها لتكون أدوات سياسية (مدعمة عسكريا) تكفي لتوفير الأمن والسلام والتعاون الأوربي ليشمل اوربا بالكامل بعد أن أضحت الآن ديمقراطية وخالية من البعبع الشيوعي!. يبدو أن ذلك غير كاف لأمريكا وللمجمّع الصناعي العسكري الغربي. وفي هذه المسالة الجوهرية لا يخضّع الدور

المهيمن لأمريكا لتأثيرات بقية الدول الصناعية، ولا لتأثيرات جماعات الضغط التي تحد من النزعات السلبية لحكوماتها — كما يشير الكاتب. وهنا من حقنا التساؤل: ماذا عملت جماعات الضغط هذه عندما أجتاحت قوات الديكتاتورية مدينة أربيل على مرأى ومسمع قوات التحالف، وضمن حدود منطقة الملاذ الآمن التي فرضتها الهجرة المليونية لشعبنا الكردي جنوب الحدود عام ٩١؟ ومراقبة المناطق الجنوبية للعراق بطائرات قوات التحالف، هل اعاقت قوات النظام عن قمع المواطنين وتجفيف الأهوار وتدمير حياة الناس؟ ثم لماذا تذكّر كلينتون بعد ثلاثة أيام ليقوم بمعاقبة شعبنا بضربته الصاروخية جنوباً، وتعليق تنفيذ قرار ٩٨٦ وكأن اهلنا هم الذين أجتاحوا أربيل؟

وبخصوص ماذكره الرفيق عندما كانت امريكا «سباقة» في وقف الصراع المميت في البوسنة والهرسك، فلا يسع المرء حقاً الا أن يقدر أي جهد بناء لوقف نزيف الدم في يوغسلافيا السابقة، وهذا ما وقع فعلاً بعد توقيع اتفاقية دايتون. غير أن ما لا يجب نسيانه الخلاف الامريكي الاوربي بهذا الصدد. ثم الم يكن للغرب، والمانيا تحديداً، ضلع كبير بما حدث والتسعير المقصود للمشاعر القومية؟ ألم ينطو ذلك على قدر من الثأر لما قام به أبطال المقاومة اليوغسلافية ضد الفاشيين الالمان، وانتقام من الدور الملموس والايجابي الذي لعبته يوغسلافيا في مجموعة عدم الانحياز؟ انها أسئلة لا تقلل طبعاً من حجم الثغرات والمصاعب الجدية التي انطوى عليها الاتحاد اليوغسلافي بالتعامل مع القضية القومية وقضية الديمقراطية. الم يكن الثمن الذي دفعته شعوب يوغسلافيا جميعها باهظاً جداً؟ واذا كان المعيار في تحديد الموقف تجاه هذه القضية أو تلك هو مصلحة شعبنا دون اطلاق، وذلك صحيح، فان مصلحة شعبنا تكمن حقاً في حل سلمي ديمقراطي لقضية الصومال يصون وحدته وسيادته ويمكن أن يكون في اطار عربي بعيداً عن التدخل الامريكي. ثم لماذا لم يجر الاكتفاء بدور الامم المتحدة العسكري والسياسي؟ فهذا هو ما أراده المؤتمر الخامس بقراره حول الصومال.

أما تقييم الوثيقة للتطورات في الحركة العمالية والاشتراكية في العالم، فاني حين أتفق مع نقد الرفيق حبه بصورة عامة، وتحديداً لتقييم الوثيقة غير الدقيق والموثق للتغيرات في برامج وبنية الاحزاب الشيوعية في البلدان الاشتراكية سابقاً، فاضحى اكثرها (بولونيا، المجر مثلاً) احزاباً اشتراكية — ديمقراطية تقف على يمين مثيلاتها (في السويد وفنلندا مثلاً)، أرى أن الوثيقة قللت من شأن يلتسين وقوى التيار الليبرالي في روسيا وامكانياته في التحالف، مدعماً من الغرب والصهيونية العالمية، غير أن الأهم من

ذلك أن الوثيقة لم تشخص الأخطاء الكبيرة التي مازال الشيوعيون هناك يرتكبونها سواء منها مراجعتهم القاصرة لاخطاء وجرائم سابقة، أو ازدواجية وتباين خطابهم السياسي في الداخل والخارج، تحالفهم مع قوى قومية وستالينية متطرفة وموقفهم المتسم بالشوفينية تجاه القضية الشيشانية، ضعف تقديرهم لتوق الشعوب السوفييتية والشعب الروسي للديمقراطية جراء الاستبداد السابق ثم ضعف مبادرتهم تجاه قوى وشخصيات يمكن أيجاد لغة مشتركة معها مثل يافلينسكي وليبيد، غير أن ذلك لا يقلل من شأن النقد الموجه ليلتسين وصلاحياته التي تقرب من صلاحيات فرعون على حد تعبير زوغانوف، وانفراده وتحكمه باجهزة الاعلام، ومن حجم الدعم الهائل الذي تلقاه من الغرب ولاسيما امريكا تثميناً للدور الذي يقوم به في بيع روسيا بالمزاد، وتدمير فرصة تنمية اقتصادية رأسمالية ولكن مستقلة فيها، بعيداً عن نهج الليبرالية الاقتصادية المنفلتة تطبيقاً لنصائح صندوق النقد الدولي وغيره. ولكن مايجب تدقيقه أيضاً هو أن سياسات الانفتاح والاصلاح في هذه الدول لم تفشل بالمطلق كما أشارت الوثيقة (ص ٤١) وانما تواجه مصاعب ومقاومة كبيرة.

ان ما حاولت الوصول إليه من خلال هذه المحاورة هو أنني أستشف من ملاحظات الرفيق حبه مسعى لاعادة تقييم الاستراتيجية الامريكية والغربية عموماً في المنطقة، يتعامل معها وكأنها تعبر عن مصالح طارئة فرضتها أجواء الحرب الباردة فقط، مسعى ينطوي على التهوين من مخاطر هذه الاستراتيجية ونواياها العدوانية تجاه شعوبنا، بل يذهب الى اكثر من ذلك باشارة غير مباشرة الى ما معناه انها تستهدف مساعدة شعبنا، وهذا ما ساوضح عكسه في بقية الفقرات، دون توثيق وتدقيق، وذلك نهج ضار وخاطئ وخطير يجب التنبه اليه والتوعية فيه عن طريق الحوار الهادئ والبناء.

ثانياً: بصدد الوضع العربي

وجدت في الموضوعات تشخيصاً واضحاً ودقيقاً، تعوزه التفاصيل الضرورية ولكنه يستحق التقدير، لابرز مفاصل الوضع والتطورات فيه وآفاقه التي بدت كالحة، ولكنها واقعية لم تخل من تحديد بعض المهمات على عاتق القوى العربية للخروج من المأزق الذي نعيشه. غير أن الكاتب يلح على ضرورة الاشارة لبعض المكاسب والانجازات، ولو انها بسيطة ومقنّنة كما يؤكد نفسه. ويشير محقاً الى بعض التطورات الديمقراطية في بعض البلدان العربية، وظهور موجة وعي ديمقراطي. أن القضية الاخيرة

تحتاج فعلاً لمزيد من المتابعة والتفكير بالوسائل الممكنة لانجازها. ويتراءى لي أن خير من يستطيع تنشيط موجة وعي ديمقراطي مؤصّل في عالمنا العربي، اضافة الى الأحزاب الديمقراطية والقومية واليسارية، هم العلماء والادباء والباحثون والفنانون، وذلك من خلال تشكيل وتطوير منظماتهم، والعمل على تنسيق جهودهم على نطاق العالم العربي، ولاشك أن البدء بالتعاون بين المعاهد والجامعات ومراكز البحوث والدراسات في العالم العربي هو الخطوة الضرورية على هذا الطريق.

غير أن ما وددت مناقشته هو ماذكره الكاتب من بعض التحسن في الأداء الاقتصادي لبعض الدول العربية، وتحسن الخدمات الطبية والصحية والاجتماعية وخاصة في البلدان العربية ذات المداخيل العالية.

ان تأشير تحسن الأداء الاقتصادي والخدمي اعلاه يجب أن يستند لدراسات اقتصادية جادة على نطاق كل بلد عربي، وعلى نطاق العالم العربي، تعتمد الممكن والمحقق، الموظف من أموال وجهود / وحجم الانتاج ومعدل الانتاجية، بالاستناد الى مستوى التطور والأداء الاقتصادي الحالي مقارنا بفترة ماضية، وكذلك بالمقارنة مع نماذج للتطور وتجارب أقتصادية ناجحة سواء في العالم الرأسمالي المتطور أو في بعض اطرافه المتخلفة (أقطار جنوب شرق آسيا مثلاً) وواقع الحال. وحسب دراسات ينشر عنها مركز دراسات الوحدة العربية في بيروت والتقرير الاقتصادي العربي المشترك، يشير الواقع الى تواضع أدائنا الاقتصادي، باستخدام المعايير السابقة، وتخلفنا عن ملاحقة الثورة العلمية التكنولوجية، وتعمق تبعيتنا القاتلة، ناهيك عن ثغرة خطيرة تمس الجماهير الشعبية التي تفسر معنى وجودنا، وتتمثل بالفقر ونقص الأمن الغذائي العربي.

وللتذكير فقط أشير إلى أن العراق أنفق، خلال السبعينات، موارد هائلة ضمن ما أسماه «التنمية الانفجارية» والتي حققت فعلاً نتائج كبيرة على صعيد التصنيع وتحديث نسبي للزراعة وتطوير الهياكل الارتكازية وتحسين العديد من الخدمات. ولكن السؤال هو: كم يتناسب ما تحقق مع حجم الأنفاق؟ ألم يكن ممكنا تحقيق ضعفه أو أكثر وبنفس كمية الاستثمارات لو أُحسن اختيار المشاريع وطرق الانجاز ونظم الانتاج، وطرق الادارة الكفوءة، وتوزيع عقلاني للمشاريع بين القطاع العام والخاص[٢]... الخ أن هذه الوجهة العامة ــ تنطبق حسب بعض النشرات العربية ــ على كل أو أكثر الاقتصادات العربية وخاصة منها النفطية. وبهذا الصدد فات الكاتب أن يذكّر بحجم العجز في ميزانيات هذه الدول وهي من أغنى دول العالم، ناهيك عن تفسير هذا العجز.

ان حزبنا بحاجة حقاً الى التعاون مع كل القوى والمؤسسات والمراكز العربية التي تتصدى في هذا الظرف العصيب لمشاريع ونهج الليبرالية الاقتصادية ودعوات ومشاريع التخصيص، والهجوم على القاطع العام تنفيذاً لتوصيات البنك الدولي وصندوق النقد الدولي. أن هذه المهمة ليست مبررة سياسياً فحسب بل كذلك مبررة اقتصاديا أساساً[٣].

لقد أهملت الوثيقة الاشارة لمطلب حيوي ومشروع لا يبرر التداعي العربي الحالي نسيانه، بل على العكس، ألا وهو مطلب الوحدة العربية على أسس ديمقراطية وصيغ سياسية مرنة متدرجة، وكذلك الدعوة لأن تنشط الأحزاب الشيوعية والقومية التقدمية واليسار لانشاء حركة يسارية ديمقراطية عربية، وضرورة تبني احزابنا الشيوعية، ومنها حزبنا، لسياسة عربية واضحة ونشيطة تقوم على أساس انتماء غالبية شعبنا للأمة العربية، والتوقف عن الانغمار بسياسات قطرية عقيمة، ناسين ما تخططه أمريكا واسرائيل للمنطقة ولعالمنا العربي. وفي الوقت الذي أصابت فيه الوثيقة بتشخيص النزعات القطرية، الا انها بحاجة لأن تذهب أبعد من ذلك، فنحن بحاجة فعلاً كما أشار الرفيق كريم مروّة[٤] الى اعادة نظر بما ورد من فهم خاطئ للبيان الشيوعي من أن البروليتاريا لا وطن لها، (ولا يتعارض ذلك مع أخذ الخصوصية القطرية ومصاعب الوحدة بالاعتبار)، واعتبارنا كما يقول المسألة القومية هي مسألة البرجوازية، مادام الاستقلال السياسي سيؤدي الى تسليم السلطة للبرجوازية. وكما أشار مروّة بصواب فان المسألة القومية، مسألة الاستقلال والثروة والتنمية والتطور..الخ هي جميعها مسائل مترابطة، وللطبقة العاملة دور اساسي فيها، ومصلحتها الأساسية هي في النضال من أجل حلها. وهنا أدعو أن يكون لحزبنا رؤيا عربية واضحة واعية وسياسة وبرنامج عربي واضح هدفه في المحصلة النهائية تحقيق الوحدة العربية على أساس ديمقراطي. فعصرنا هو عصر التكتلات الاقليمية، والمطلوب ليس أقلمة على حد تعبير سمير امين[٥] تندرج ضمن العولّمة الرأسمالية المتزايدة، العولمة تعيد انتاج التخلف والتبعية لاقطار الجنوب الفقير، بل أقلمة تخدم مصالح شعوبها أساساً وتحد قدر الامكان من النهب المنفلت لشعوب الأطراف. وعلى هذا الطريق الطويل والمعقد، نساند أي دعوة للتنسيق والتكامل الاقتصادي العربي مادامت تخدم شعوب البلدان العربية.

وفيما يخص الوضع الداخلي تنطوي مقالة الرفيق حبه على عدة نقاط جوهرية في مقدمتها التي اسماها الملاحظات العامة حول الوثيقة وظروف أصدارها وأسعى

لمناقشتها حسب اهميتها. يشير في الفقرة الثالثة منها الى أن الوثيقة اعتمدت مبدأ الربط المباشر بين الايديولوجيا والسياسة، ولو اكتفى الباحث بهذه الملاحظة لكنا ربما قد اتفقنا معه عموماً، خاصة إذا اخذنا بالاعتبار الدور السلبي للايديولوجيا بتزييف الوعي أو تشويهه، أو حسب ما أشار هو بتكبيل الحزب بقواعد ثابتة تتطلبها الايديولوجيا، الأمر الذي يفقد الحزب مرونة الاستفادة من السياسة كفن الممكنات. غير أنه لم يكتف بذلك، بل يواصل في مسعى لتطوير اطروحته بالتخلي عن الايديولوجيا باتجاه ينم عن دعوة ـــ كنت أتمنى لو كانت صريحة ومباشرة ـــ لاعادة النظر بالمرجعية الفكرية للحزب. وفي مسعاه لتبرير وجهة نظره هذه، التي يبقي لنا الكاتب الباب بصددها مفتوحاً للتساؤل: ترى باي منحى تتم اعادة النظر هذه؟ يقول بالطبع هذا لايعني التخلي عن المعرفة الانسانية بكل جوانبها..الخ الفقرة ص ٢٤. والحال ولكي يكون الحديث موثقاً فان المؤتمر الوطني الخامس للحزب أشار في وثيقته البرنامجية الى ما يلي «يصوغ حشع وثيقته البرنامجية استناداً الى دراسة الواقع الطبقي والقومي والديني للمجتمع العراقي المعاصر والتطورات الجارية فيه، مسترشداً بالماركسية، مستفيداً من سائر التراث الانساني الاشتراكي، ومستهدفاً تحقيق المصالح الجذرية لشعبنا عمالاً وفلاحين وكسبه ومثقفين، وكل شغيلة اليد والفكر(ص ١٠٠) وعليه فان تدقيق مرجعية الحزب الايديولوجية مطروح، ولكن السؤال هو: ياترى باي أتجاه؟ وماهو القدر الضروري من الربط بين الأيديولوجيا والسياسة؟ ولمصلحة من؟

ان الوثيقة تحدد مرجعية الحزب الفكرية بالماركسية فقط دون اللينينية علماً أن التخلي عن اللينينية لم يكن بسبب ما يقال عن خطلها وقدَمها ولكن من كونها تطبيقاً للماركسية على ظروف روسيا. وعليه فإن التأكيد على الماركسية يتيح للحزب فرصة ومرونة واستقلالية اكبر لتحديد هويته الطبقية والوطنية. وهذا لا يتعارض بالطبع مع الاستفادة من التجارب المختلفة لبناء الاشتراكية في مختلف البلدان. ان هذا الاستشهاد يجسد مسعى الحزب لتدقيق واغناء وتطوير وجهته الفكرية، وهو كما اراه يسعى لتقليل الربط بين السياسة والايديولوجيا، مما يتيح للحزب مرونة اكبر في مسعاه لتجديد نفسه واشاعة الديمقراطية في صفوفه. غير أن ذلك شيء ودعوة الحزب الى التخلي عن هذه المرجعية، أو الدعوة الى مرجعية انتقائية ربما، أو متعددة او مختلطة، شيء آخر، حيث يسارع الرفيق حبه للقول (ص٢٤): «فهناك العديد من الأحزاب التي تدافع في برامجها عن العمال والفلاحين والفئات المعدمة في مجتمعاتها دون الاشارة الى تبنيها أي من

التيارات الأيديولوجية». هكذا ودون ذكر الكاتب لواحد منها ومرجعيته عموما نجده يكمل: «وعلى هذا المنوال تعمل غالبية الأحزاب السياسية في العالم المعاصر. . .»الخ. ان استرشاد حزبنا بالماركسية ناجم عن قناعة، ماتزال قائمة، بعلميتها وتاريخيتها، العلمية الناجمة عن دراسة تاريخية لنشوء المجتمع وتطوره وانقسامه الطبقي وصراعه الطبقي، وللتطور الرأسمالي تحديداً والذي تتوجَ على يد ماركس وانجلز باكتشاف قوانين تطور الرأسمالية ومن ثم الوصول للاستنتاج الأهم ألا وهو كون هذه التشكيلة ليست خالدة، بل هي مرحلة واحدة مؤقتة في سلم التطور الاجتماعي الذي يفتح الباب مشرعاً لتغييرها بالأداة الطبقية التي تخلقها الرأسمالية نفسها، الطبقة العاملة وحزبها حامل رسالتها التاريخية للقضاء عليها واقامة التشكيلة الأكثر انسانية وديمقراطية: الاشتراكية. والسؤال الآن يتعلق بعمق هذه القناعة بالماركسية كمنهج ونظرية في التحليل على المستويين المادي والاجتماعي، بعد الزلزال الذي عصف بالعالم أواخر الثمانينات. وبالقدر الذي يتعلق الامر بحزبنا الشيوعي فانه ومن خلال مؤتمره الخامس، آخذاً بالحسبان ما ذكر أعلاه، مازال مقتنعاً بهذه الأداة وهذا المنهج وعلميته، فأبقاه مرجعاً ومرشداً له ولم يسد الباب أمام التطورات العلمية والحضارية والانسانية العالمية ومنجزات الثورة العلمية التكنولوجية، والاستفادة منها لتطوير معرفته العلمية بظروف مجتمعنا العراقي وتطوره. فالوثيقة البرنامجية تقول: «يستلهم الحزب في وضع برنامجه كل ماهو تقدمي في حضارة شعوب وادي الرافدين والحضارة الانسانية والرصيد النضالي التاريخي لشعبنا العراقي» (ص-١٠٠).

وإذا كان للرفيق حبه رأي آخر بهذا الصدد فما المانع من عرضه وتوثيقه وتسبيبه، خاصة وان للرفيق تجربة وباعاً طويلاً في العمل الوطني والحزبي، وفي مواقع قيادية في حزبنا؟ ان مثل هذه الدعوة تنطوي حقاً على خطر ضياع الهوية الفكرية والسياسية للحزب، والانزلاق الى مواقع الاشتراكية ـــ الديمقراطية، التي تعاني الآن من أزمة حادة تعمقت أثر تفاقم أزمة الرأسمالية العالمية. ولم يساعدها كثيراً أنهيار التجربة الاشتراكية في اوربا الشرقية بل ربما العكس، فهي تنفّذ الآن، كما أشارت موضوعات ل.م حشع بصواب، نهج الليبرالية الجديدة، رغم منافاته لماطرحته في برامجها الانتخابية التي فازت على أساسها، مما يدفع بفئات وشرائح اجتماعية متزايدة الى هامش السُلّم الاجتماعي، ويساهم في تسعير حدة الصراع الطبقي في المجتمع وداخل هذه الأحزاب نفسها. وهنا يجدر التنويه بما أنجزته هذه الأحزاب، خصوصاً عندما كانت في السلطة من

مكاسب كبيرة لشعوبها، في مجالات الضمان والخدمات التعليمية والصحية والاجتماعية، وحق العمل، وقد لعبت الطبقة العاملة ونقاباتها ونضالها داخل هذه الأحزاب وخارجها دوراً كبيراً في ذلك، ولكن يجري الآن للأسف الهجوم عليها وتجاوزها في بعض البلدان الاسكندنافية وفرنسا والمانيا واسبانيا على يد قادة الاحزاب الاشتراكية الديمقراطية انفسهم. ناهيك عن الاحزاب اليمينية. ان ذلك يستدعي منا، كماركسيين وكحزب شيوعي، اعادة دراسة هذه التجربة للقرن الحالي وخاصة بعد تطورات التسعينات واستخلاص الدروس الضرورية، وهذا ما لم تغفله الوثيقة البرنامجية للحزب عندما اشارت الى ضرورة الاسترشاد بسائر الفكر الاشتراكي الانساني. ومما ينبغي الاشارة اليه هنا أن مخاطر هذا الانزلاق تبقى قائمة حتى يتثبت مرجعنا الفكري ماركسياً، فان ذلك على اهميته لايكفي ويجب أن يقترن بصياغة برنامج حزبي وسياسة حزبية يومية واضحة طبقياً، والانتباه الى التصدي لمخاطر مثل هذا الانزلاق، وتلك مهمة ملحة علينا نحن الشيوعيين القيام بها على الدوام.

ان التزام الحزب بالماركسية ووضوح نهجه وسياسته، لا يتعارضان مع أمكانية وضرورة اختيار السياسة والموقف والتكتيكات التي تقتضيها ادارة النضال السياسي اليومي واقامة مختلف أشكال التعاون والتنسيق وحتى التحالف المؤقت والدائم مع هذا الحزب او ذاك، واتخاذ هذا المواقف أو ذاك تجاه مختلف الأطراف والدول، على ضوء تطور الاوضاع وميزان القوى السياسي في الظرف الملموس، شريطة أن لا يتعارض ذلك مع استقلالية الحزب، والا يكون بحال على حساب سيادة واستقلال الوطن ومصلحة شعبنا وكادحيه. ولنا في هذا المجال تجربة ثرية بحلوها ومرّها.

ولا يسع المرء إلا أن يتفق مع الكاتب حين يقول: «علينا كحزب أن نبصّر شعبنا بحقيقة الوضع الذي يعيش ونفتش عن أفضل السبل لانتشال البلاد من الورطة». غير أن ذلك يتم من خلال تعريف متواصل لأعضاء حزبنا وابناء شعبنا بالمطامع والأهداف الآنية والاستراتيجية للدول الاقليمية والامبريالية، وخاصة الاميركية، تجاه شعبنا، والتطورات التي تطرأ على القضية العراقية.

ان حزبنا ليس معنياً حقاً بالمواجهة والصدام ـــ وهو بهذه الحال ـــ مع أية دولة أو قوة اقليمية او دولية ما دامت هذه راغبة فعلاً في مساعدته للخروج من أزمته. غير أننا مضطرون ومن واجبنا قول الحقيقة لشعبنا وفضح ومقاومة السياسات المعادية له من قبل هذا الطرف أو ذاك إذا وجدنا تعارضا وتصادماً في المصالح آخذين في الاعتبار

التمايز والتعارض بين هذه الدول نفسها وتوظيفه لصالح قضيتنا. فالاساس بالنسبة لنا هو مصلحة شعبنا وكادحيه، ولن يرحمنا التاريخ إن تجاوزنا «الخطوط الحمراء» لمصالح شعبنا تحت أية ذريعة.

طبيعة السلطة والخلاص من الديكتاتورية

ان التشخيص الدقيق لطبيعة السلطة يساهم في تحديد الهدف، وتشخيص القوى الاجتماعية الداعمة لها والمراد ضرب مصالحها، والقوى الاجتماعية المراد تعبئتها وحشدها في عملية تصفية الديكتاتورية وجذور الاستبداد. وهنا أود التنويه بجهود قيادة الحزب بهذا المجال، غير أن استمرار الديكتاتورية هذه الفترة الطويلة، واتساع القاعدة الاجتماعية المعادية لها، وبعد كل الكوارث والحماقات التي ارتكبتها، وعزلتها العربية والدولية الواسعة، ربما يؤكد من بين أسباب اخرى معروفة، وجود بعض الخلل والقصور في تشخيصها. وان كل ما أود أن نتجنبه كحزب هو وضع قوى في صف السلطة. وهي ليست كذلك، أو أن نضع قوى قلقة أو مترددة، ويمكن تحييدها بسهولة، على صف السلطة. أقول ذلك مؤكداً خاصة على الجيش والقوات المسلحة، لأهميتها الاستثنائية في أية مواجهة مقبلة مع الديكتاتورية، ولتجاوز أي خلل أو خطأ مما حدث أثناء انتفاضة آذار المجيدة والمآل المأساوي الذي انتهت إليه.

وهنا لابد من التذكير بما حققه المؤتمر الخامس من تأكيد على حشد قوى الحزب أساساً في العمق وعلى العامل الداخلي تحديداً وتفعيله، من أجل الخلاص من الديكتاتورية، وقد تمثل ذلك من خلال مجموعة من القرارات والتوجهات بصدد الموقف من العامل الخارجي، والحصار الاقتصادي والعقوبات الدولية. وتقييم نشاط حشع في المؤتمر الوطني العراقي الموحد (موعم) الذي انتهى بالانسحاب منه.

الحصار والقرارات الدولية

لا يخفى على الكثيرين أن الحزب، وبسبب من مصاعبه الذاتية، وضعف المعارضة والهزة العنيفة التي عصفت بالدول الاشتراكية والاتحاد السوفييتي، لم يتصد بالوضوح والقدر الكافيين للعديد من القرارات الدولية التي اتخذت من قبل مجلس الأمن إثر غزو الكويت، وأبرزها قرار ٢٩ تشرين الثاني ١٩٩٠ الذي سمح لقوات التحالف باستخدام كل الوسائل الضرورية لحمل العراق على الانسحاب من الكويت، ناهيك عن قرارات المقاطعة

الاقتصادية، هذه القرارات التي أضحت الآن فعلاً اداة للوصاية الدولية، والتي الى جانب غيرها جرى التجاوز عليها اثناء حرب «تحرير الكويت» لتتحول الى حرب تدمير للبنية التحتية الاقتصادية والاجتماعية للعراق وتعطيل الدورة الاقتصادية السلمية للبلاد، والتي لم يعد استمرارها مبرراً بعد توقيع اتفاقية صفوان المذلّة، وتدمير أسلحة الدمار الشامل وترسيم الحدود مع الكويت.

ان معيار تقييم القرارات الدولية والمواقف الأمريكية والاقليمية من القضية العراقية هو تعارض أو تطابق هذه القرارات مع مصالح شعبنا، كما أن ذلك يستدعي إلماما وتعريفاً بسياسة هذه الدول واستراتيجيتها المرسومة للمنطقة وما يطرأ عليها من تغييرات، ولا أجدني مضطراً للخوض بتفاصيل هذه الاستراتيجية، من نهب لثرواتها، ودعم للانظمة الأستبدادية والعشائرية والشمولية، واعاقة الديمقراطية فيها، وابقائها تابعة متخلفة، تقوية اسرائيل والتحالف معها، تسويق السلام المجحف، والسوق الشرق أوسطية..الخ.

ومن هنا يصبح ضرورياً جداً، لنا نحن الشيوعيين وسائر الوطنيين العراقيين، التدقيق والتمحيص في هذه القرارات، مثلما يحق للغرب ان ينتقي ويدقق. ترى ماهي مصلحة الشعب العراقي بالحصار الاقتصادي والعقوبات الدولية؟ وماهي مصلحته في أن يقتطع من موارده ٣٠٪ لصندوق التعويضات في حين تبقى أرصدة العراق في الخارج مجمدة، بينما يجوع ويموت الأطفال والشيوخ؟ وماهي مصلحة العراق والأمة العربية في أن يجري ترسيم الحدود مع الكويت باقتطاع أراضٍ عراقية وضمها للكويت، أراض غنية بالنفط، والابقاء المقصود على بؤرة محتملة جديدة للتوتر بين البلدين، ولماذا يدعونا الرفيق حبه للموافقة على كل ذلك؟ وهل أن الموافقة على كل هذه القرارات المجحفة، وهو ما فعلته الديكتاتورية، سيؤدي الى رفع الحصار والعقوبات الدولية؟ أم أن ذلك مرهون بقرار امريكي وربما بعد توقيع اتفاقية استسلامية نهائية بين العرب واسرائيل؟!

لقد استعاد حشع بتدقيق موقفه من الحصار والعقوبات الدولية، بعضا مما فقده من رصيد سياسي، بسبب غموض الموقف والتردد الذي دفع من خلاله أن يكون موضوعياً إما مع امريكا أو مع النظام. والحال أن الكاتب يدعو الحزب للرجوع عن هذا الموقف الصائب (والمطلوب شعبيا)، والمصادقة على قرارات جائرة تستهدف النسيج الاجتماعي لشعبنا وتفتيت بلدنا ومصادرة مستقبل الأجيال المقبلة، بحجة «تجنّب المواجهة مع القوى الدولية والاقليمية» متناسياً أن لهذه الدول والجهات مطامع واضحة بالوضع

الراهن، وهي محكومة بمصالح وأطر محددة، باستراتيجية مرسومة يجري تنفيذها خطوة فخطوة. وإذا كان لهذه القرارات من أثر سلبي على الديكتاتورية، فهو هامشي لا يتناسب مطلقاً مع حجم عذابات الشعب.

واذا كان هناك من يقول ان أستمرار هذه العقوبات، يستهدف اسقاط الديكتاتورية، ورغم انني أستبعد ذلك، مستنداً الى تاريخ العلاقة بين أمريكا والنظام، والخدمات التي قدمها لأمريكا سواء بضرب المعارضة والحركة الديمقراطية داخلياً أو حربه ضد ايران، واستقدامه الأساطيل الأمريكية (التي تخضع لدول منضبطة على حد قوله) الى الخليج، وتوفيره الأسواق الضخمة للاسلحة الغربية، وتحالفه مع السعودية والكويت وكل رجعيات المنطقة، وقمعه انتفاضة آذار المجيدة، واذعانه للشروط الامريكية الآن.. فالديكتاتورية هي وسيلة وهدف في آن بالنسبة لأمريكا. ولكن لنفترض فعلاً أن امريكا تريد اسقاط صدام، ترى ألا تكفي السنوات الست الماضية للتدليل على عكس ذلك؟ ألم يوقف قرار الرئيس بوش الجنرال، شوارزكوف من الاستمرار لمئة ساعة اخرى، كما قال، لتحطيم مركز الطغمة في بغداد؟ ألم يبقِ متعمداً العمود الفقري لقوات الحرس الجمهوري، ويسمح باستخدام المروحيات والمساعدة اللوجستيه لذبح الانتفاضة؟ ألم توافق أمريكا على أستمرار الحصار الاقتصادي الدولي على كردستان، وهي (المحررة) من الديكتاتورية؟ ألم تعزف أمريكا عن تقديم الدعم السياسي والمادي للمعارضة العراقية الجادة باسقاط الديكتاتورية؟ ألم تتدخل غير مرة لشق صفوف المعارضة وتخريب مشاريعها؟ ألم تُهمل متعمدة، تنفيذ قرار ٦٨٨ لحماية المدنيين، في حين تستغله (ويا للمفارقة) لتبرير هجمتها الصاروخية الأخيرة على جنوب البلاد؟ ألم تستمر بالحصار الاقتصادي لتجويع شعبنا العراقي واذلاله، مما يبعده عن التفكير ناهيك عن المساهمة بالنضال السياسي لاسقاط الديكتاتورية؟ ألا يكفي كل ذلك للتدليل على خطل التعويل على المشاريع الامريكية تجاه العراق، والسعي على العكس لتوحيد الجهود، صوب توضيح حقائق السياسة الامريكية وهدفها بتفتيت العراق كدولة، ونسف نسيجه الاجتماعي؟ فهنا تلتقي الديكتاتورية مع امريكا من حيث النتائج الفعلية.

واذا كان هناك حقاً من تصور نظري بان هناك اهدافاً مشتركة لأمريكا وتحالفها الغربي من جهة والشعب العراقي من جهة اخرى، فاظنه يكون الاتيان ببديل ديمقراطي في العراق، بافتراض أن امريكا تعشق الديمقراطية، فهي زعيمة «العالم الحر»، ترى لماذا لا تسعى لتحقيق ذلك وهي القادرة لو أرادت ولديها من الوسائل والقرارات التي أتخذتها

هي؟ لماذا لا يجري تنفيذ القرار ٦٨٨ القاضي بحماية حقوق المدنيين واجبار النظام على السماح لمقررر الأمم المتحدة المختص ڤان دير شتويّل بممارسة مهامه بحرية ومنحه تأشيرة الدخول، والاستماع الى المعارضة العراقية على اختلاف تلاوينها، ومطلبها الملح باجراء انتخابات في العراق تحت اشراف الامم المتحدة، ولنتخل مؤقتاً، بانتظار نتائج هذه الانتخابات، عن مطلب الشعب العراقي بمحاكمة رأس النظام كمجرم حرب، ولدى الادارة الامريكية أطنان من الوثائق التي تدينه (عشر مرات مقارنة بما أنتهك من جرائم إبادة بحق البشر في يوغسلافيا السابقة) غير أن أمريكا ،وحلفائها تعلم علم اليقين أن جزر مجنون وبحيرة النفط تقع في العراق وفي قلب العالم العربي وليس في منطقة البلقان. . . أليس كذلك؟!

وأخيراً أود ابداء بعض الملاحظات حول سياستنا التحالفية وتفسير انسحابنا من موعم للرفيق عادل حبه:

نحن بحاجة حقاً لمراجعة جادة لسياستنا التحالفية، ففي كردستان العراقية، لابد أن نتأمل بعمق التغيرات الاجتماعية التي طرأت على بنية الحزبين الحاكمين المتقاتلين، خلال السنوات الخمس الأخيرة وماتركه احتكامهم للسلاح وتحالفاتهم الدولية والاقليمية من تأثيرات وتغيرات قد تكون جوهرية على منحاهم السياسي وموقفهم من قضية الديمقراطية والعراق كدولة. نحن مطالبون بتشديد فضحنا لخرق حقوق الانسان، وخاصة حقه في الحياة، الذي ضاع بسبب اصرار الحزبين على الاحتكام للسلاح بدل الحوار الحضاري والمصالحة، وربما توصلنا هكذا مراجعة الى تجاوز الأطر والمفاهيم التقليدية للتحالف كالجبهة الكردستانية التي لا مستقبل لها (ولغيرها) بدون السلام واقامة مؤسسات المجتمع المدني.

وبخصوص المعارضة العراقية، أجد أن أزمتها لاتقل خطورة عن أزمة النظام وأزمة العراق، وعليه أرى أن نبادر كحزب شيوعي لاستضافة مائدة مستديرة للمعارضة دون استثناء ــ وكل من يلبي دعوتنا ــ تخصص لمناقشة موضوع محدد هو أزمة المعارضة. نبادر نحن فيها بتقديم تصورنا للأزمة ودورنا ومسؤوليتنا فيها. وبدون هكذا تناول، ونقد ذاتي ومراجعة شاملة وصريحة، يبدو الحديث عن تنسيق أو تعاون بعد كل ما نعيش، أمراً عسيراً. وذلك ينسجم مع دعوتنا الى حوار شامل، مما قد يقرّبنا من شكل للتعاون هو أحوج ما يتطلع اليه شعبنا المظلوم.

إن انسحابنا من المؤتمر الوطني الموحد (موعم) الذي يقوده د. احمد الچلبي أفسّره

في الأمور التالية:

١ ـــ ان (موعم) مشروع يجسد رغبة العامل الدولي وامريكا تحديداً، لتوظيف النتائج الكارثية لحرب الخليج، لا لتحقيق بديل وطني ديمقراطي في العراق، بل لبديل مفصّل على المقاسات الامريكية، وباخراج عراقي وعلى يد قوى هامشية (واؤكد على كلمة هامشية خلافاً لما يراه الرفيق حبه، من أن التيار اللبرالي في العراق الحالي [ومجموعه أحمد الچلبي جزء ضئيل منه فقط] لو دققنا هو تيار واسع. . . الخ. فهذه القوى تكاثرت (كالفطّر) بعد حرب الكويت، ولغرض ضرب بقايا «لجنة العمل المشترك» التي حضّرت لمؤتمر بيروت عام ١٩٩١. أما التحديد الواقعي لمن هو أساسي وهامشي وأصيل وعميق الجذور والتأثير في الساحة العراقية، فلنتركه للشعب العراقي ليقرر (بعد ان يسمح له العامل الدولي) بانتخابات حرة.

٢ ـــ اذكّر هنا فقط بما تداولته بعض الصحف الامريكية والبريطانية عن طبيعة المشروع واهدافه، وتمويل المخابرات الامريكية له.

٣ ـــ أن المشروع (اعتمد) وهو في المعارضة، ظاهرة «الحصص»، التي اتحفظ عليها كما فعل الرفيق حبه، ناهيك عن الأجحاف الذي أحاق بالحزب الشيوعي وقبوله حصة تعادل حصة ممثل أحدى العشائر الذي ساهم بالمؤتمر.

٤ ـــ أتساءل هنا أولاً مع الكثيرين: لماذا نحضر هكذا مؤتمر خصوصاً بعد رفضنا الحضور لمؤتمر فينّا؟ ثم أن مساهمتنا فيه تمت على يد هيئة لم تعد، كما ارى، تمتلك شرعية قيادة الحزب، لأنه مضى على انتخابها عام ١٩٨٥ الفترة اللازمة لعقد مؤتمر جديد (الذي حصل عام ١٩٩٣) ولا يخفى ما جرى خلال هذه الفترة من أحداث عظام تستدعي عقد ثلاثة مؤتمرات. وكان على ل.م أن تستفتي القاعدة الحزبية التي قطعت شوطاً كبيراً في التحضير للمؤتمر الخامس وانتخبت مندوبيها اليه.

٥ ـــ ولكن الأهم من كل ذلك، أن انسحابنا من موعم جاء تنفيذاً لقرار واضح من المؤتمر الخامس، أشار فيه الكثير من المندوبين الى مخاطر البقاء فيه وما يلحق بالحزب من أذى وثلم لوطنيتنا جراء ذلك. علماً ان ل.م أستنفدت بمذكراتها الى موعم كل المقتضيات الضرورية للانسحاب، بعدما أصرّ قادة موعم (وكيف له غير ذلك!) على القناعة بمحتوى مشروعه السياسي والنفوذ الغربي فيه، واخفاء مصادر تمويله، والتفرد باتخاذ قراراته. ومما يجدر بالذكر أن انسحابنا تأخر كثيراً حيث تآكل موعم نفسه بعدما كثرت الانسحابات منه.

أما ملابسات تمثيلنا واستبعادنا من لقاء دمشق لقوى المعارضة فهو موضوع آخر، علماً أن من تحفظ على مساهمتنا ـ مخطئاً ـ من القوى الاسلامية. ومستضيفي اللقاء أنفسهم قد غادروا موعم أم ممن لم يحضره أصلا، مما قد لا يخفى على الرفيق حبه.

وددت بهذه الملاحظات البحث الجاد عن الحقيقة وعرضها، مساهمة في تدقيق سياسة حزبنا ــ جنباً الى جنب مع كل الحريصين ومنهم الرفيق حبه الذي أقدر مساهمته ومقالته الجديدة في جريدة الحياة، شاكراً «الثقافة الجديدة» لتوفيرها هذه الفرصة للحوار، ولي كامل الثقة بقدرة شعبنا وحزبنا على تجاوز المحنة وبناء العراق الديمقراطي المتحرر من الاستبداد والارتهان والتخلف الذي سببته الديكتاتورية وقوات التحالف الأمبريالي.

ستوكهولم ٢٠/١٠/١٩٩٦

الهوامش

(١) أنظر «الثقافة الجديدة» العددان ٢٧٠، ٢٧١.

(٢) القطاع العام والقطاع الخاص في الوطن العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت ١٩٩٠ ص ٢٢٧- ٢٨٩.

(٣) أنظر «الثقافة الجديدة» العدد ٢٦٢ ــ دراسة د. صالح حسن ص ٤٠-٤٣.

(٤) أنظر مجلة المستقبل العربي العدد ١٩١ عام ١٩٩٥، ص ٤- ١٦.

(٥) وثائق المؤتمر الوطني الخامس لحشع ــ الوثيقة البرنامجية. ص ١٠٠.

ايضاح

الرجاء نشر هذا الايضاح في أول عدد يصدر من مجلة «الثقافة الجديدة»، مع الشكر الجزيل:

تطرق الاستاذ ثابت حبيب العاني في مقالته المنشورة في مجلتكم الغراء (العدد ٢٧٢، تشرين الاول ١٩٩٦) تحت عنوان «ينبغي صياغة الشعارات التي تبلور حركة جماهيرية واسعة» الى حركة «التيار الديمقراطي» في بريطانيا، طارحاً وجهة نظره حول هذا التيار. ولسنا بصدد مناقشة آراء السيد ثابت العاني ولكن الذي يعنينا تصوره القائل: «ففي المؤتمر الثاني للتيار الديمقراطي جرى فرض ممثلي الحزب الشيوعي والفيلي والآشوري والتجمع الديمقراطي وبدون انتخابات...».

وبهذا الصدد نوضح مايلي:

١ ـ لم يكن هناك أي فرض من أي حزب او تجمع، بل تم الاتفاق بعد نقاش مسهب وصريح حول ضرورة ان يكون للاحزاب والتجمعات والحركات السياسية ممثل في «لجنة التنسيق»، وهم أربعة ممثلين عن التجمع الديمقراطي، الحركة الديمقراطية الآشورية، الحزب الشيوعي، الاتحاد الآشوري العالمي، وليس هناك ممثل للاخوة الأكراد الفيليين كما جاء في المقالة. وتضم اللجنة بالاضافة اليهم سبعة أعضاء آخرين رُشّحوا لعضوية «لجنة التنسيق» ولم يعترض أحد او يتحفظ على ترشيحهم.

٢ــ من حق أي شخص حضر المؤتمر (وكان مفتوحاً أمام أي عراقي أو عراقية، وأُعلن عنه في الصحف) أن يرشح نفسه أو غيره لعضوية «لجنة التنسيق». وهذا من أبسط مبادئ وممارسات الديمقراطية. وكان هذا الحق مضموناً في المؤتمر، بل جرى تشجيع الاخوة الحضور للترشيح لعضوية اللجنة.

٣ــ اقترح بعض الاخوة في الاجتماع الموسع (آب ١٩٩٦) المكرس لمناقشة لائحة الحركة، والذي كان امتداداً للمؤتمر الاول، الغاء الصيغة المتفق عليها سابقاً والمتعلقة بكيفية تمثيل الاحزاب والتجمعات في «لجنة التنسيق» والاكتفاء بالترشيحات الفردية، وبعد نقاش جدي ومسهب طُرح الاقتراح للتصويت وفشل بفارق ثلاثة أصوات.

٤ــ بودنا التأكيد أن «حركة قوى التيار الديمقراطي في بريطانيا» لا تضع شروطاً معينة للانضمام اليها، وهي مفتوحة امام الراغبين للانضمام اليها والذين يشاطرون الحركة اهدافها وتوجهاتها. ونأمل أن تتضافر جهود كافة الديمقراطيين العراقيين من أجل إقامة عراق ديمقراطي حر. ونحن لا ندعي تمثيل كل القوى والشخصيات الديمقراطية العراقية، وما تشكيل الحركة إلاّ خطوة على طريق بناء التيار الديمقراطي العراقي الاوسع.. وهذه مهمة قد لا تكتمل كافة جوانبها الاّ داخل الوطن.

لجنة تنسيق قوى التيار الديمقراطي العراقي
في بريطانيا
١٩٩٦/١١/١

واقع النظام الملكي وثورة ١٤ تموز

(١ من ٢)

د. حسان عاكف حمودي

كتب الكثير عن ثورة ١٤ تموز وتناولتها بالانتقاد بعض المساهمات في ملف «انطولوجيا الموقف» على صفحات «الثقافة الجديدة». وقبل تناول الثورة، بما لها وما عليها، بودي أن اعرض واقع العهد الملكي، وسوابق زج الجيش في السياسة.

القوانين والمؤسسات الدستورية البرلمانية

«هل بالامكان - اناشدكم بالله - أن يخرج أحد نائباً مهما كانت منزلته في البلاد ومهما كانت خدماته في الدولة مالم تات الحكومة وترشحه؟ فاني أراهن كل شخص يدعي مركزه ووظيفته أن يستقيل الآن ويخرج ونعيد الانتخابات ولا ندخله في قائمة الحكومة، ونرى هل هذا يخرج نائباً»؟ نوري السعيد يخاطب النواب/ محاضر مجلس النواب/ الاجتماع الاعتيادي لسنة ١٩٤٣.

تشكل الحياة النيابية إطار ممارسة الشعب سيادته، وقد ظلت هذه الحياة شكلية طيلة العهد الملكي. ويصعب تصور الأمر على صورة مغايرة. فالدولة ذات السيادة المنقوصة اعجز من أن تمثل شعبها وتحقق طموحاته. فقد ظلت شؤون العراق، منذ تأسيس الدولة العراقية حتى ١٤ تموز ١٩٥٨، تدار من قبل البلاط الملكي والكتل الوزارية الموالية لبريطانيا - وعلى رأسها نوري السعيد - بتوجيه وادارة من السفارة البريطانية. وخلال الانتداب ظل المندوب السامي البريطاني في العراق هو الحاكم الفعلي للبلاد، وكان

للمستشارين البريطانيين في الوزارات والدوائر العليا في العاصمة وبقية الالوية هيمنة وصفها الشاعر بهذا البيت:

المستشار هو الذي شرب الطلا فعلام يا هذا الوزير تعربد[1]

واذا كان الانتداب قد انتهى من الناحية القانونية عام ١٩٣٢، غير أنه عملياً استمر في قالب جديد ضمن معاهدة ١٩٣٠. وعلى حد تعبير توفيق السويدي احد ساسة النظام الملكي البارزين «كان كل شيء يأتي ويروح ويبقى ويستمر بقوة الانجليز».

ومع كل هذا يعد اقرار مشروع الدستور وانبثاق مؤسسات تشريعية وتنفيذية وقضائية في الدولة العراقية الجديدة، تطوراً إيجابياً من وجهة النظر التاريخية العامة، قياساً لما كانت عليه الحال قبل ذلك، علماً ان اقاليم العراق، حالها حال الأقاليم العثمانية الاخرى، كانت خاضعة، رسمياً، لاحكام دستور ١٨٧٦ العثماني، وكان للعراقيين ممثلوهم في الدورات الثلاث لمجلس النواب (مجلس المبعوثين) وفي مجلس الاعيان للأعوام ١٨٧٧، ١٩٠٨، ١٩١٢.

ولم يكن انبثاق هذه المؤسسات بمعزل عن نضال العاملين في الحركة الوطنية الاستقلالية في المدن العراقية الرئيسية منذ عام ١٩١٨ ومطالبتهم بالحكم الدستوري البرلماني الى جانب الاستقلال التام[2].

ويؤكد الواقع الفعلي، على مدى العقود الاربعة من عمر النظام الملكي أن هذه المؤسسات والقوانين ظلت شكلية، ديكوراً يراد به تجميل صورة النظام البوليسي الاستبدادي الذي ساد الجزء الأكبر من تلك الفترة. فالقضايا السياسية تحال، عادة، الى قضاة يخضعون الى تقارير وتوجيهات البوليس السياسي، والسلطة التشريعية خاضعة للسلطة التنفيذية، وتشكل وتحلّ وفق ارادتها. فانتخابات البرلمان معدة سلفاً من قبل البلاط ورئيس الوزراء ووزارة الداخلية. وكان يفرض على المرشحين والنواب تقديم تعهدات خطية مسبقا بتأييد الحكومة ومساندتها. وفي اوقات كثيرة كان المتصرفون (المحافظون) يستدعون من قبل وزير الداخلية، ويسلمون قوائم باسماء المرشحين الذين يجب أن يفوزوا. أما السلطة التنفيذية فقد ظل بقاؤها على الدوام مرهوناً بارادة البلاط الملكي المؤتمر بامر السفارة البريطانية.

الدستور: «القانون الاساسي العراقي»

اعد مشروع الدستور العراقي لعام ١٩٥٢ في وزارة المستعمرات البريطانية من قبل لجنة جميع اعضائها من الانكليز بضمنهم المعتمد السامي نفسه برسي كوكس. وأقر الدستور «مجلس تأسيسي عراقي دون تغيير في أي نقطة من نقاطه المهمة»[٣]. ومن المفارقات التاريخية أن يضع الخبراء الانكليز دستور العراق في حين أن مواطنا عراقيا هو محمد امين افندي الزند (بغدادلي محمد امين) كان شارك قبل نصف قرن من ذلك التاريخ في لجنة اعداد الدستور العثماني لعام ١٨٧٦. وقد روعي في الدستور الأمور الاساسية التالية:

ــ المحافظة على جميع المصالح والامتيازات البريطانية، من خلال مراعاة الأسس الواردة في صك الانتداب، وعدم التعارض مع احكام المعاهدة العراقية ـ البريطانية (ت١، ١٩٢٢)، التي صاغت تبعية العراق لبريطانيا قانونياً.

ــ مراعاة صيغة بيعة الملك فيصل لعرش العراق، التي طبخها الانكليز.

ــ تثبيت الحقوق الاستثنائية للاسرة الهاشمية في العراق.

ــ تغليب السلطة التنفيذية واضعاف السلطتين التشريعية والقضائية وتحديد صلاحيتهما.

ففيما يخص السلطة التشريعية مثلاً اقر الدستور بنظام المجلسين وبمبدأ التعيين في احدهما، مجلس الاعيان، ثم ساوى في الاختصاص التشريعي بينهما، ولم يقيّد حق الملك في رفضه التصديق على اللوائح القانونية، وأناط الدستور حق الفصل في دستورية القوانين بالمحكمة العليا فقط، ونظم هذه المحكمة بطريقة تكون بها تحت نفوذ السلطة التنفيذية.

ــ سمحت الفقرة الثالثة من المادة «٢٦» من الدستور للسلطة التنفيذية باللجوء الى اصدار مراسيم لها قوة القانون في احوال معينة (عطلة البرلمان، للمحافظة على الأمن والنظام، لدفع خطر عام...)، مما وفر امكانية للحكومات المتتالية للتحايل على الدستور، لتأخير اصدار ماتريد من قوانين الى عطلة البرلمان، رغم كونه شكلياً مزيفاً، ليتسنى تمريرها دون مناقشة. وأصرخ مثال على ذلك القوانين التي اصدرها نوري السعيد عام ١٩٥٤. وفي سنة ١٩٤٣ عدل الدستور في اتجاه يزيد من سلطات السلطة التنفيذية، ومنح الملك سلطة اقالة الوزارة، وهي في النظام البرلماني ـ الذي يأخذ به دستور ١٩٢٥ ـ مسؤولة امام مجلس النواب، وليس امام الملك، وكذلك وجوب عرض قرارات مجلس

الوزراء عليه للمصادقة عليها. وفي الواقع العملي كان الدستور معطلاً على الدوام في ما يتعلق بحقوق الشعب السياسية، وتحولت الارادات الملكية الى الدستور الفعلي الذي يجري العمل بموجبه، وتزخر فترة الحكم الملكي بالقوانين الاستثنائية والاحكام والمجالس العسكرية العرفية التي يتناقض وجودها مع روحية الدستور العراقي.

الملك، المقام الأعلى، البلاط الملكي

« فهتف الناس ليحيا الملك فيصل ملك العراق، وهمس ابليس في اذن الزمان ليحيا تشرشل». بهاتين الجملتين لخص الأديب الكبير أمين الريحاني الجهود والتدخلات الحثيثة التي بذلتها سلطات الاحتلال البريطاني للعراق، خصوصاً جهود وزير المستعمرات البريطانية آنذاك تشرشل لتنصيب الحجازي فيصل الأول ملكاً على العراق.. عن طريق مبايعة شكلية، بعد إزاحة طلاب العرش المتنافسين من العراقيين وغير العراقيين عن طريقه، خصوصاً طالب النقيب (وزير داخلية الحكومة المؤقتة)، الذي كان يشكل خطراً على فرص نجاح فيصل في العراق. فابعدوه الى جزيرة سيلان خشية ان يقوض خططهم. ومعلوم كيف قام المندوب السامي باعداد مضابط مبايعة الملك التي اسمتها السلطة «تصويتا عاماً»، واستحصال تواقيع وجهاء واشراف المدن العراقية الرئيسية عليها. وهكذا جاء تنصيب فيصل الأول متعارضاً مع مطالب الحركة الوطنية في وقت مبكر باختيار رئيس الدولة من قبل جمعية تأسيسية منتخبة، وان يكون الحكم مقيداً بمجلس منتخب من اهالي العراق[٤].

لقد أعطى الدستور العراقي صلاحيات كبيرة للملك تمثلت اصلاً في تجاوزها على دور مجلس الأمة، اذ اناط به سلطة تشريعية، الى جانب مجلس الامة، وجعل صلاحية حل مجلس النواب من صلاحية الملك، وحصر دعوة المجلس الى عقد اجتماعاته به، وليس للمجلس ان يجتمع من غير دعوة الملك ولو أجمع النواب على الاجتماع الا في حالة واحدة، هي حالة عدم دعوته للاجتماع الاعتيادي في موعده المحدد بالدستور (المادة ٣٩).

مجلس النواب، الانتخابات والوزارة

«ليس بين العيوب التي كانت محل الشكوى بالنسبة لاوضاع الحكم في العهد الملكي في العراق، ماكان مكشوفاً ومعروفاً مثل تزييف عملية انتخاب النواب. . . ولعل السبب في ذلك تكرر عمليات التزييف طيلة العهد الملكي، ولأنها كانت تتم في طول العراق وعرضه.

ومن قبل *اجهزة لاحصر لها واشخاص لا حصر لهم*» خسين جميل «الحياة النيابية في العراق ١٩٢٥-١٩٤٦».

تألف في العهد الملكي ١٦ مجلساً نيابياً، استكمل واحد منها فقط دورته الاعتيادية وهي أربعة أعوام. وظل أعضاء مجلس النواب والاعيان، منذ تأسيسها عام ١٩٢٥ حتى ١٤ تموز ١٩٥٨، في غالبيتهم من الاقطاعيين وشيوخ العشائر وكبار الملاكين والرأسماليين. هذه الفئات تشكل نسبة ضئيلة من سكان البلاد، هذا في حين لم يدخل المجلس نائب واحد من الفئات الكادحة التي تشكل الغالبية الساحقة. كما حرمت القوانين الاربعة لانتخاب النواب، المرأة من المشاركة في الانتخابات، إذ حصرت حق الترشيح والتصويت بالذكور فقط. وإذ أكد الدستور على «وجوب تمثيل الاقليات المسيحية والموسوية» وحدد قانون انتخاب النواب نسب هذا التمثيل ومناطقه، وهي التفاتة ايجابية، نرى أن الدستور وقانون الانتخاب وتعديلاتهما اللاحقة اهملت أية اشارة لتمثيل الاكراد أو أي من الانتماءات القومية الأخرى بصفتهم القومية.

وفي مناسبات عديدة جرت الانتخابات للمجلس النيابي في ظل الاحكام العرفية والقوانين الاستثنائية، وفي ظل صحافة معرضة للمضايقة واحزاب محاربة، وكانت الشرطة المدججة بالسلاح تجوب أماكن التصويت للتأثير على الناخبين، ومعروفة طرق التزييف والغش والكذب المفضوح وغيرها من وسائل التزوير التي كانت تتبع من قبل البلاط ورئاسة الوزراء ووزارة الداخلية في إيصال الاقارب والاصهار والمحاسيب الى المجلس(٥).

منذ تاسيس الدولة العراقية حتى ١٤ تموز شُكلت ٥٩ وزارة، اشترك فيها ١٧٥ وزيراً، وكان عدد رؤساء الوزراء ٢١ رئيساً(٦) وفي الغالب الاعم كان يجري اختيار الوزراء الذين كانت السفارة البريطانية ترتاح الى استيزارهم. وقد يكون من الطريف والمفيد في الرد على الاتهامات التي توجه لثورة تموز (باعتبارها احدثت سابقة خطيرة حين سمحت للعسكريين الولوج الى الميادين السياسية والشطب على المؤسسات البرلمانية) الاشارة الى أن الجنرال نوري السعيد لوحده الّف ١٤ وزارة، وجميل المدفعي ٧ وزارات وعلي جودت الايوبي ٣ وزارات، وكل من جعفر العسكري وياسين الهاشمي وزارتين، وطه الهاشمي وزارة واحدة. وجميع هؤلاء كانوا من العسكريين الذين دخلوا عالم السياسة، وتنقل عدد منهم بين رئاسة الوزارة، ووزارتي الدفاع والداخلية، ورئاسة أركان الجيش، ومجلسي النواب والاعيان. وكثرة الدورات البرلمانية والوزارية، والوزراء والنواب لا علاقة لها بالروح الديمقراطية، والتداول السلمي للسلطة عبر صناديق

الاقتراع، كما قد يتوهم البعض، فغالباً ما كان حل المجلس النيابي أو الوزارة، قبل اكمال الدورة القانونية مرتبطاً بالصراع بين اقطاب الحكم القائم، او بالاستعداد لترتيب الاجواء من أجل ابرام معاهدات واحلاف جديدة. وتعكس هذه التغييرات المتسارعة ظاهرة غياب الاستقرار السياسي، ونزعات التسلط والاستئثار، واشتداد الصراع بين مراكز القوى التي ترتبط جميعها بأشكال مباشرة وغير مباشرة بالانكليز وتتسابق لتقديم الولاء لهم.

أما فيما يخص وصول نواب معارضين للحكومة احياناً الى المجلس النيابي فيقول (فيليب ايرلند) في كتابه «العراق، دراسة في تطوره السياسي»، أن الملك فيصل الأول كان يدعو لتضمين قائمة النواب عدداً من مرشحي المعارضة، ذلك أنه كان يرى أن الموهوبين من هؤلاء يثيرون مشاكل خارج المجلس اكثر مما لو كانوا نواباً. ويضيف حسين جميل، أحد نواب المعارضة في برلمان ١٩٤٧، أن فيصل الأول كان يتبع سياسة حفظ التوازن بين الشخصيات السياسية العراقية ممن هم في إطار الحكم القائم، الى جانب أن مثل هذا الاجراء قد يخفف من الشعور السائد ببعد مجلس النواب عن تمثيل الشعب، هذا عدا أن وجود مثل هذا العدد المحدود من المعارضين لم يكن يهدد أي مشروع لاية وزارة بعدم القبول او يهدد الوزارة بحجب الثقة عنها[٧]. ولم يكن وصول نواب معارضين وظهور اصوات وطنية حرة في بعض الدورات الانتخابية بمعزل عن عامل الضغط والنضالات الجماهيرية. ومن المفارقات التي يمكن الإشارة اليها هنا هو ان النيابة كانت تنتقل احياناً من الأب الى الابن، واحيانا الى الحفيد[٨] كما هو الحال مع عائلة بلاسم الياسين الاقطاعي المعروف في لواء الكوت. وقبيل انتخابات عام ١٩٤٧ التي اجراها نوري السعيد نشرت جريدة «الرائد» في شهر شباط قائمة بأسماء ١٠٢ نائب اعدتها وزارة الداخلية وجاءت نتائج الانتخابات في الشهر التالي مطابقة للقائمة ماعدا «فوز» سلمان الشيخ داود، وهو أحد اعوان السلطة عن لواء العمارة بدلاً عن لواء الدليم.

وظل النواب على الدوام تحت وطأة الشعور بانهم مدينون للوزارة وللملك بمناصبهم، الأمر الذي أمات في المجلس حق الاستجواب وحق سحب الثقة من الوزارة. وظل حق الحل بيد الوزارة تستخدمه متى تشاء. كما لم تقرر مجالس النواب الستة عشر مرة واحدة حجب الثقة عن وزارة من الوزارات التسع والخمسين، ولا عن وزير واحد من الوزراء الذين تألفت منهم تلك الوزارات. وغالباً ماكان الوزراء ورؤساؤهم يستنكفون عن الرد على استفسارات النواب واستيضاحاتهم عند حضورهم اجتماعات المجلس.

الى جانب ذلك فان الوزارة كانت تتخذ المواقف والقرارات في الكثير من الأمور

السياسية الخطيرة بمعزل عن المجلس. ولم تكن تعلمه عن كثير من الاحداث السياسية المهمة حتى بعد وقوعها. «كل الاحداث الخطيرة، وهي من صميم شؤون الحكم المقررة لمسيرته، وقعت بعيداً عن مجلس النواب وهو بمقتضى احكام الدستور يمثل سيادة الأمة[٩].

وتزخر مدونات محاضر جلسات المجلس النيابي ومذكرات المسؤولين ورجال الحكم في العهد الملكي بالشكوى من الحياة النيابية الصورية (انظر الملحق المرفق).

وكانت مطالبة الاحزاب الوطنية بجعل الانتخابات النيابية مباشرة وعلى مرحلة واحدة تجابه بالرد من الصحف الحكومية بحجة أن «٩٢٪ من الشعب اميين»[١٠]. وردت السلطة عام ١٩٥٢ على المطالبة الشعبية المتواصلة بتعديل قانون الانتخابات ووضع حد للتزوير والغش، بتشريع ما يضمن هذا التزوير، فاصدرت لائحة قانون تعديل قانون النواب، التي نصت على تحريم الاعتراض على نتائج الانتخابات او الطعن فيها، أو مناقشتها باحدى وسائل النشر التي نصت عليها المادة ٧٨ من قانون العقوبات، وحددت لائحة التعديل العقوبات للمخالفين بالسجن مدة لا تتجاوز السنتين، أو بغرامة لاتتجاوز الخمسمائة دينار. وعموماً اصاب المؤرخ الامريكي-العراقي في كتابه «العراق الجمهوري» إذ قال: «كان النظام البرلماني الديمقراطي العراقي، دمية في ايدي اصحاب الأراضي وشيوخ القبائل وفئة السياسيين المحترفين الذين يطلق عليهم بحق فئة الحكام المستغلين».

الاحكام العرفية والظروف الاستثنائية

زخر العهد الملكي بالاحكام العرفية التي اعلنت ١٦ مرة بين ٢٥ تشرين الاول ١٩٢٠ و١٣ تموز ١٩٥٨[١١]، وغطت هذه الاحكام اكثر من نصف عمر ذلك العهد. الى جانب ذلك ظلت البلاد، منذ اكتمال احتلال العراق عام ١٩١٨ حتى الاستقلال الشكلي عام ١٩٣٢، تحت سيطرة القوات البريطانية التي عادت مجدداً بمائة الف عسكري بعد اخماد حركة رشيد عالي الكيلاني عام ١٩٤١، واستمرت حتى خريف ١٩٤٧، وهي الفترة التي سميت بفترة «الاحتلال السلمي».

وظل «قانون مكافحة الشيوعية والاشتراكية والاباحية» و «قانون منع الدعايات الضارة»[١٢] و «مرسوم صيانة الامن العام» وقانون المطبوعات، التي سنت في الثلاثينات، سيوفاً في وجه أي نشاط وطني خارج اطار السياسة الرسمية، أو المطالبة بتشكيل الاحزاب والجمعيات وبحرية الصحافة والنشر.

تشكل الحياة الحزبية ركناً أساسياً من أركان النظام الديمقراطي البرلماني..وخلال

الاربعين عاما من عمر النظام الملكي لم تسمح الحكومة باقامة احزاب سياسية خارج اطار الاحزاب التقليدية الحاكمة، الا لفترة قصيرة (١٩٤٦-١٩٥٤) ارتبطت بالتأثيرات الايجابية التي تركها انتصار جبهة القوى الديمقراطية على الفاشية والنازية، والمطالبة الجماهيرية بالحقوق الدستورية والديمقراطية. وحتى هذه الفترة القصيرة تخللتها اجراءات وقوانين استثنائية، واعلان للاحكام العرفية، واعدامات للمناضلين، وحالات الطوارئ، وحل هذا الحزب او ذاك، وغلق صحف وغيرها، هذا ناهيك عن رفض اجازة بعض الاحزاب اصلاً، كما حصل مع حزب التحرر الوطني، وتحريم نشاط الحزب الشيوعي، وعدم السماح بتشكيل اي تنظيمات كردية او كردستانية او لأي من القوميات والاقليات القومية الاخرى.

ومنذ عام ١٩٤١ اخذ النظام يعنى بالشرطة عناية خاصة ويجهزها بوسائل القمع الحديثة، وزادت اعداد الشرطة السرية التي تراقب الناس، وتفتش المنازل، احياناً دون ترخيص من سلطة قضائية، والقبض على المعارضين، واصبحت شهادة الشرطة السرية معتمدة لدى المحاكم، وكلمتها هي النافذة في تعيين الموظفين وقبول الطلبة في الكليات. وسادت العقلية البوليسية ازاء الثقافة الى جانب عيوب قانون المطبوعات وسياسة مناهضة الصحافة المعارضة ومنع الكثير من الكتب والمجلات العربية والاجنبية[١٣].

الهوامش

(١) الشاعر محمد باقر الشبيبي.

وبنفس المعنى قال معروف الرصافي:

الا بلغوا عني الوزير مقالة   له بينها لـو كان يخجل توبيخ

اراك بحمام الوزارة نورة   واما جناب المستشار فزرنيخ

والرصافي هنا يجاري المثل البغدادي (الصيت للنورة والفعل للزرنيخ).

(٢) محمد مهدي البصير/ تاريخ القضية العراقية. بغداد ١٩٢٣، ص ٨٤.

(٣) ليث الزبيدي. ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ في العراق، ص ١٩.

(٤) محمد مهدي البصير/ المصدر السابق، ص ٨٦.

(٥) صوّت وانتخب وحدك بحرية   ياهو اللي تـريد مـن الحرامية

مطلع قصيدة شعبية انتشرت في الخمسينات للسخرية من تزوير الانتخابات والحياة النيابية في العراق.

(٦) عبد الرزاق الحسني، تاريخ الوزارات العراقية، ج ١٠، دار الكتب بيروت، ١٩٧٤، ط ع.

(٧) حسين جميل/ الحياة النيابية في العراق ١٩٢٥-١٩٤٦، موقف جماعة الاهالي منها، ص ٧٢.

(٨) قيس عبد الحسين الياسري/ الصحافة العراقية والحركة الوطنية من نهاية الحرب العالمية الثانية حتى ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨/ منشورات وزارة الثقافة والفنون، بغداد، جريدة النداء ١١/٥/١٩٥٨.

(٩) حسين جميل/ المصدر السابق، ص ١٠٨.

(١٠) قيس الياسري/ المصدر السابق ـ جريدة الزمان ٧/١١/١٩٥٢.

(١١) عبد الرزاق الحسني، مصدر سابق، ج ١٠، ص ٢١٥-٣٥١.

(١٢) عن مشرع صيغة هذا القانون قال مزاحم الباچچي أحد رؤساء الوزارة في العهد الملكي إن «اندفاعه لالغاء السلطات والتشريع» هو الذي سول له تعمد هذا الالصاق بين الشيوعية والاباحية. واضاف الباچچي ان «تسمية الشيوعية بالاباحية بالحقيقة تنم عن استهتار بالمفهوم العلمي للمسلك الشيوعي». المحاكمات/ جـ٦ ص ٢٣٩٨.

(١٣) غائب طعمه فرمان، الحكم الاسود في العراق، دار الفكر، القاهرة ١٩٥٧، ص ٦٢-٦٦.

ملحق: الحياة النيابية على لسان رجال الحكم في العهد الملكي

١ــ «الانتخابات انتهت بانتخاب مرشحين كان يتفق على تعيينهم الملك ووزير الداخلية ومن ورائه المستشار البريطاني ورئيس الوزراء. وكانت قائمة الترشيح هذه تبقى مكتومة حتى يوم الانتخابات، اذ تبلغ بالتلفون الى المتصرفين، ويطلب منهم ان يبذلوا جهدهم لانجاحها، حتى انه وقع أكثر من مرة ان طلب من المرشح ان يعطي تعهداً خطياً يحفظ لدى رئيس الوزراء، بانه اذا انتخب نائباً كمرشح من الحكومة ان يؤازر الحكومة ويبقى مؤازرا الحكومة ويبقى مؤازرا لها إلا اذا استقالت فحينئذ يؤازر اية حكومة يأتي بها الملك» ــ توفيق السويدي، مذكراتي، نصف قرن من تاريخ العراق والقضية العربية، دار الكتاب العربي، بيروت ١٩٦٩، ص ١٠٤–١٠٥.

٢ــ قالوا عن انتخابات البرلمان الثاني، ١٩٢٨، عن محضر مجلس النواب جلسة ٢٨/٥/١٩٢٨ ص ٣٩، ٤٣، ٤٤.

ــ ياسين الهاشمي ـ رئيس وزراء: «استغربنا من المخالفات التي ضجت جميع الالوية من وقوعها في اثناء الانتخابات»

ــ جميل الراوي ـ نائب الدليم: «متى كانت الامة حرة في ابداء رأيها في اية قضية من قضاياها المهمة».

ــ عطا الخطيب ـ نائب الكوت: «انا لا أعرف شخصاً واحداً في الكوت فاذا لم يقع تدخل من الحكومة في انتخابي فما لي والكوت ومن اين يعرفني أهل الكوت».

٣ــ ناجي شوكت رئيس الوزارء عام ١٩٣٢ يتحدث عام ١٩٦٩ عن الانتخابات التي اجريت في عهد وزارته: «الحقيقة التي لابد من ذكرها أن الملك فيصل كان يهدف من وراء الانتخابات الى اخراج مجلس تكون له اكثرية طوع يده، لذلك حرص على ان تأخذ الحكومة تعهدات من المرشحين والنواب. وبالفعل اخذنا منهم تعهداً يقضي بتاييد الحكومة واسنادها قدمه جميع النواب، واذكر ان السيد عبد المهدي وقع تعهداً ينطوي على عبارة لاستيكية. وقدم جميع النواب التعهد المذكور. وأنا احتفظ بأصول هذه التعهدات» ـ عن: خيري العمري ـ الخلاف بين البلاط الملكي ونوري السعيد (بغداد ١٩٧٩).

٤ــ علي جودت الايوبي رئيس الوزراء الذي اجرى انتخابات سنة ١٩٣٤ قال عنها: «ان النيابات كانت اقرب الى التعيين منها الى الانتخابات» ــ عن: عبد الرزاق الحسني، تاريخ الوزارات العراقية ج ٤، ١٩٤٠ هامش ص ١٣.

٥ــ «فليقل لي أي منكم من هو غير صنيع الحكومة» ــ رامز محمود/ نائب بغداد/ مجلس النواب محضر جلسة ١١/٥/١٩٤٦/

٦ـــ «ان هذا الضعف في مجالس الامة متأت من الأساليب المعلومة التي تتبع في الانتخابات... المجالس النيابية هي كما رأيتم تحل لسبب ولغير سبب، وان مجالس من هذا النمط وعلى هذا الطراز وتؤلف على هذه الصورة، وتطرد على هذه الصورة لايرجى منها خير ولايعتمد عليها في محاسبة المسؤولين». ـــ السيد عبد المهدي ـــ نائب المنتفك، مجلس النواب، محضر جلسة ٦/٤/١٩٤٠.

٧ـــ «لايخفى عليكم ولايخفى على الناس أجمع، الكبير والصغير، القاضي منهم والداني، كلكم تعلمون لم ينعقد الاجتماع على امر من الامور في العراق بقدر انعقاده على مسألة التدخل في الانتخابات منذ تشكيل الحكم الوطني في سنة ١٩٢١ الى فجر يوم ١٤ تموز الخالد». ـــ فاضل بابان، متصرف لواء الحلة ـــ محاضر المحكمة العسكرية العليا الخاصة جـ ١٠ ص ٥٣.

٨ـــ «ان النواب في هذه البلاد لايعرفون من واجباتهم الا الموافقة والتصديق على ماتقدمه لهم الحكومة» ـــ عبد اللطيف الفارسي، ـــ نائب ديالى: مجلس النواب جلسة ٣٠/٥/١٩٣٧.

٩ـــ الانتخابات منذ تأسيس الحكومة العراقية الى ان تقوض النظام الملكي كانت تسير على وتيرة واحدة. لا أعرف شيئاً عن تدخل فاضل الجمالي في الانتخابات، ولكني اعرف في الانتخابات الاخيرة (انتخابات ربيع ١٩٥٨) نوري السعيد وسعيد قزاز جلبوا قائمة وعرضوها على الملك والامير واتفقوا عليها». ـــ عبد الله بكر ـــ رئيس الديوان الملكي، محاضر محكمة الشعب/ ج٣ ص ١٠٢٣.

١٠ـــ «هزلت الاوضاع التشريعية والنيابة منذ سنة ١٩٣٠، وخلا الجو غالباً لعدد من ذوي الأهواء والتصرفات الشخصية، وانحرف فريق من المسؤولين عن سواء السبيل.. لذلك اصبح من الطبيعي ان تتصدى لمقارعة الطائشين من رجال الحكم جهات او سلطات اخرى لم تخطر من القوم على بال، ولهذا السبب كثر تمرد الجيش على الحكومة وانغمس في حماة السياسة.. وقد انتقل الغوص في السياسة من مجالسنا النيابية الى ثكناتنا العسكرية والى معاهدنا العلمية بل الى حقولناا الزراعية. ولولا ضعف المجالس لما تآمر الجيش على رجال الحكم ولما تعددت حوادث التمرد، ولما اضطربت حياة الدولة من شتى نواحيها الادارية والمالية والاجتماعية...» ـــ محمد رضا الشبيبي / نائب العمارة/ مجلس النواب ١٣/٥/١٩٤٦.

تنبغي الاشارة أن الكثير من هؤلاء المتحدثين كانوا مسؤولين عن ضعف المجالس النيابية نتيجة تدخلهم في انتخابات النواب ومساهمتهم في تزييفها مرة بعد اخرى. وان ما قال به بعضهم يدخل في باب المغالطة للظهور بمظهر غير المسؤول عن النتيجة التي وصلت اليها الحياة النيابية.

(التتمة في العدد القادم)

جورج حاوي لا يتذكر

فخري كريم

أثار الحوار الذي أجرته مجلة «الوسط» الصادرة في لندن مع الرفيق جورج حاوي، الامين العام السابق للحزب الشيوعي اللبناني، ونشر في إطار سلسلة «يتذكر»، نقاشاً واسعاً في الأوساط الحزبية والسياسية المعنية بالأحداث التي تناولها على الصعيدين اللبناني والعربي.

وفي العدد ٢٤٦ الصادر في ٢٠ تشرين أول/ أكتوبر الماضي، نشرت المجلة رد الرفيق فخري كريم على الانتقادات التي كان الرفيق حاوي قد وجهها إلى قيادة الحزب الشيوعي العراقي، نعيد نشره لأهمية الموضوع وتوثيقاً للحقيقة.

اثار الرفيق جورج حاوي الامين العام السابق للحزب الشيوعي اللبناني، في سيرته الحزبية والسياسية التي ادلى بها للأستاذ غسان شربل، طائفة من القضايا التي تستدعي التوقف عندها.

فالسيرة لم تقتصر على الأحداث والوقائع والتقييمات الخاصة بالحزب الشيوعي اللبناني، ولا الأوضاع اللبنانية، بل تعدتهما الى حياة ونشاط أحزاب وبلدان أخرى ومنها الحزب الشيوعي العراقي، وتقييم مواقفه من تطورات الاوضاع في البلاد، ومن

صدام حسين ونظامه.

كما تناول أوضاعاً ومواقف لم يكن الشاهد الوحيد عليها. ومع أن السيرة الذاتية تنبض بحقائق الحياة وهي تتحرك في فترات ومراحل انعطافية، ولصاحب السيرة دور نشيط فيها... فإنها لا تخلو من حالات ضعف الذاكرة، وفيها تجن يستعصي على التفسير، ويعيد الى الذاكرة شريطاً مثقلاً بالمواقف والأحداث المثيرة للأحزان وللأسف.

ومع أن الرفيق حاوي لا يعرف أحداً من قادة الحزب الشيوعي العراقي، سوى الشهداء منهم الذين لم يعاصرهم ليلتقي بهم، كما ذكر في سيرته، فإن قادة الحزب بغالبيتهم يعرفون الرفيق جورج حاوي عن قرب، وتابعوا باهتمام ادواره ومواقفه، وعايشوا جانباً منها، ومنهم من تأثر به وتعاطف معه، سواء على صعيد صراعاته داخل حزبه، أو تعرضه للأحزاب الأخرى.

وفي هذا السياق لا بد من الاشارة، قبل التعليق على طروحاته، الى أن من بين الأسباب التي دفعته وقادة آخرين من اليسار العربي الى اتخاذ مواقف مغايرة لسياسة الحزب الشيوعي العراقي، انحياز شريحة من قادة الحزب، المتعاطفين مع الرفيق جورج فكرياً الى مواقع التهادن مع صدام ونظامه، والقيام بنشاط لم ينقطع الى ما بعد احتلال الكويت تزكية لنهجه المدمر خصوصاً إبان حرب الخليج الأولى، والبحث عن سبل وقنوات للعودة الى التعاون معه وتحت قيادته. ولكن المؤسف، أن الرفيق حاوي، كما يبدو من ملاحظاته، لم يجد في سلوكه السياسي كله ازاء النظام العراقي خلال الفترة التي عالجها في سيرته ما يستحق النقد. بل بدا في تلك الملاحظات كما لو أنه يفاخر بها، ويرمي اللوم كله على قيادة الحزب حتى بعدأن ظهر لأقرب للمتعاطفين مع هذا النظام، انه وحده يتحمل مسؤولية الكارثة التي حاقت بالبلاد، والى جانبه طبعاً اولئك الذين لم يكتفوا بعدم إبداء النصح له فحسب، بل كالوا له المديح على دوره التاريخي، «كمنقذ للأمة» و«محرر لفلسطين»، «كبسمارك»، و«كاسترو».

هل عجز الرفيق حاوي حقاً عن استعادة شريط الذكريات المأساوية لتلك المرحلة التي طرق الحزب الشيوعي وقادته فيها كل باب ومن بينها قيادة الحزب الشيوعي اللبناني للتنبيه من الاخطار المحدقة بالشعب العراقي وبالأمة العربية وبقضاياهما المصيرية، والتحذير من مغبة تزكية صدام حسين وسياسته؟ وماذا كان موقفه من تلك التحذيرات؟ وهل أن الحياة،وحركتها بكل صخبها وفواجعها ونتائجها المأساوية التي نعيشها اليوم لم ترد بما يفرض مراجعة مسؤولة على من لم يسمع ويتنبه؟.

ليس غريباً أن تثير السيرة الشخصية للرفيق حاوي الاهتمام والمتابعة، فهي بالإضافة إلى الجوانب الشخصية النابضة بالحياة، ستُعتمد دون شك كوثيقة حزبية وسياسية في غاية الأهمية، وسيجري التعامل مع ما ورد فيها، كحقائق ومسلمات. ومن هنا أهمية تدقيق وتصويب ما ورد فيها بحق الآخرين إن لم يكن للحزب الشيوعي اللبناني ما يقوله عن السيرة. وبغض النظر عن تقييم ما ورد في السيرة من مواقف وذكريات وتوجهات، فلابد من الإقرار بأن صاحب السيرة يعتبر من بين ألمع القادة الشيوعيين العرب، وأكثرهم نشاطاً، وكان منذ صعوده السريع الى المركز الاول فى قيادة الحزب الشيوعى اللبنانى، مثار جدل والتباس إيجابي، متميزاً بالحماسة ، مستعدا للمجابهة دون تهيب ، بقدر استعداده للتراجع والانتقال الى الموقف الآخر. كان قادرا على الإيحاء بصدقية المواقف التى يبادر الى إطلاقها سواء على صعيد حزبه او الحركة الوطنية اللبنانية او العربية. الا ان الامر لم يكن كذلك على صعيد الحركة الشيوعية فى غالب الاحيان ، لاعتبارات تتعلق بالبيئة السياسية التى كانت تحيط دائما بحركة ونشاط الأحزاب الشيوعية ، وتعرضها للعسف وللقمع الشامل مما يلزمها بتوخي الحذر من أي مبادرة او موقف غير محسوب أو متسرع من قياداتها ، وهو ما كان يظهر هذه القيادات بمظهر حذر بل ومحافظ. وهو الهامش الكبير الذى كان وما يزال ، يميز الانفتاح والتسامح السياسى اللبنانى عن الاوضاع التى تسود غالبية الاقطار العربية الأخرى . وكان واضحا منذ بروزه السياسى انه يعرف قواعد اللعبة السياسية اللبنانية ، ويتعلمها بكفاءة وسرعة. واستطاع ان يكسب اوساطا محدودة في بعض الاحزاب الشيوعية العربية الى نهجه البراغماتى الذى لم يكن يلائم الاحزاب الشيوعية، بل يثير قلقها .

ووفقا للمعايير اللبنانية، كان حاوي بمستوى موقعه، بل واضفى على هذا الموقع بديناميكيته وبراغماتيته اهمية مضافة مكنته من تعزيز دوره القيادى فى حزبه ، وفى الحركة الوطنية اللبنانية، ومنحته هامشا غير محدود للتحرك فى الاوساط الفلسطينية والعربية لم تتح لاى قائد شيوعى او يسارى غيره، باستثناء الحالة المصرية المتميزة هى الاخرى . ولتفسير هذه الحالة من التسامح ازاء تحرك قائد شيوعى عربى ، كان يحلو للصديق محسن ابراهيم ان يفسر هذا التسامح مازحا «انكم مخدوعون بنا، فجورج حاوى قومي مندس فى الحركة الشيوعية، وانا شيوعى مندس فى الحركة القومية !».

ولم يكن مستغربا ان يثير الرفيق حاوى بنهجه السياسى والفكرى وطروحاته التنظيمية التى كان يؤكد على طابعها التجديدى، حفيظة الاحزاب الشيوعية، ولكنه

استطاع أيضا ان يكسب قياديين في هذا الحزب أو ذاك الى هذا النهج، كما حصل في الحزب الشيوعي العراقي، الذي كان يخوض صراعا دمويا في ظروف اختلال التوازن مع حزب البعث الحاكم حول وجهة تطور العراق وهويته ومصير شعبه، دون الاخذ بنظر الاعتبار الفروقات الجوهرية بين البلدين والشعبين والحزبين، وطبيعة النظام السياسي في كل من الدولتين.

وهكذا يمكن اعتبار الرفيق جورج حاوي مدرسة حزبية وسياسية، مما يستلزم اخذ ذلك بنظر الاعتبار عند محاججته والرد على طروحاته .

ولانه كذلك او هكذا بدا لي فان الرفيق حاوي، لم يترك شأناً عربيا أو دوليا، ولم يوفر حزبا أو قضية حتى وإن لم يكن على اتصال بها دون ان يتناولها بالتقييم أو النقد ، الجارح احيانا، وغير الموضوعي او الدقيق احيانا أخرى.

الموقف من صدام حسين ونظامه

في معرض تقييمه للحزب الشيوعي العراقي وسياسته التي انتهجها ابان التدهور السريع للاوضاع في البلاد، وانهيار التحالف الهش مع حزب البعث الحاكم ، ذكر الرفيق حاوي أن قيادة الحزب توقفت عند القضايا الثانوية ، وبما يلقي اللوم عليها في ما آلت اليه أوضاع البلاد بعد ذلك!

فقد عرض حاوي طبيعة تحالف الحزب الشيوعي اللبناني والحركة الوطنية اللبنانية مع النظام العراقي، ومع صدام شخصياً وتطور العلاقات معهما، مؤكداً على طابعها الودي.

وذكر أنه طالب شخصياً بقطع المساعدات العراقية عن حزبه والحركة «عندما بدأت حرب الخليج الأولى، وعندما فك ميثاق العمل القومي بين سورية والعراق، وعندما أعدم ٣١ شيوعياً في الجيش، ذهبنا في محاولة لاستجلاء الموقف والنقاش مع القيادة العراقية».

ويذكر حاوي أيضاً أنه حذر عزيز محمد مما يبيته الحزب الحاكم للحزب الشيوعي العراقي حيث يقول: «أبلغنا هذا الحديث إلى الرفيق عزيز محمد وقلنا له إننا نستشف نيات غير سليمة، وطلبنا منه أن يعالج الوضع سياسياً وأمنياً، وأن يتخذ احتياطات. أنا لا أتدخل في شؤون الأحزاب الأخرى، لكن الحزب الشيوعي العراقي ـ ويا للأسف ـ لم يعالج

الوضع، وتصلب في الصراع مع حزب البعث على أمور ثانوية وليس على المسألة الرئيسية المتعلقة بالقضية القومية. على مطلب اقتصادي هنا، على اصلاح ديمقراطي هناك. ولم يتخذ كما كنت أتصور احتياطات للمواجهة تتيح له البقاء في الداخل».

«كانت خطة الحزب الشيوعي العراقي في المواجهة» قال حاوي «هي الخروج من العراق، وهو أمر أجد أنه في غاية الضرر. صحيح أن النظام العراقي دموي وصحيح أن لا أحد في سجونه، فإما الموالاة وإما الإعدام. لكن حزباً ثورياً ينتقل إلى الخارج بقياداته وكوادره وربما أعضائه (!!) لن يعود إلى الداخل بسهولة».

ويقدم حاوي بعد ذلك تجربته والحزب الشيوعي اللبناني الذي رفض الخروج أثناء الحرب الأهلية.

يبدو أن الرفيق حاوي نسي تفاصيل تلك الفترة، وآمل أن لا يكون سبب النسيان هذه المرة أيضاً تبرير سلوكه السياسي الخاطئ في تلك المرحلة العصيبة والمريرة من تاريخ شعبنا.

ولهذا سأذكره ببعض الحقائق:

١) إن إعدام ٣١ شيوعياً وصديقاً للحزب الشيوعي العراقي تم عام ١٩٧٨.

٢) إن ميثاق العمل القومي بين سورية والعراق انهار أواخر عام ١٩٧٩.

٣) إن الحرب العراقية الإيرانية (الخليج الأولى) اندلعت في أيلول عام ١٩٨٠.

٤) إن المساعدات للحركة الوطنية اللبنانية التي بلغت كما يذكر حاوي مليونين و٢٢٥ ألف دولار وللحزب الشيوعي اللبناني ومنظمة العمل الشيوعي التي بلغت كما قيل نصف مليون دولار لكل منهما، لم تنقطع حتى بعد ذلك التاريخ، وقد قطعها النظام نفسه بعد أن تحسنت علاقات الأطراف المذكورة مع سورية، ولم تعد قادرة على الجلوس على كرسيين!

٥) إن قيادة الحزب الشيوعي العراقي أدركت في وقت مبكر ما يبيته الحزب الحاكم للحزب وللبلاد، سوى أنها، بضغط من جناح فيها تلكأت في اتخاذ التدابير الضرورية (كما قيم ذلك المؤتمر الوطني الرابع للحزب) وراهنت على مواصلة التحالف مع النظام.

لا أدري في الواقع عن أي قضايا ثانوية يتحدث الرفيق حاوي. فلقد ضاق حزب البعث الحاكم في العراق بنشاط الشيوعيين وكسبهم الجماهير الى ما يدعو له الحزب من شعارات، وما يقوم به من فعاليات، فراح يضيق على هذا النشاط بإجراءات

«قانونية» (الحكم بما لا يقل عن خمس سنوات حتى ١٥ سنة لكل من يعمل في منظمة غير مرخصة، بعد أن عجز الحزب عن الاتفاق معه لتوحيد منظمات الطلبة والشباب والنساء واضطر الى إعلان تجميدها، والتخلي عن مواقعه في قيادات اتحاداتها العالمية، الأمر الذي قيّمه الحزب سلباً في التقرير الذي اصدره المؤتمر الوطني الرابع للحزب، مع جملة من الممارسات الخاطئة التي ثلمت استقلالية الحزب عملياً ولم يتبق له ما يدافع عنه غير وجود الحزب ذاته)، وبإجراءات بوليسية واسعة النطاق. ولم يكتف بذلك بل قدم لقيادة الحزب مذكرة تحوي ١٨ مطلباً تستهدف التضييق على نشاطه. لخصها صدام حسين بأن على الحزب أن يعرف أن (الابّي) - أي المفتاح الرئيسي - هو بيد البعث. وأن عليه أن يرضى بما يرفعه من شعارات وما ينتهجه من سياسات حتى لو تناقضت مع قناعات الشيوعيين. ومن بين تلك المطالب الخطيرة التي كانت تتضمن كُل ما من شأنه إنهاء الحزب سياسياً وفكرياً وتنظيمياً وتحويله إلى مجرد واجهة للنظام، تبني وجهة نظر صدام حسين باعتبار منظمة التحرير الفلسطينية أداة صهيونية، وقياداتها عملاء موساد... والتعامل مع سورية وقيادتها باعتبارها (النظام العميل) وتبني السياسة القومية للحزب الحاكم بتفاصيلها، بالإضافة إلى إخضاع علاقات الحزب عربياً ودولياً لسياسات واعتبارات الحزب الحاكم، وإنهاء علاقاته الأممية، إلخ... وقد رفض الحزب ذلك ونشر تقرير آذار ١٩٧٨ الذي طالب فيه بإنهاء الاوضاع الاستثنائية، واطلاق الحريات العامة لكل القوى الوطنية، والتمهيد لاجراء انتخابات عامة لمجلس تشريعي، وطالب بالتخلي عن مواقف العداء ضد سورية ومنظمة التحرير الفلسطينية، وبناء جبهة معادية للإمبريالية والصهيونية ومشاريعهما في المنطقة، الأمر الذي أثار حفيظة البعث الحاكم ورد عليه بإعدام ٣١ عضواً وصديقاً للحزب بتهمة كاذبة هي إقامة تنظيم عسكري داخل الجيش. فهل كان ما طالب الحزب به «قضايا ثانوية»؟ وإذا كانت هذه قضايا ثانوية، فما هي القضايا الرئيسية التي دعا الرفيق حاوي ويدعو للتوقف عندها.

من الغريب ان يتمسك الرفيق حاوى بموقف لم تزكه الحياة حتى بتفاصيله الثانوية! فقد انتهت الغالبية الى ادراك الحقيقة المريرة ، والشفاء من اللوثة السياسية التى سممت العالم العربى طوال عشر سنوات عجاف من حرب الخليج الاولى، حيث توهمت حتى أوساط من اليسار العربى بالدور «القومى المنقذ » لحارس البوابة الشرقية صدام حسين، وظلت تلك الغشاوة تعمى أبصار الكثيرين خلال الحرب الثانية.

لقد أقنع الرفيق جورج حاوى نفسه، فى ما يبدو من ذكرياته، بإمكانية ثني صدام حسين عن النهج الذى قاد البلاد والامة العربية الى الهاوية، وجردها من أسباب المقاومة، واعادها عدة عقود الى الوراء. ولولا هذه القناعة لما مرر تلك الملاحظة الغريبة وغير المنصفة ليس بحق الحزب الشيوعى العراقى، بل بحق شعبنا الذى ذاق مرارة عذابات تكاد تفوق طاقة البشر. والا كيف لايستنتج حاوي، بما عرف عنه من استعداد للمراجعة والنقد الذاتي بعد كل هذا الذى جرى، ان تقييماته السابقة ازاء صدام ونظامه كانت خطأ فادحا يحتاج الى وقفة نقدية جادة؟.

لقد تعززت علاقات الحركة الوطنية اللبنانية في الفترة التي كرس فيها صدام حسين سلطته المطلقة على البلاد أواخر السبعينات، حين جعل من تعميم سياسة الإرهاب الجماعى والتصفيات الدموية نهجا للحكم، ولم تقتصر علاقات الحركة وأطرافها على إدامة أوثق العلاقات مع النظام بل تعدتها إلى تزكية نهجه وسياساته تحت واجهات «قومانية» وادعاءات بالمشاركة في مواجهة «الامبريالية والرجعية». ورغم اللقاءات والحوارات المستمرة مع الرفيق حاوى حول ما يجرى فى العراق والنوايا الكارثية التى يبيتها صدام، فقد كان يصر على ان «المسؤولية القومية» تفرض عليه الحفاظ على التحالف مع صدام، كما أن التزاماتهم فى إطار الحركة الوطنية تلقي عليهم عبئا إضافيا.

وكنا وما زلنا نرى ان من العبث، كما أكدت التجربة، على الدوام فك الترابط بين الديمقراطية وتكريس إرادة الشعب، وبين القضية القومية، إذ لا يمكن لجلاد ومستهتر بمصائر بلاده ان يكون مناضلا ضد العدو الاسرائيلى «والتحديات الامبريالية»، واى خطر يحيق بالوطن والامة العربية.

إن شعبنا يتذكر بمرارة سكوت اوساط واسعة من القوى القومية واليسار العربى أواخر السبعينات وأوائل الثمانينات، تحت ذات الشعارات والذرائع التى لوحت بها خلال سني حربي الخليج، عن النهج المدمر لصدام حسين الذي قام بتنظيم المجازر الجماعية بحق جميع الاحزاب والقوى السياسية، دون ان يوفر رفاقه واقرب اصدقائه ومساعديه، كما يتذكر الزيارات المكوكية لبغداد، تحت واجهة دعم «الصمود، والتصدى للمعتدى الاسرائيلى»، التي لم تكن وظيفتها في حقيقة الأمر تتعدى إظهار التعاطف والدعم لصدام حسين، «لتحليل» استلام المخصصات الشهرية التى كانت تبلغ مئات الآلاف من الدولارات «لتنظيف» تلك المجازر. وكانت وفود الحركة الوطنية اللبنانية، تحصد حصة الأسد من تلك المساعدات. وكان من الممكن غض النظر عن تلك العلاقات لو أن أطرافها لم

يفلسفوها، بإضفاء «طابع قومي» عليها. يومها طلب منا الرفيق محسن إبراهيم بأسلوبه الودي المرح ان نتجاوز طروحات الرفيق حاوى وتنظيراته «المبدئية» حول خلفية موقفهم وعلاقاتهم مع صدام، وقال مازحاً: (ان المبدئى الوحيد فى هذه العلاقة وفى موقفنا من النظام هو الدولار)! فما دام مستمرا فى الدفع، يصعب علينا تغيير «موقفنا المبدئى» إزاءه !، واقترَحَ ان نلين موقفنا و«نجمد المبادئ»، ونستفيد من حصة الحزبين لدعم كفاحنا ضد الدكتاتورية. وبذلك نكون قد «زكينا» هذا المال الحرام «واستكردنا» صدام، واعدنا المصداقية لـ«مبادئ» الرفيق جورج. كان هذا اللقاء بمشاركة الرفيق فواز طرابلسي الذى كان واضح التعاطف معنا، وتابع شخصيا دفع مساهمة منظمة العمل الشيوعى اللبنانى على دفعتين بلغت الواحدة منها خمسين الف دولار. ولابد من الإشارة إلى أن هذه التسوية المخلة من الناحية السياسية لم تكن موضع رضانا جميعاً. بعد ذلك التقينا بالرفيق حاوي، الرفيق عزيز محمد وكاتب هذه السطور، وأعاد علينا اقتراح الرفيق محسن إبراهيم ملمحاً الى اتفاقه بهذا الشان، إلا أنه خلافاً لما ذكره إبراهيم حول اساس العلاقة بالنظام أعاد تأكيد طروحاته السياسية والفكرية إزاءه. وقدم هو الآخر خمسين الف دولار، ولمرة واحدة، في اطار الاتفاق المشار اليه اعلاه. وكان قد سبق اللقاء المذكور اجتماع بين وفدين من قيادة الحزبين العراقي واللبناني، بحضور حاوي وعزيز محمد. وقد أثار الوفد بانزعاج شديد نشر جريدة النداء خبراً عن احتفالات النظام العراقي بانقلاب ٨ شباط ٦٣ وتسمية ذلك الانقلاب المشبوه «ثورة»!، وللأسف فإن موقف الرفيق جورج لم يكن ينطوي حتى على التبرير، بل التأكيد على أن هذا الأمر ينسجم مع علاقتهم وموقفهم من الحزب الحاكم في العراق، و«ان هذه الممارسة شكلية لاتتطلب الملاحظة والنقد»!. ومن الإنصاف الإشارة إلى أن رفاقاً في قيادة الحزب الشقيق لم يكونوا منسجمين حول تفاصيل المواقف والسياسات التي كان ينتهجها أمينهم العام على هذا الصعيد.

من الملفت أن الرفيق حاوي كان يقيِّم نظام بغداد في فترة صعود البعث في مواجهته «الشكلانية» للامبريالية والصهيونية بشكل مغاير تماماً، ومن بين مواقفه الحادة خطبته المشهورة التي أشار إليها في سيرته والتي ندد فيها بإرسالية «التمر» العراقي وعندما ساله علي غنام عضو القيادة القومية للحزب الحاكم الذي جاء على رأس وفد إلى بيروت عما إذا سيوقف هجومه عليهم قال له: «دعنا نتصارح، هناك شخص سيء النية اتهمني بشيء وسافر وأنا أبحث عنه، اتهمني بأنني لا أقبض وأريد أن أعرف من أين أتى هذا

الملعون بمعلوماته. نحن نريد مساعدة للحزب وللحركة الوطنية» (...) بعدها تماماً تغير الموقف جذرياً من النظام، رغم انحداره إلى درك الدكتاتورية السافرة ونهج الإبادة الجماعية ضد سائر الأحزاب والقوى، وباتت سياسته موضع إدانة عربية ودولية واسعة. فهل يستقيم هذا الموقف وما جسده الرفيق حاوي في رده على علي غنام مع الادعاءات التي سيقت في سيرته لتبرير التحالف والعلاقة مع نظام بغداد وصدام حسين.

هل هرب الشيوعيون العراقيون:

أعضاء وكوادر وقيادات إلى خارج العراق؟

زار الرفيق حاوي بغداد في عام ١٩٧٨ (وكان عزيز محمد وقياديون آخرون خارج البلاد) قبل مغادرتي ببضعة أسابيع الى سورية ولبنان، بتكليف من قيادة الحزب، لتنظيم التراجع المؤقت ولتأمين الهجرة المعاكسة الى داخل الوطن. ويومها رأيت من واجبي أن أضع الرفيق حاوي، ومن خلاله أعضاء وفد الحركة الوطنية، في صورة المأساة التي تحيق بوطننا، والتي تهدد بخرابه. وأثناء زيارته لطريق الشعب الجريدة المركزية للحزب. وكانت قد تحولت بسبب الحملة الإرهابية الى مركز للنشاط والاتصالات الحزبية والسياسية، عرضت عليه أحد العاملين في الجريدة، العائد تواً من أقبية الأمن، وقد بدا مهدماً ومحطماً من التعذيب الذي استخدمت فيه كل فنون ما بعد الفاشية. وأذكر الآن بألم وحزن كيف كان رد فعل الرفيق، فقد رأى في هذه الواقعة مجرد مسرحية وفخ لتخريب زيارة وفد الحركة الوطنية. هكذا نقل الي الانطباع بعض أعضاء الوفد من قادة الحركة يوم ذاك. وأشهد اليوم وقد تجاوزت الخمسين أنني كنت بدرجة من السذاجة السياسية بحيث لم أكن أسمح لنفسي بنصب كمائن لأحزاب شقيقة حتى وإن فعلوا ما يلحق أفدح الأضرار بقضيتنا، إذ كنت مع معشر الشيوعيين العراقيين نفهم الأممية على انها تضحية لصالح الحركة ككل. ويبدو أننا طبقنا هذا المبدأ دائما بالاتجاه الذي لا يصب في مصلحتنا الحزبية والسياسية الضيقة، كما فعل «أمميون» آخرون.

كان الشيوعيون العراقيون، عند زيارة الوفد اللبناني، ينتقلون بالآلاف الى العمل السري، ويغيرون مواقع نشاطهم وأساليبه. وغادر الآلاف منهم للنجاة من الإبادة الجماعية، كما غادر الآلاف منهم بتوجيهات حزبية للالتحاق بمنظمات الحزب في كردستان وكذلك، الى دمشق وبيروت تمهيداً للانخراط مجددا في نضال الحزب ضد

الديكتاتورية في المواقع والمهام التي يحددها.

وكما ذكرت فقد كلفت على نطاق قيادي ضيق بالسفر الى دمشق وبيروت لتنظيم حركة التراجع، وتأهيل المناضلين تمهيداً لتنظيم عودتهم الى مواقع نضالية جديدة في اطار الهجرة المعاكسة الى الداخل وكردستان.

عند وصولي بيروت وضعت نفسي تحت تصرف الحزب الشقيق عملاً بتقاليد اتبعناها باستمرار. ولم أقبل بغير ضيافته، رغم أن الأخ الصديق ياسر عرفات وضع تحت تصرفنا عدة بيوت مع مجموعة من المرافقين. ولا يمكن هنا أن لا أشيد بمشاعر الشيوعيين اللبنانيين وتضامنهم معنا.

وجدت نفسي بعد فترة أخرق هذه القاعدة نتيجة تزايد الأعباء التي فرضها تدفق مئات المناضلين الناجين من الإرهاب والمطاردة الدموية، الذين كانوا بأمس الحاجة الى مأوى ورعاية، ناهيك عن العمل والتدريب. استعداداً للعودة السرية إلى البلاد.

اشهد أن الأخ الرئيس ياسر عرفات وفتح لعبا الدور الأهم في الاحتضان وفتح المعسكرات وتقديم شتى المساعدات، وفعلت الديمقراطية والشعبية ما يتناسب مع امكانياتهما وانضمت اليهما المنظمات اليسارية الأخرى. وكان للحزب الاشتراكي اليمني وقيادته موقع الصدارة في الاحتضان والدعم الشامل.

وهكذا كما يبدو أننا اعلمنا الجميع بمن فيهم قيادة الحزب الشيوعي اللبناني، قرارنا بالعودة الى مختلف أنحاء البلاد حسب الامكانيات المتاحة والتي نسعى بشتى الوسائل لتوسيع نطاقها، وبشكل خاص الى كردستان، للمشاركة في حركة الكفاح المسلح، وأكدنا على عدم استعدادنا، (عطفاً على نصائح البعض باللجوء الى البلدان الاشتراكية)، للتحول الى حزب مهاجر، ورفضنا إعادة تجربة حزب تودة والحزب الشيوعي التركي. كما أعلمناهم بان لدينا قيادة في داخل البلاد وفي بغداد بالذات، وأن هناك تجمعاً من القياديين والكوادر البارزين يعيدون بناء المنظمات والقواعد الحزبية والأنصارية.

وكانت عمليات العودة الى منظمات البلاد تجري بمساعدة من الاصدقاء، وليس بمعزل عن علم عام من قيادة الحزب الشيوعي اللبناني الشقيق. ولم يمر عامٌ أو أكثر بقليل، حتى انتقل أكثر من نصف أعضاء اللجنة المركزية وغالبية كادرات الحزب الى كردستان. فهل يرى الرفيق حاوي أن كردستان مثلاً ليست العراق، وأن العودة الجماعية للمناضلين اليها، هي اشبه بالهروب؟!

ولمزيد من الافادة، اذكر الرفيق حاوي بالحقائق التالية:

١ـــ لم يلتحق بصفوف الحزب وحركة الأنصار بعد انهيار التحالف، الكوادر الذين تركوا البلاد «لأنهم اصبحوا مكشوفين أمام العدو ليس بمعزل عن الخطأ الفادح الذي ارتكبته قيادة الحزب بسياستها التحالفية»، فقط بل والمئات من المناضلين الذين كانوا يدرسون أو يعملون في البلدان الاشتراكية والعديد من البلدان الرأسمالية والعربية أيضاً.

٢ـــ ان كردستان وقواعد أنصار الحزب بالتحديد ضمت بعد ثلاث سنوات من التراجع أكثر من ثلاثة آلاف مناضل، بين أديب وصحفي وطبيب وفنان وعمال وفلاحين وطلبة رجالاً ونساءً!. وكانت القاعدة الأنصارية الواحدة تضم أحياناً مناضلين يجيدون (١٦) لغة! ولم تخلُ بعض القواعد من اشهر الكتاب والفنانين والأطباء وأساتذة الجامعات، قدم العشرات منهم حياتهم في سبيل قضية شعبهم، وقضى اغلبهم بين ٥ ـــ ١٠ سنوات في الجبال القاسية وعلى الكفاف!

وكم كان المناضلون الذين قضوا سنة أو سنتين في قواعد المقاومة الفلسطينية أو الحزب الشيوعي اللبناني يتحسرون على جبال لبنان، وحتى انأى قراها وأكثرها تخلفاً التي كانت تنعم بما لم تكن العديد من العواصم العربية تنعم به من خيرات ورفاهية. بينما خرج مناضلو جبال كردستان بعد سنوات وهم لم يشاهدوا شارعاً مسفلتاً! ولم يعرفوا معنى الفيديو والفاكس! وفي نفس الفترة، وقع تحت قبضة جلاوزة صدام أعضاء في اللجنة المركزية وكوادر حولها ومنهم الشهيدة عائده ياسين ود. صفاء الحافظ وصباح الدرة وكوكبة من النساء والرجال والشبيبة في منظمة بغداد والمدن الأخرى، فهل هرب الحزب الشيوعي العراقي، لا القادة كما ذكر الرفيق جورج حاوي ولا الكوادر فحسب، بل والاعضاء أيضاً! سامحك الله!.

٣ـــ كيف لا يتذكر الرفيق حاوي مآثر الشيوعيين العراقيين؟. إنه تحدث عن مآثره النضالية الشخصية وهو محق في ذلك. فقد سجن بضعة أشهر، وزارته شخصيات بارزة أثناء توقيفاته واجبر ملفقي الدعاوي عليه على الاعتراف بجرائمهم بحقه داخل مراكز الشرطة، واستطاع تنظيم الهروب من مطار بيروت. فكيف لا يعرف الرفيق حاوي ان الآلاف (بلا مبالغة) من شبيبة العراق قضوا سنوات طويلة في سجون الدكتاتورية منذ ١٩٦٠ حتى يومنا هذا؟ وأن أطفالاً في سن الخمسة عشر ودون سن الرشد، جُلدوا، وحكموا بسنوات ثقيلة في السجن بعد تعرضهم لانواع التعذيب. ألا يذكر أن الهروب من السجون، وحفر الخنادق لتنظيم الهروب الجماعي، والمواجهة

مع الجلادين وتحدي السجانين ومواجهة الرصاص بصدورهم في السجون والمعتقلات، وتقاليد العمل السري في أشق الظروف وأصعبها حتى في ظل الأوضاع الفاشية الراهنة، إنما هي مآثر يومية لا للشيوعيين فحسب، بل ولأصدقائهم أيضاً؟

إنني اشهد واعتز بمفاخر المناضلين الشيوعيين اللبنانيين واعرف نماذج منهم تحمل مآثر بارزة، مع أنهم لم يصبحوا قادة. كما انحني إجلالا أمام شهداء الحزب الشقيق وجهادية قادته. إلا أن من الصعب ان أتفهم دوافع الرفيق حاوي بإيراد تلك الملاحظة المتجنية التي تتهم الشيوعيين العراقيين بالهروب. لقد تذكر الرفيق مأثرة الفنانة الكبيرة (ناديا لطفي) اثناء الحصار، بزيارة بيروت، ولكنه نسي مآثر مئات الشيوعيين العراقيين الذين ظلوا صامدين في بيروت وفي قواعد المقاومة والحركة الوطنية، ورفضوا الهروب الى خارجها، وقدم كوكبة منهم حياتهم في حي السلم لوجودهم في مواقع أمامية قتالية.

ولماذا لا يذكر أبرز الكتاب والصحفيين والشعراء الذين تولوا تحرير صحف المقاومة والحركة وساهموا في صحافة الحزب ووسائل أعلامه؟. بل وان بعض الصحف والمجلات لم تجد من يحررها غير الشيوعيين العراقيين؟ ولم تجد «فلسطين الثورة» من يوزعها تحت وابل القصف على المقاتلين، في الصفوف الأمامية غير شيوعي عراقي.

ويهمني سياسياً، وبعيداً عن المفاخرة والادعاء، أن اذكّر بأن كاتب هذه السطور اخترق الحصار الاسرائيلي وعاد ليبقى مع رفاقه واصدقائه الفلسطينيين واللبنانيين وفاء لوقفتهم مع شعبنا ويعود في آخر باخرة من بواخر الانسحاب الفلسطيني، محمولاً على المحفة، بعد تعرضه لمحاولة اغتيال على ايدي زبانية اجهزة صدام؟

القومية والأممية من وجهة نظر مغايرة؟

يقول حاوي: «العراقيون يتمتعون بالصلابة والأمانة والإخلاص لقضيتهم، لكني على خلاف معهم في كثير من القضايا التي تتعلق بالجمود والمواقف من القضية القومية العربية والموقف من الأممية التي كانت هناك معركة بشأنها. ليس من قبيل الصدفة اتهام الحزب الشيوعي اللبناني وأنا خصوصاً بأننا قوميون شوفنيون معادون للاتحاد السوفيتي. الأكثر وعياً كانوا يعتبروننا كالولد المشاكس. ولكن هذه كانت مميزاتنا. وأعتقد بأنني كنت ولاأزال أممياً أكثر منهم. لكن مفهومي للأممية هو مدى مساهمتي

كحزب وشعب في النهر الأممي الكبير وليس في تحولي إلى مستنقع آسن (...) تتجمع فيه مياه الأممية (...)»!.

ارتبطت بمسيرة الرفيق جورج منذ بروزه الحزبي والسياسي قضايا عقدية كان له شأن في أثارتها. ومن ذلك موقفه من القضية القومية والأممية واستقلالية الأحزاب الشيوعية.

وفي سيرته الذاتية لم يترك هذه القضايا دون وقفة. لكنها للأسف وقفة لا تتناسب مع من شاء أن يقدم نفسه باستمرار كمجدد، وهو ما اكده في سيرته التي لم ينس أن يعرّض فيها بالشيوعيين العراقيين أيضاً والشيوعيين العرب عموماً، مفاخراً بأنه اكثر أممية منهم جميعاً.

لست أدري من أين استقى معلوماته عن تعريض الشيوعيين العراقيين بأمميته، إذ ليس بينهم من غرض بأمميته، ولا اعتقد أن أحدا منهم حاول ثلمها.

ولكن الأممية — في رأيي المتواضع — لا تستقيم أبداً مع إخضاع مصائر البلدان والشعوب الأخرى لمصالح أي طرف آخر، وليس للأممية علاقة بالتعاون مع دكتاتورية دموية، واعتبار خراب بلد وحزب وشعب «حلال» شأن لا يمس او يخدش أممية «القائد» حتى وان كان يوظف العلاقة معها لتصريف شؤون حزبه أو بلده. ثم كيف لأحد ان يعرّض بأممية الرفيق، وهو الذي كان دائماً «بشهادة سيرته» وسيطاً مبادراً بين موسكو وعواصم اشتراكية أخرى، وقيادة المقاومة وعدن، وإثيوبيا وليبيا...الخ.

ليسامحني الرفيق جورج، إذ أستمد منه الجرأة في الاستشهاد بالطرف والنكات، وما أكثرها مما لا يقال، فالأمين العام للجبهة الديمقراطية نايف حواتمة كان يعلق على وساطاته الأممية، «إن أممية الرفيق حاوي هي (ماركنتيلية) صرفة»، وأخشى أن الرفيق جورج كان حريصاً على إعطاء مثل هذا الانطباع في سيرته وتقديم نفسه بهذه الصورة، وهذا ما انعكس بوضوح في معرض نقاشه السالف مع علي غنام، ملمحاً إلى أن هجومه على النظام أو إيقافه مرهون بتقديم المساعدة لا غير، وليس لأي اعتبارات سياسية أو فكرية أو دعاوى قومية.

ويعقب الصديق محسن إبراهيم في هذا السياق، أن وزير الخزانة الليبي استقبل وفدا ضمه وجورج وآخرين في مطار طرابلس وبعد أن حياهم الوزير سألهم كيف هي القضية؟ يقول محسن فوجئ الوزير عندما قلنا له بلسان واحد، جئناك بها، خذها أزجوك واعطنا مفتاح الخزانة!

«رائحة» الحركة الشيوعية، ورائحة «حركة ثورية جديدة»

ميّز حاوي أممية منتقديه من الشيوعيين عن أمميته، بأنها مستنقع آسن (...)... وقد استعدت بانتباه شريط المواقف الانعطافية القومية للرفيق حاوي حول القضية القومية، ولم أستطع تحديد مضمونها بوضوح.

وهو لم يحدد موقفه من القضية القومية في المرحلة الراهنة، وماذا لحق به من تغيير، إذ أن مواقفه وتطبيقاته في هذا السياق تثير التساؤل والحيرة. ومرد الالتباس في توجهه لا يعود إلى قناعته بأن الحزب الشيوعي لم يعد إطاراً ملائماً لتحركه السياسي والفكري في ظروف ما بعد انهيار الاتحاد السوفيتي إذ أن من حقه الوصول إلى هذه القناعة، بل إلى البديل الذي يطرحه لتفعيل فصائل الحركة الثورية ليس كخيار للحزب الشيوعي اللبناني، وإنما للأحزاب الأخرى أيضاً. متجسداً بما يسميه «الحركة الثورية العربية»، وهو خيار «قومي الشكل» دون محتوى واضح، مما يفقده مصداقيته السياسية والفكرية. فإذا كنت أوافق الرفيق جورج في جوانب من نقده للأحزاب الشيوعية وتخلف بعضها، لكن من العسير استيعاب تجليات هذا البديل الذي يطرحه تحت شعار حركة ثورية عربية جديدة، وهو المشروع الذي طرحه، كسبب من بين أسباب أخرى لتركه الأمانة العامة للحزب الشيوعي اللبناني وكخيار لتجاوز تخلف الأحزاب وعجزها عن مواكبة الحركة القومية العربية والاستجابة لمتطلباتها.

إن جوهر هذا المشروع، كما تعكسه تحركات الرفيق ونشاطاته العربية منذ فترة طويلة، تستند إلى تبني التجربة الليبية، وترتكز على دعمها. وتكاد كل مساعي ونشاطات الرفيق لتشكيل وإطلاق مبادرته لتاسيس الحركة المذكورة تبدأ وتنتهي عند هذه التجربة.

ومع تضامني مع الجماهيرية الليبية ومع الأخ العقيد معمر القذافي في مواجهة الأخطار التي تواجهها بلاده، فإن من الصعب على قومي متنور، وأنا لست منهم دون شك، قبول مثل هذا الربط بين الدعوة لتجديد حركة اليسار وتقويم مسار أطرافها من القضية القومية، وتطبيقات الرفيق حاوي. إذ هل يعقل أن ينهار الاتحاد السوفييتي والمنظومة الاشتراكية (الشمولية)، وان لا تجد قوى اليسار والتحرر بديلاً لها غير النموذج «الجماهيري»؟ وهل من المنطقي أن تنتهي جهود التجديد التي أعلن الرفيق

حاوي تكريس نفسه لها بعد استعفائه من الأمانة العامة للحزب، عند هذا البديل؟، وهل أن التخلف ورفض التجديد في نظره حكم عادل على من يرفض منطلقاته لاستنهاض حركة اليسار وتياراتها المختلفة أو لا يستهدي أو يبشر ويثقف بالكتاب الأخضر «مع أنه يحترمه كوجهة نظر» بديلاً عن رأس المال الذي لم تنقطع التنظيرات حول ما شاخ فيه وما لم يشخ. أو الإقرار بـ: «الطريق الثالث» ـ (الجماهيرية) بديلاً عما انهار من تجارب؟

التجربة اليمنية المغدورة وخبرة الأشقاء

ربما بمحض الصدفة، كنت في عدن في نفس الفترة التي كان فيها الرفيق جورج عشية المأساة الدامية التي أغرقت الحزب الاشتراكي اليمني وتجربته بالدم والهزيمة.

ولقد قابلت القادة من الطرفين، وتمنيت على من قابلت من الاصدقاء أن يساهموا في تهدئة الأوضاع، ويسعوا للحيلولة دون تفجر الأحداث، وكنت أخفي الحقيقة عن الجميع عندما انقل لكل طرف كلاماً إيجابيا عن الآخر، وهو لا يصدق!.

وأذكر آخر اتصال تلفوني لي من بيت الفقيد علي باذيب مع الرفيق علي ناصر محمد الأمين العام للحزب الاشتراكي اليمني، في ساعة متأخرة من ليلة الاحداث الدامية، محاولاً طرح اقتراح للتهدئة، فطلب مني الامتناع عن الاسترسال بالتلفون، على أن يرسل لي الصديق الفقيد فاروق علي أحمد ليضعني في صورة التطورات، ويسمع ما عندي.

عند وصوله، طلب الانفراد معي في حديقة المنزل، وابلغني أن الصدام حتمي لا محالة معززاً استنتاجه بما نقله اليه الرفيق حاوي ليوصله الى علي ناصر. «ان علي عنتر، حسب رواية حاوي، هدد بأنه سيقتل علي ناصر غداً في اجتماع المكتب السياسي وأن احد الطرفين يجب أن يخرج من المعادلة! وقد ورد هذا أيضاً في سيرة الرفيق جورج.

قبل يومين من المجزرة زرت الفقيد علي عنتر ونقلت له أن الثورة تتحمل أكثر من علي لقيادتها.

قال لي ببساطة... انتم العراقيون تحبوننا جميعاً، حتى إذا كنتم منحازين فكرياً لعلي ناصر، إلا أن الرفيق جورج للأسف يحرض الآخرين علينا ويتهمنا بأننا حثالة الرجعية! «لن أنقل نص كلامه».

في هذا السياق، ومنعاً لأي التباس، يهمني التأكيد على أن الحزب الشيوعي اللبناني

كان حريصاً دون أدنى شك على التجربة اليمنية. ولكن انشداد الرفيق جورج إلى أسلوبه في معالجة ما كان يتدخل فيه، كانت تصب في أحيان غير قليلة لغير صالح القضية.

وهكذا ذهبت التجربة اليمنية ضحية الإسقاطات «الإرادوية» على عمليات التغيير في البلاد وعدم نضوج مقدماتها... ضحية الصراع المنفلت على السلطة بالمعايير القبلية والمناطقية... ضحية حسن نوايا قادة الحزب الاشتراكي بالخبرة التاريخية لأشقائهم، ولرفاقهم من قادة حركة القوميين العرب الفلسطينيين حيث حاول كل طرف في الحزب أن يستميل هؤلاء القادة الى جانبه وكم كان سهلاً ان يسمع كل منهم ما يعجبه ويثيره من بعض هؤلاء القادة.

أخيراً.. لابد لي في الختام أن أعبر عن الأسى والحزن لعجزي عن التزام الصمت والإيفاء بتعهدي مع نفسي بتجنب الكلام، وكل شيء من حولنا يتحول وينقلب، فقد تركت منذ بضع سنوات العمل القيادي متفرغاً للنشاط الثقافي والفكري، تقديراً، وربما توهماً بإمكانية تقديم ما يضفي مصداقية أكثر على التفاعل مع المشاعر المحبطة للناس وتوقهم للخلاص من محنتهم وعذاباتهم ووساوسهم وأوهامهم وأحلامهم...

اشعر بالحزن لان الرفيق جورج بملاحظاته الجارحة لم يترك لي خياراً آخر. ولم يبذل الجهد لكي يوظف ذاكرته وذكرياته، في مثل هذه الظروف الصعبة والمعقدة، مساهمة منه في إيقاف الانحدار والتدهور ولاستنهاض الناس واستعادة ثقتهم، ومعافاة المناخ السياسي والفكري الملوث، دون أن يتجنب قول الحق وعرض الوقائع. بعيداً عن اغراءات الاثارة الاعلامية.

اشعر بالحزن لانني طالما أبديت إعجابي بالعمل القيادي الجماعي للحزب الشيوعي اللبناني، وبالديمقراطية الحزبية التي يتيحها الحزب لجميع الكوادر للمساهمة في رسم سياسته وتوجهاته. وإذا بالرفيق جورج يصدمنا إذ يقدم لنا كل ما كان يبدو انه حصيلة نقاش وجهد جماعي في القيادة والحزب، إن هو إلا مبادرة وإنجاز فردي وشخصي.

لماذا أخفيت مخطوطات قمران؟

د. أحمد عثمان

أثار الإعلان عن اكتشاف مخطوطات عربية وأرامية قديمة بمنطقة قمران في أعقاب الحرب العالمية الثانية، حماس الباحثين في تاريخ الكتب المقدسة، وراحوا ينتظرون العثور بينها على المعلومات التي يمكن أن تزيل الغموض عن مرحلة هامة من التاريخ الإنساني. ذلك أن أقدم نسخة عبرية موجودة الآن من كتب العهد القديم (التوراة) ترجع إلى القرن العاشر بعد الميلاد، وهي تتضمن اختلافات عديدة مع النسخة السبعينية اليونانية التي ترجمت في الاسكندرية خلال القرن الثالث قبل الميلاد. أيهما أكثر صحة عند الاختلاف وايهما يمكن الاعتماد عليه؟ ولا يتوقف الأمر على الجماعات اليهودية فإن الكنائس المسيحية تعتبر العهد القديم جزءا من كتابها المقدس، وبينما كان المسيحيون حتى القرن العاشر يستخدمون الترجمة السبعينية اليونانية، فهم قد تحولوا عنها — باستثناء الكنيسة اليونانية — إلى ترجمة النسخة العبرية منذ ذلك التاريخ. كما ان المعلومات التي وصلتنا عن السيد المسيح جاءت كلها من كتابات دُوِّنت بعد نصف قرن، على الأقل، من الوقت الذي حددته لوفاته، وليس هناك نص واحد جاء فيه ذكر المسيح في المصادر التاريخية المعاصرة للفترة التي قيل إنه عاش فيها.

وعلى هذا فإن العثور على كتابات قديمة، سابقة أو معاصرة للفترة التي عاش فيها المسيح، وفي منطقة لا تبعد إلا بضعة كيلومترات عن القدس التي قيل انه مات فيها، انعش الآمال في وجود معلومات تحل هذه الألغاز وتبين حقيقة الأمر في تاريخ مؤسس

الديانة المسيحية، وعلاقته بالجماعات اليهودية التي كانت موجودة في عصره. وزاد الحماس عند نشر الأجزاء الأولى من المخطوطات في الستينات، وتبين أنها تنتمي إلى جماعة يهودية / مسيحية تعرف باسم العيسويين، وأنه كان لهم معلّم يشبه في صفاته عيسى المسيح. إلا أن الحماس الذي ساد بين الباحثين والقراء قابله قلق وخشية من جانب بعض السلطات الدينية، وما يتبعها من هيئات أكاديمية. وليست دواعي هذا القلق تتعلق بالخوف على أن المعلومات المكتشفة قد تؤدي إلى إضعاف إيمان المؤمنين، فهذه كتابات دينية قديمة، وإنما ساد القلق بسبب ما قد تكشفه هذه النصوص من تغيير وتبديل ـــ ليس فقط في حقائق التاريخ القديم ـــ وإنما في تفسير النصوص الدينية وفي مغزاها كذلك. ولهذا فمنذ أن استولت السلطات الإسرائيلية على القدس القديمة بعد حرب يونيو (حزيران) ١٩٦٧، توقف نشر المخطوطات تماما. ولا يزال ما يزيد عن نصفها غير منشور، بل إن السلطات الإسرائيلية، في محاولة لاسكات الأصوات التي ارتفعت في العالم تطالبها بنشر المخطوطات، عمدت إلى تمثيلية مرسومة للتخلص من هذا الإلحاح. فارسلت سلطات الآثار الإسرائيلية صوراً فوتوغرافية، زعمت أنها تمثل كل المخطوطات الموجودة في متحف روكفللر بالقدس، إلى جامعة اكسفورد البريطانية وكذلك إلى إحدى الجامعات الأمريكية (التي باعتها إلى مكتبة هانتينجتون بكاليفورنيا) وتظاهرت السلطات الإسرائيلية بالغضب والاحتجاج عندما قامت هذه الجامعات بترجمة ونشر الصور التي في حوزتها، بدون تخويل من إسرائيل.

وكان الهدف من هذه التمثيلية الإيحاء بأن كل نصوص المخطوطات قد تمت ترجمتها ونشرها، ولم يعد هناك مبرر لمطالبة السلطات الإسرائيلية بالكشف عما في حوزتها من كتابات. ومن المؤكد أن هناك بعض النصوص والقصاصات التي لم تترجم بعد، والتي يراد لها النسيان مرة أخرى. إلا أن الجزء الذي نشر في البداية يكفي ليبين لنا طبيعة الأسرار التي يحرص البعض على عدم الكشف عنها.

تم العثور على الكهف الأول في ربيع ١٩٤٧ بالقرب من البحر الميت، وكانت فلسطين تحت الحماية البريطانية والقدس والضفة الغربية في أيدي الفلسطينيين. عثر عليه مصادفة صبي من قبيلة التعامرة التي تتجول في المنطقة بين بيت لحم والبحر الميت، ووجد بداخله عدة أوعية فخارية بها لفافات تحتوي على سبع مخطوطات. وسرعان ما ظهرت هذه المخطوطات معروضة للبيع عند تاجر للأنتيكات في بيت لحم عرف باسم كاندو، الذي باعها لحساب التعامرة. فقام مار أثاناسيوس صموئيل ـــ

رئيس دير سانت مارك للكاثوليك السوريين ـ بشراء أربع مخطوطات بينما اشترى الأستاذ إليعازر سوكينوك الثلاث الباقية لحساب الجامعة العبرية بالقدس. ولما قامت الحرب العربية الإسرائيلية على أثر إعلان قيام دولة إسرائيل عام ١٩٤٨ خشي أثاناسيوس على مصير هذه المخطوطات، فأرسلها إلى الولايات المتحدة للبيع فاشتراها إيجال يادين ـ ابن الأستاذ سوكينوك ـ لحساب الجامعة العبرية كذلك. وهكذا أصبحت المخطوطات السبع الأولى في حوزة الجامعة العبرية.

وعند إعلان الهدنة بين الدول العربية وإسرائيل في مطلع ١٩٤٩، أصبحت منطقة قمران ــ والثلث الشمالي من منطقة البحر الميت ــ تحت سيطرة المملكة الأردنية الهاشمية. وبدأ الأردنيون ينظمون عمليات أثرية للبحث عن المخطوطات، وبالرغم من تكتم التعامرة على موقع الكهف استطاع الجيش الأردني العثور عليه بعد اسابيع. ثم نظمت السلطات الأردنية عمليات تنقيب داخل الكهف نفسه، باشراف هاردنج البريطاني، الذي كان مدير الآثار الأردنية حينذاك، والكاهن الفرنسي رولاند دي فو، مدير مدرسة (الإيكول بيليك دي فرانس) بالقدس الشرقية. وعثر على مئات القصاصات الصغيرة داخل الكهف، إلى جانب قطع من الفخار والقماش والخشب ساعدتهم على تحديد تاريخ المخطوطات. إلا أن عمليات التنقيب لم تبدأ في بقايا خربة قمران وهي المنطقة السكنية التي تقع أسفل الكهف ــ إلا في خريف ١٩٥١، حيث تم العثور على اطلال القرية القديمة التي عاش بها العيسويون، وبها بقايا رومانية من بينها عملات نقدية يشير تاريخها إلى أن هذا الموقع كان مسكونا إلى أن قامت حركة التمرد اليهودية ضد الرومان بين عامي ٦٦ و ٧٠ ميلادية، والتي انتهت بحرق القدس وطرد اليهود من المنطقة المحيطة بها.

وطمعاً في الكسب، انتشر التعامرة في كل وديان البحر الميت بحثاً عن مخطوطات أخرى في الكهوف العديدة في هذه المنطقة الجبلية، وفي شتاء ١٩٥٢ استطاعوا العثور على كهف به كثير من المخطوطات التي تحللت إلى قصاصات صغيرة باعوها إلى السلطات الأردنية. واتبعت سلطات الآثار الأردنية نفس الطريقة التي اتبعها التعامرة في البحث داخل كهوف البحر الميت عن المخطوطات، وانتهى الأمر عام ١٩٥٦ باكتشاف مجموعة من أحد عشر كهفاً في منطقة قمران تم ترقيمها، وبينما عثر التعامرة على أربعة كهوف ١، و٤، و٦، و١١، فإن الآثار الأردنية عثرت على السبعة الباقية.

وتم نشر محتويات المخطوطات السبعة التي عثر عليها في الكهف الأول، فقد سمح

المار آثاناسيوس للمدرسة الأمريكية للدراسات الشرقية في القدس بتصوير ونشر المخطوطات الأربع التي في حوزته، وبالفعل قامت المدرسة أولا بنشر صور لهذه المخطوطات بين ١٩٥٠ و١٩٥١، حتى تسمح للباحثين بالإطلاع عليها، ثم تبعت هذا بنشر ترجمة انجليزية لها. كما قامت الجامعة العبرية بنشر صور المخطوطات الثلاث التي حصلت عليها مع ترجمة لها عام ١٩٥٤.

وأصبح الأب دي فو الكاثوليكي الفرنسي هو المسئول عن عمليات البحث الأردنية، وبالتالي عن عمليات اعداد وترجمة ونشر النصوص التي تم العثور عليها، فاوكل قصاصات الكهف رقم ١ إلى (دومينيك بارثيلمي) و (ميليك) اللذين يعملان معه في الإيكول بيبليك دي فرانس، وبالفعل تم إعداد ونشر الترجمة الانجليزية لها عن جامعة اكسفورد عام ١٩٥٥. إلا أن الحكومة الأردنية قامت عام ١٩٥٣ بتشكيل لجنة عالمية من ثمانية باحثين ـــ ليس بينهم عربي واحد ـــ لتولي إعداد المخطوطات ونشرها، برئاسة دي فو. وحضر جميعهم من فرنسا وانجلترا والولايات المتحدة والمانيا إلى القدس للعمل. واجه أعضاء اللجنة مهمة عسيرة في محاولتهم ترتيب عشرات الآلاف من القصاصات الصغيرة من الجلد أو أوراق البردي، ثم تجميع هذه القصاصات على أساس التشابه في نوع الخط أو موضوع الكتابة والتعرف على مكان كل منها في المخطوطة بشكلها الأول قبل تمزّقها. ولأن معظم القصاصات متسخة ومنحنية كان عليهم أولا تنظيفها بعناية، ثم حفظها بين لوحين من الزجاج الشفاف لتسويتها وحمايتها.

وتمكن الباحثون من تقسيم آلاف القصاصات إلى مايزيد على خمسمائة قسم، كل منها يمثل مخطوطة أصلية، أي أنهم توصلوا إلى أن عدد المخطوطات المحفوظة بالكهف رقم ٤ كان ٥٠٠. وبالطبع فإن هذا العمل يحتاج إلى صبر ودقة في العمل ووقت طويل، خاصة وأن عدد الباحثين العاملين كان صغيراً. ثم قامت الحكومة الأردنية عام ١٩٦١ بإعلان تأميم ملكية المخطوطات. وتم عام ١٩٦١ نشر ترجمة المخطوطات التي عثر عليها في كهوف مربعات (جنوبي منطقة قمران) التي ترجمها ميليك، في الجزء الثاني، وتضمن الجزء الثالث الذي نشر عام ١٩٦٢ مخطوطات كهوف منطقة مينور، والجزء الرابع المزامير التي وجدت في الكهف رقم ١١ عام ١٩٦٥، والجزء الخامس القصاصات التي عثر عليها في الكهف رقم ٤ عام ١٩٦٨.

وكان بدو التعامرة عثروا في أكتوبر ١٩٥١ على مخطوطات مكتوبة بالعبرية وباليونانية في أحد الكهوف بوادي مربعات وعرضوها على السلطات الأردنية لشرائها.

وكذلك عثر التعامرة في نفس الفترة على بعض الكتابات المسيحية في منطقة الميرد القريبة من قمران، من بينها كتابات سريانية وعربية.

عندما سقطت الضفة الغربية تحت السيطرة الإسرائيلية في يونيو عام ١٩٦٧، أصبح متحف القدس الذي وضعت به المخطوطات في حوزة إسرائيل، عدا المخطوطة النحاسية التي كانت في عمان، واستطاع دي فو الإتفاق مع الإسرائيليين على استمرار اللجنة في عملها فيما يتعلق بقصاصات الكهف رقم ٤. إلا أنه منذ وقوع متحف القدس في أيدي السلطات الإسرائيلية لم يتم نشر سوى عدد قليل من المخطوطات التي تم تجميعها من الكهف الرابع، وأذاع جون الليجرو أخباراً تفيد بأن الجماعة الكاثوليكية المسيطرة على لجنة المخطوطات، تتعمد اخفاء ما تتضمنه بعض النصوص نظراً لمخالفتها لتعاليم الكنيسة. ذلك أن غالبية النصوص التي عثر عليها في الكهوف الأخرى كانت عبارة عن نسخ من كتب العهد القديم، ليس بها معلومات هامة عن جماعة قمران ومعتقداتها الخاصة، بينما تتضمن مخطوطات الكهف ٤ العديد من كتابات الجماعة نفسها، وطريقة تفسيرها للكتب التوراتية. إلا أن سلوك الليجرو نفسه كان غريباً إذ أنه نشر كتابا عام ١٩٧٠ بعنوان «الفطر المقدس والصليب» ذهب فيه إلى أن المسيح كان شخصية غير تاريخية وان الجماعة المسيحية الأولى كانت تستخدم الفطر المخدر في طقوسها الدينية. وبالطبع فإن أحداً لم يأخذ رواياته على محمل الجد.

عند محاولة التعرف على الجماعة التي كانت تسكن في بريّة قمران بين منتصف القرن الثاني قبل الميلاد ومنتصف القرن الميلادي الأول، والتي تركت كتاباتها مخبأة في كهوف قمران، نجد أن هناك اتفاقا بين الباحثين على أن ما عثر عليه في كهوف قمران ماهو إلا مكتبة الجماعة القديمة المعروفة بالعيسويين، إلا أن الخلاف لا يزال قائماً حول الأصل المحلي لهذه الكلمة ومغزاها. يقول أشهر الآراء بأن هذا الاسم مشتق عن الكلمة الارامية القديمة (عيسي) اي طبيب. وأنا اختلف مع هذا الرأي، من الناحية اللغوية وكذلك لأن هؤلاء النساك ـ وإن كانوا يستخدمون العقاقير لعلاج بعض الأمراض المستعصية ـ ليس هناك في الكتابات القديمة، التي تحدثت عنهم، ما يفيد بأنهم اشتهروا بممارسة الطب.

ورد أسم الجماعة مكتوباً باللغة اليونانية في كتابات فيلو جودياس وجوزيفوس وبليني الكبير، على أنه «إيسينوي» أو «إيسايوس» واسم الشخص الذي ينتمي اليها «ايساوي» الذي احتار الباحثون في معرفة أصله: فالمشكلة الرئيسية التي تواجه

الباحثين في هذه الحالة أنه بالرغم من أن اسم هذه الجماعة مصدره كلمة محلية، إلا أنه لم يتم العثور عليه مكتوباً إلا باللغة اليونانية، ويكون علينا محاولة التعرف على الأصل المفقود. فاقترح الباحثون العديد من الكلمات العبرية والآرامية وليس هناك اتفاق بينهم على كلمة بعينها للدلالة على هذه الطائفة التي كانت موجودة بفلسطين، إلا أن هناك اشارات قوية إلى علاقة هذه الجماعة بتلاميذ النبي أشعيا الذين انفصلوا عن يهود المعبد وراحوا يمهدون لمجيء المخلِّص في آخر الأيام. واسم أشعيا بالعبرية «يشع يا» مثل «يشوع» و «يسوع» ومعنى كل هذه الأسماء واحد هو «خلاص الرب». واسم يسوع باليونانية ـــ والذي هو عيسى بالعربية ـــ يكتب «إيسو». ويبدو أن اسم أشعيا نفسه قد أطلق على عدة تلاميذ للنبي أشعيا. وعلى كل حال فمن المؤكد أن جماعة قمران كانت لها علاقة قوية بالنبي أشعيا، حيث تم العثور في مكتبتها على نسخ عديدة من كتاباته، وكانوا يفسرونها تفسيرهم الخاص الذي احتفظوا به، سرا، وخاصة الأجزاء المتعلقة بـ «أناشيد عبد الرب» و «مولد عمانوئيل»، وهي نفس النصوص التي اعتمد عليها كتبة الأناجيل في الاشارة إلى ميلاد عيسى المسيح، والتي وصفوها بأنها كانت نبوءات بما سيحدث للمعلّم.

ولن يكون أمر التعرف على الكلمة الأصلية بهذه الصعوبة لو تذكرنا أن حرف العين موجود في اللغة العربية (وجميع اللغات السامية الاخرى) يتحول إلى ألف في اللغات الأوربية، ومن بينها اليونانية. فكلمة «عرب» تتحول إلى «أرب» وكلمة «عمر» تتحول إلى أومر»، وكلمة «عيسى» تتحول إلى «إيسا». ونحن لو استبدلنا الألف بالعين في الكلمة اليونانية، لوجدنا أن الكلمة الأصلية التي تدل على عضو الجماعة تصبح «عيساوي» ويكون اسم الجماعة في اعتقادي «عيسويين».

وبحسب ما جاء في كتاب بليني عن التاريخ الطبيعي فإن هذه الجماعة كانت تسكن بين مدينة أريحا في وادي الأردن شمالاً، ومدينة عين جدي على البحر الميت جنوباً، وهو نفس المكان الذي يضم خربة قمران. وهم ينقسمون إلى قسمين، قسم يعيش مثل الرهبان، لايتزوج، وقسم آخر يتزوج. ولكنهم جميعاً يحاولون الابتعاد عن الشهوات وملذات الحياة، ويتنازلون عن أموالهم وأملاكهم للجماعة، فليس بينهم غني ولا فقير إذ يشتركون جميعاً في ملكيتهم الجماعية. وهم يعتبرون أن الوجود المادي للإنسان والمتمثل في الجسد، هو وجود مؤقت فان، وإنما الحياة الحقة لديهم هي الحياة الروحية.. ولذلك فهم لا يخشون الموت بل يرحبون به. ويرتدي العيسويون رداء

أبيض.. وهم يستيقظون مبكراً فيؤدون الصلاة عند الفجر، ثم يذهبون إلى أعمالهم التي هي عادةتتعلق بفلاحة الأرض. وكانوا يقومون بصلاتهم الثانية عند غروب الشمس قبل العشاء الذي يتكون من الخبز ونوع واحد من الخضراوات.

ويعتبر التطهر بالماء قبل الصلاة من أهم عاداتهم. لم يقبلوا النساء أعضاء في طائفتهم وكان الراغب في الانضمام إليهم يوضع أولا تحت الاختبار مدة عام، فإن ثبت صلاحه سمح له بعامين آخرين يشارك أثناءهما في بعض الطقوس فقط، ولا يصبح عضواً كاملاإلا بعد ثلاث سنوات. كانوا يقضون معظم الليل في قراءة كتبهم المقدسة التي تتضمن إلى جانب التوراة كتب الأنبياء، خاصة سفر أشعيا. وهم يفسرون النصوص تفسيراً مجازياً وليس حرفياً، ولذلك لا يفهم مغزى كلامهم إلا من اطلع على أسرار تعاليمهم. كما أنهم يحرمون القَسم على اعضائهم إلا قسم واحد عند قبولهم في الجماعة، وهو على عدم البوح بأسرارهم. ومن أهمها أسماء الملائكة التي كان عليهم حفظها. ولم يكن باقي اليهود يعتقدون بوجود الملائكة. كما اعتقد العيسويون بخلود الروح وقيامة الأموات. ولهذا يميل الكثير من الباحثين الآن إلى اعتبارهم من «اليهود / المسيحيين».

كانت معظم الخلافات بين اليهود والمسيحيين الأوائل تتعلق بتفسير ماورد في كتب العهد القديم، بخصوص المسيح المنتظر. وبينما اعتبر المسيحيون أن ماورد في كتب الانبياء فيما يتعلق بعبد الرب وابن الإنسان وعمانوئيل والنبي خليفة موسى، إنما كانت كلها تتحدث عن عيسى المسيح وتبشير بقدومه، قال اليهود إنها كانت تتعلق بشعب إسرائيل وخلاصه، وإن مسيحهم مازال منتظراً. وكانت هناك بعض النصوص التي وردت بالترجمة اليونانية لكتب العهد القديم تختلف عما هو موجود بالكتب العبرية التي لدى اليهود، فأيهما أصدق؟ بل إن أسفارا بإكملها وجدت في النص اليوناني للعهد القديم ولم توجد بالنص العبري، وهي تتضمن تفاصيل هامة فيما يتعلق بمجيء المخلص. كما وأن الشخصية التاريخية للسيد المسيح لا يعرف اليهود عنها أي شيء. فبخلاف ما ورد في كتب العهد الجديد (الانجيل) والذي يتعلق بمولد المسيح في بيت لحم وحياته في الناصرة وموته في القدس، فإن أحدا من المعاصرين لبداية القرن الميلادي الأول — سواء من اليهود أو الرومان — لم يذكر عنه شيئاً.وتبين أن الفقرة التي وردت عنه في كتابات جوزيفوس إنما هي إضافة لاحقة قام بها أحد الناسخين المسيحيين. لذلك فإن العثور على مخطوطات قمران التي كتبت بين القرن الثاني السابق للميلاد ومنتصف

القرن الميلادي الأول، أثارت الأمل في وجود معلومات بها تحل هذه الألغاز وتفسر الأحداث تفسيراً تاريخياً. بل إن البعض كان يأمل العثور على نسخ قديمة من أناجيل العهد الجديد في قمران، أو على إشارة تتعلق بالحواريين.

ولكن الذي حدث كان يختلف تماما عن هذا كله، فلا ذكر للسيد المسيح حياً في هذه الفترة، وإنما هناك جماعة شبه مسيحية تعيش في قمران، على بعد عدة أميال من القدس، وهي تنتظر عودة معلّمها الذي سبق له أن مات، وتعتبر كهنة المعبد اليهودي ممثلين للشيطان على الأرض، ومسئولين عن موت معلمهم الصدّيق. كما أن الكتب التي قبلها المسيحيون ورفضها اليهود، وجدت جميعها ضمن مكتبة العيسويين في كهوف قمران.

بلغت الكتب التوراتية في مكتبة قمران حوالي مائتي كتاب، فقد عثر على عدد كبير من أسفار كتب العهد القديم ـ باستثناء كتاب استير ـ وإن كان بعضها لم يبق منه إلا قصاصات صغيرة. وأكثر نسخ وجدت لكتاب واحد كانت للمزامير التي بلغ عددها ٢٧ نسخة وسفر التثنية الذي وجدت منه ٢٥ نسخة، ثم سفر أشعيا الذي وجدت منه ١٨ نسخة.

أما الكتابات التي لا تدخل في قانون العهد القديم فهي نوعان، نوع يسمى «أبوكريفا» مثل سفر توبيت وسفر حكمة بن سيرا والجزء المكتوب باليونانية من رسالة إرميا، وهذا النوع وإن لم يدخل في قانون النص العبري المازوري إلا أنه موجود في النص اليوناني السبعيني. والنوع الآخر اسفار مكتوبة بين القرن الثاني السابق للميلاد ونهاية القرن الميلادي الأول، رفض الأحبار اعتبارها بين كتبهم المقدسة وأصبحت تعرف باسم «بسوديبجرافا». إلا أن الترجمة اليونانية لهذه الكتب حفظها المسيحيون ـ أحيانا بالسريانية أو الأرمنية أو الحبشية ـ الذين اعتبروها كتباً مقدسة. وقد تم العثور على بعض هذه الكتب في مخطوطات قمران ـ مثل عهود الأسباط الاثني عشر وسفر إينوخ ـ مما يبين أن جماعة العيسويين كانت تدخلها ضمن مكتبتها.

وجدت كذلك كتابات تفسيرية تشرح الكتب المقدسة بطريقة الجماعة، بالمجاز وليس على أساس حرفية النص كما كان الكهنة يفعلون. وجد عدد من الكتب يحتوي على تفسير لأسفار العهد القديم، يختلف أحياناً عن التفسيرات التي نجدها في كتب التلمود. فمثلاً في كتاب تفسير سفر التكوين، وهو أول كتب العهد القديم، نجد أن القصة التي جاءت في التوراة بشأن زواج فرعون من سارة، قد جاء تفسيرها على أن الملك المصري

هو الذي خطف سارة فأصابه المرض حتى اضطر إلى ارجاعها لزوجها ابراهيم: فالقصة تقول: «عندما سمع حاركنوش (الأمير المصري) كلام لوط (ابن اخي إبراهيم)، ذهب إلى الملك وقال له: كل هذه الكوارث وهذا الكرب، الذي أصاب سيدي الملك، كان بسبب سارة زوجة إبراهيم. اترك سارة ترجع إلى زوجها، وسوف تختفي هذه الكوارث والقروح عنك».

والى جانب الكتب الدينية فقد عثر في قمران على كتابات تختص بجماعة العيسويين نفسها، مثل «كتاب التلاميذ» و «مخطوطة دمشق» و «مزامير الشكر» و «مخطوطة الحرب».

منذ أن سمح قورش الفارسي لليهود ببناء معبد القدس، وعودة الكهنة من بابل خلال القرن الخامس قبل الميلاد، كانوا يستخدمون في عبادتهم التوراة، وهي الكتب الخمسة الأولى من العهد القديم والتي تحتوى على تعاليم موسى. إلا أنه ظهرت بينهم كتابات أخرى عديدة مثل تلك التي تحكي تاريخ بني إسرائيل بعد موسى، إلى جانب الكتب المنسوبة إلى مجموعة من الانبياء ظهرت بين القرن العاشر والقرن السادس قبل الميلاد، وكتابات الحكمة والمزامير.

وبينما كانت جماعة العيسويين تهتم بجميع هذه الأسفار، وتفسر التوراة على أساس من تعاليم الأنبياء وأشعار المزامير، فإن كهنة المعبد كانوا يحصرون اهتمامهم بالأسفار الخمسة الأولى. وعندما اختفت طائفة الكهنة بعد أن دمر الرومان معبد القدس عام ٧٠ ميلادية، قام الفقهاء من أحبار اليهود ببناء الديانة اليهودية حول التعاليم التلمودية التي قالوا بها لتفسير التوراة، حيث اعتقدوا بوجود توراة شفهية، غير التوراة المكتوبة، وصلتهم نقلاً عن موسى، وفسروا النصوص المكتوبة على أساسها.

وعندما ظهرت الديانة المسيحية، التي اعتمدت في محاجاتها لليهود على ما جاء بكتابات الأنبياء والمزامير، ظهر خلاف بينهم حول الأسفار التي يمكن اعتبارها من بين الكتابات المقدسة. واجتمع عدد من الأحبار عند نهاية القرن الميلادي الأول بمدينة صغيرة اسمها يمنية بالقرب من يافا، وقاموا بمراجعة جميع الكتابات الموجودة لديهم وتقرير ما يمكن أن يدخل منها في ما أصبح يعرف باسم «القانون» ــ أي التي يمكن اعتبارها جزءاً من العهد القديم ــ واستبعدوا الكتابات الاخرى. وعلى هذا الأساس فإن النص العبري الذي تم العثور عليه في نهاية القرن العاشر والذي أصبح أساسا للترجمات الحديثة، يعتمد على هذا القانون الذي تم اختياره وتجميعه عند نهاية القرن

الأول للميلاد.

إلا أن الملك بطليموس الثاني ـ الذي أنشأ مكتبة الاسكندرية ـ كان قد استحضر مجموعة من كتبة القدس الى الاسكندرية خلال القرن الثالث قبل الميلاد، وجلبوا معهم كتبهم وتمت ترجمتها إلى اللغة اليونانية، وهي الترجمة التي تعرف باسم النص السبعيني. ولأن الكنيسة المسيحية استخدمت اللغة اليونانية منذ نشأتها، فقد أصبح هذا النص السبعيني لكتب العهد القديم، هو المستخدم لدى جميع الكنائس المسيحية حتى القرون الوسطى. إلا أنه بعد ترجمة النص العبري الى اللاتينية واللغات الاخرى في القرن السادس عشر، تبين وجود عدة فوارق بينه وبين النص السبعيني، مثل وجود اجزاء ناقصة أو زائدة، وكذلك وجود بعض الاختلافات في الكلام نفسه وفي أسماء الاعلام والتواريخ كذلك. كما أن هناك أسفاراً في المجموعة السبعينية اليونانية لكتب العهد القديم، ليست موجودة في القانون العبري المازوري، أصبحت الآن تعتبر من الكتب الدينية المشكوك في صحتها والتي يطلق عليها اسم «أبوكريفا». وظل الخلاف قائماً بين دارسي التوراة، فبينما يصر بعضهم على صحة أحد النصوص وينكر الآخر، يحاول آخرون التوفيق بينهما. ولهذا فعندما تم العثور على مكتبة قمران في أعقاب الحرب العالمية الثانية، توقع الباحثون أن تكون هذه هي فرصتهم لحسم الخلاف.

وأهمية الكتب التي عثر عليها في قمران أنها ترجع، على الأقل، إلى القرن الثاني قبل الميلاد، أي حوالي زمن الترجمة السبعينية اليونانية، وقبل أن يختار أحبار اليهود الكتب التي تدخل القانون، ويقررون اعدام ما عداها.

وكان سفر أشعيا هو أهم ماترجم من مخطوطات قمران ونشر عام ١٩٥٢، ولكنه لم يظهر سوى اختلافات بسيطة عن النص العبري المازوري، يمكن اعتبارها اخطاء إملائية او اختلافاً في طريقة تركيب الجمل. إلا أن الوضع تغير بعد ذلك عندما نشر فرانك موركروس ـ احد الخبراء المسئولين عن ترجمة النصوص ـ جزءاً من سفر صموئيل جاء من الكهف ٤، وتبين أن هناك اختلافا جوهرياً بينه وبين نظيره في النص المازوري، بل ان به فقرة غير موجودة اطلاقاً في النص المازوري. لكن عندما قام بمقارنة هذا النص مع نظيره في الترجمة السبعينية اليونانية، وجده يتفق اتفاقا كاملاً معه. إلا أن فرانك روس عندما قام بترجمة جزء آخر من نفس المخطوط، لاحظ وجود اختلاف فيه ـ ليس فقط مع النص المازوري ـ وإنما مع النص السبعيني كذلك، وإن اتفق مع النص السامري. فهناك جماعة صغيرة من السامريين تعيش في منطقة نابلس، لديها كتابها

المقدس الذي يحتوي على الأسفار الخمسة الأولى فقط من كتب العهد القديم، وتعتقد الجماعة بأن أصله يعود إلى أيام النبي موسى. وهناك اختلافات عديدة بين ماورد في الأسفار السامرية وما جاء في كل من النص العبري المازوري واليوناني السبعيني. ومن بين نقاط الخلاف ذات الدلالة الهامة ما يتعلق منها بالمدة التي قضاها بنو اسرائيل في مصر. فبينما يقول النص العبري بأن بقاءهم في مصر كان لمدة ٤٣٠ سنة، فإن النص السامري (ويتفق معه في هذا النص اليوناني) يجعل هذه المدة تشمل بقاء بني إسرائيل في كنعان وفي مصر، أي الفترة منذ مجيء إبراهيم إلى كنعان إلى خروج موسى إلى سيناء.

إلا أنه تم العثور على رقعةصغيرة في الكهف رقم ٤ بقمران مكتوبة بالعبرية تحتوي على جزء من سفر الخروج، وجد أنها تتفق مع القراءة السامرية في بعض الأجزاء التي تختلف فيها عن النص العبري. وهذا يدل على أن الأسفار السامرية ترجع إلى نص قديم كان موجوداً منذ نشأة هذه الجماعة في القرن الخامس قبل الميلاد، لم يحدث به تغيير.

وهكذا فنحن نجد بين الكتابات التي عثر عليها في كهوف قمران من العهد القديم، ما يتفق منها مع النص العبري المازوري وما يتفق مع النص اليوناني السبعيني وما يتفق مع النص السامري، إلى جانب كتابات أخرى تحتوي على مزيج من هذه النصوص. كل هذا يدل على أنه كان هناك ــ على الأقل ــ أربعة كتابات مختلفة لذات الأسفار التي تدخل ضمن مجموعة العهد القديم، مما دفع بعدد كبير من الباحثين المسيحيين إلى المطالبة بعدم الاقتصار على النص المازوري عند القيام بترجمات جديدة، وإنما باختيار الأصلح والأقرب إلى الصحة من بين النصوص الموجودة.

ونشب الصراع خفياً بين لجنة المخطوطات وبين سلطات الآثار الإسرائيلية منذ سيطرتها على متحف القدس في ١٩٦٧، إلا أن الأمور استمرت على ما كانت عليه لأكثر من عشرين عاما حتى بدأ الصراع المكشوف الذي أدى الى استبعاد السيطرة الكاثوليكية وإحلال سلطة الآثار الإسرائيلية مكانها عام ١٩٩١.

ففي عام ١٩٩١ ظهر في لندن كتاب بعنوان «خداع مخطوطات البحر الميت»، للكاتبين مايكل بيجنت وريتشارد لي، اتهما فيه الفاتيكان صراحة بالتدخل في عملية ترجمة ونشر مخطوطات قمران، ومحاولة اخفاء معلومات وردت بها مخالفة للتعاليم الكاثوليكية. واعتمد المؤلفان في ادلتهما على التأخير الذي زاد على أربعين عاماً في نشر

مخطوطات كهف قمران رقم ٤. فمن بين خمسمائة نص عثر عليها في هذا الكهف لم ينشر إلا حوالي المائة. كما أن لجنة المخطوطات لم تسمح لأحد بالاطلاع على ماتحت يدها منها. وقال المؤلفان بأن الإيكول بيبليك ـــ المسيطرة على أعمال اللجنة ـــ تخضع في عملها لبابا الفاتيكان مباشرة، وأن هذا الولاء يهدد بضياع أي نص قد يتعارض صراحة مع مصلحة الفاتيكان.

ثم بدأت حملة إعلامية كبرى، خاصة في الصحف الأمريكية مثل نيويورك تايمز والواشنطن بوست، تهاجم مجموعة الباحثين المسئولة عن ترجمة ونشر المخطوطات، وتتهمهم بالاشتراك في مؤامرة يحيكها الفاتيكان لمنع نشر بعض ما ورد بنصوص قمران. كما انتشرت عدة شائعات تقول بوجود مؤامرة لاخفاء بعض مخطوطات قمران لأن محتوياتها سيكون لها تأثير سلبي على بعض المعتقدات اليهودية والمسيحية، ولم تكن لجنة المخطوطات تضم بين اعضائها أياً من اليهود أو المسلمين أو المسيحيين التابعين للكنائس الشرقية.

ومع مرور الزمن مات غالبية اعضاء اللجنة الثمانية الأوائل (دي فو وجون الليجرو وباتريك سكيهان) وأصبح جون استروجنيل رئيساً للجماعة على أثر وفاة بيير بينوا عام ١٩٨٧. واستروجنيل أحد الباحثين الغربيين النابغين في دراسة اللغات السامية، انجليزي الأصل ولكنه عمل استاذاً لدراسات العهد القديم بجامعة هارفارد الأمريكية. وكانت العادة عند فقدان أحد اعضاء اللجنة أن يحل مكانه شخص يتم تعيينه، حتى يظل مجموعهم ثمانية. وكان استروجنيل أول من غير هذا النظام عندما سمح بضم عدد من الباحثين اليهود إلى اللجنة التي زاد عددها إلى ٢٠ عضواً بعد ذلك. إلا أن ذلك لم يكن كافياً في نظر الآثار الإسرائيلية التي صارت لها السيطرة على متحف القدس وكل ما فيه من مخطوطات.

ومن العبث محاولة الفصل بين رغبة هيئة الآثار الإسرائيلية في التخلص من جون استروجنيل كرئيس للجنة المخطوطات والاحداث التي تمت بعد ذلك. فقد بدأت حملة منظمة من الدعاية والإعلام تزعمها ثلاثة من الباحثين اليهود، هم روبرت أيزنمان، أستاذ الدراسات الشرقية بجامعة ولاية كاليفورنيا، وجيزا فيرميز، أستاذ دراسات العهد القديم بجامعة اكسفورد، وهيرشل شانكس، رئيس تحرير مجلة بيبليكال آركيولوجي بواشنطن، تتهم استروجنيل بالتآمر لإخفاء أسرار المخطوطات وتطالب بالسماح للجميع بالاطلاع عليها. ثم قام (أمير درورى) مدير هيئة الآثار الإسرائيلية عام

١٩٩٠ بتعيين (إيمانيويل توف) الأستاذ بالجامعة العبرية بالقدس مديراً للجنة المخطوطات إلى جانب جون استروجنيل المدير الأصلي. وبالطبع فإن هذا التصرف لم يرض استروجنيل، الذي يبدو أنه استفز في حديث نشر في جريدة (ها آريتس) اعتبرته السلطات الإسرائيلية «معادياً للسامية». فقد نشرت الجريدة على لسان استروجنيل إنه قال عن اليهودية إنها «ديانة مرعبة» وأنها «هرقاطة» للديانة الصحيحة التي هي المسيحية.

ولا أحد يدري على وجه الدقة ما إذا كان جون استروجنيل قال حقاً هذا الكلام، ولا في أية مناسبة جرى الحديث. كل ما نعرفه أن هذا كان آخر حديث تنشره الصحافة ـ سواء في إسرائيل أو في أي مكان آخر ـ على لسان استروجنيل إذ اختفى بعد ذلك من القدس وظهر في مستشفى بالقرب من جامعة هارفرد، غير مسموح بلقائه. وقيل إن أحد أبنائه حصل على تقرير طبي بإصابة والده بمرض نفسي خطير، استطاع عن طريقه الحصول على أمر من المحكمة بفرض العلاج القسري عليه. كما قامت جامعة هارفرد في نفس الوقت بطرده من عمله كأستاذ بها. وكان هذا هو آخر ما سمعناه عن رئيس لجنة إعداد مخطوطات قمران للنشر، الذي عينته السلطات الأردنية عضواً بها عام ١٩٥٤، وأمضى ٣٥ عاماً من حياته يعمل بها.

وقام أمير دروري باستصدار قرار يفصل استروجنيل من رئاسة اللجنة وتثبيت إيمانيويل توف في منصبه عام ١٩٩١. ثم أضافت السلطات الإسرائيلية عددا آخر من الباحثين الإسرائيليين إلى لجنة المخطوطات حتى أصبح مجموعهم خمسين عضواً غالبيتهم العظمى من الإسرائيليين.

وفي خريف عام ١٩٩١ أعلنت مكتبة هانتينجتون بكاليفورنيا، أن لديها صوراً فوتوغرافية لجميع مخطوطات قمران، وسوف تسمح لكل من يرغب من الباحثين بالإطلاع عليها. وقالت جامعة أكسفورد نفس الشيء. ولا ندري كيف ولا متى حصلت هذه الهيئات على هذه الصور، وكل ما أذيع هو أن السلطات الإسرائيلية كانت أرسلت هذه النسخ المصورة لحفظها مع عدم السماح بالاطلاع عليها إلا بتصريح منها.

وقام إيزنمان في الولايات المتحدة بنشر ترجمة هذه الصور كما قام فيرميز في بريطانيا بنشر الصور، وأعلن الجميع أن المشكلة قد أنتهت وأن كل المخطوطات قد تم نشرها. وبعد تمثيلية غير محبوكة تظاهرت فيها سلطات الآثار الإسرائيلية بعدم موافقتها على النشر وعزمها على اللجوء الى القضاء لإيقافه، سرعان ما أعلنت عدم

اعتراضها على هذا النشر. والغريب في الأمر أن نفس الأصوات التي كانت تطالب بالسماح للباحثين بالإطلاع على المخطوطات، المحفوظة بمتحف روكفيللر بالقدس، هي التي اعلنت الآن رضاءها على ما تم، والاكتفاء بما نشرته مكتبة هانتينجتون وجامعة اكسفورد.

ماهو الدليل على أن ما تم نشره قد أتى كله من قمران، وماهو الدليل أن ما نشر هو كل ما كان موجوداً في المتحف؟ فحتى الآن لم تصدر الهيئة المكلفة رسمياً باعداد المخطوطات للنشر بيانا بمجمل محتويات الكهف رقم ٤ ولا أية تفاصيل أخرى تؤكد أو تنفي صحة ما تم نشره في بريطانيا والولايات المتحدة.

ولا تزال مخطوطات البحر الميت تثير خلافات حادة بين الباحثين، رغم مرور ٤٩ عاماً على اكتشافها. فقد صدر مؤخراً كتاب بعنوان «من كتب مخطوطات البحر الميت؟» يعارض فيه البروفسور نورمان جلوب ــ من جامعة شيكاغو ــ الفكرة السائدة عن أصل مخطوطات منطقة قمران، والتي تنسبها إلى جماعة العيسويين المنشقة عن كهنة المعبد. وبدلاً عن ذلك فإن الأستاذ نورمان يصر على أن مخطوطات قمران ماهي إلا مكتبة كهنة معبد القدس، قاموا بإخفائها عندما أدركوا أن هجوم الجيش الروماني على المعبد قد أصبح وشيكاً. وليس هذا الكتاب هو أول محاولة لانكار نسبة مكتبة قمران إلى جماعة العيسويين وارجاعه إلى خصومها من الكهنة تارة وجماعة (الماساد) وجماعة (حماس) اليهودية المتطرفة تارة أخرى. فقد تم نشر عدد من الكتب والمقالات، في الولايات المتحدة خاصة، منذ أن خضعت المخطوطات لسلطة الاحتلال الإسرائيلية في القدس عام ١٩٦٧، تحاول اخفاء الدلالة الحقيقية لمخطوطات قمران وتغيير المفهوم الذي ذاع عنها بعد نشر ترجمة المجموعة الأولى من النصوص. ولاشك في أن هذه المحاولات ترجع إلى اعتبارات سياسية في أصلها، وإن اتخذت طابع النقاش الأكاديمي، ذلك أن هذه المكتبة العبرية التي عثر عليها عشية تأسيس دولة اسرائيل الحديثة، تحتوي على كتابات تصف كهنة دولة يهودا ــ والذين كانوا هم أيضاً حكامها ــ بأنهم كانوا يمثلون الشيطان على الأرض وأعداء للرب الذي سيعاقبهم في آخر الأيام.

ضرورة الكف عن التهديد بالأسلحة الذرية

د. محمد عبد اللطيف مطلب

بعد انهيار الأنظمة الأشتراكية في شرق أوربا ووسطها، واختفاء خطر الصدام المسلح بين الشرق والغرب، ذهب بعض العاملين في حركة السلم الى الاعتقاد بزوال خطر الأسلحة الذرية (النووية) رغم وجود ٤٨٠٠٠ رأس نووي على أرضنا قابل للإنفجار. وهذه تتجاوز في قوة تدميرها ما دمرته قنبلة هيروشيما بستة ملايين مرة.

وفي الأشهر الأخيرة تزايد النقاش حول الأسلحة النووية في الأوساط السياسية والشعبية، وساهم في ذلك سلسلة تجارب الأسلحة النووية التي اجرتها الصين وفرنسا، مع ماتبع ذلك من احتجاج ضد ما يصاحب تلك التفجيرات من تأثير على البيئة التي تحصل فيها تلك التفجيرات. وكردّ فعل على تلك التفجيرات نشأت الأفكار التي ذهبت الى وجوب تشكيل مناطق خالية من السلاح الذري؛ وقد تحقق ذلك فعلاً بالاتفاق على جعل قارة افريقيا بأجمعها خالية من السلاح الذري، وتطبيق نفس الفكرة على البلدان الواقعة على المحيط الهادي.

تنطوي «اتفاقية عدم انتشار حيازة الأسلحة الذرية» على بعض النقاط المريبة التي لايمكن السكوت عنها؛ أهمها:

ــ عدم تمسك الدول الذرية بالتزامها بنزع السلاح الذري كلياً، كما تنصّ عليه الاتفاقية.

ــ اتصاف تلك الاتفاقية بالتحيّز الى جهة معينة : فهي تسمح للدول الذرية بالابقاء على ما تحوز من اسلحة ذرية مدة طويلة لم تحددها؛ كما تسمح لمجموعة اخرى من الدول لأن

تحوز على التكنولوجيا التي تمكّنها من صنع الأسلحة الذرية (كاليابان والمانيا والأرجنتين والبرازيل). أما الدول غير الذرية فما عليها تبعاً لذلك الاّ أن تخضع للدول الذرية!

ـــ النزاع حول الدول الذرية غير الرسمية (اسرائيل، الباكستان، الهند)... لهذا فهذه الاتفاقية بوضعها الراهن عاجزة عن منع توسيع حيازة الأسلحة الذرية لدول اخرى غير معترف بحيازتها لتلك الأسلحة.

وهناك دلائل عديدة تشير إلى أن حيازة الأسلحة الذرية من جانب احدى الدول تشجعها على ممارسة سياسة القوة تجاه خصومها ومن الأمثلة الملموسة على ذلك: سياسة حكومة اسرائيل تجاه العرب داخل حدودها، وتجاه الدول العربية المحيطة بها.

ـــ استراتيجية حلف شمال الأطلسي (الناتو) الجديدة تسمح باستخدام الأسلحة الذرية (ومنها ما يسمى بالأسلحة النووية الصغرى mini nukes) ضد العالم الثالث، وتمنع في نفس الوقت نشر الأسلحة الذرية في تلك الدول.

ـــ السماح لدول اوربا الغربية لأن تحوز على «دعامة ذرية اوربية».

ـــ التسلح الذري «النوعي» يستمر حتى في حالة نزع السلاح «الكمي».

ـــ لقد طورت روسيا جيلاً جديداً من أحدث الصواريخ بعيدة المدى.

ـــ الولايات المتحدة الأمريكية تطور أسلحة ذرية صغيرة يسيرة الاستعمال وتستمر في تطوير اسلحة بعيدة المدى يحملها الهواء.

ـــ بريطانيا تبدأ بتشغيل غواصات ذرية جديدة.

ـــ فرنسا تمنح تعهداً بتطوير صاروخ جديد.

كل هذا يدل على أن الأسلحة الذرية جزء من الذخيرة العسكرية لدى الدول الكبرى.

ومن المعروف أن من يمتلك تكنولوجيا ذرية مدنية، يستطيع مبدأياً تطوير القنابل الذرية.

أحد الواجبات الكبرى الملقاة على حركة السلام هو الحفاظ على العالم خالياً من الأسلحة الذرية. ومما يشجعنا على المضيّ في هذا الطريق هو ان امكانيات التخلص من تلك الأسلحة اصبحت اقوى:

ـــ فالأكثرية الساحقة من دول الجنوب والكثير من الدول الصغرى اصبحت تطالب بالتخلص من الأسلحة الذرية. وفي هيئة الأمم المتحدة تؤيد الأكثرية هذا المطلب بشكل واضح.

ـ الأتفاقيات الجديدة حول تشكيل مناطق خالية من الأسلحة الذرية (افريقيا، المحيط الهادي) تبيّن الطريق للوصول إلى ذلك الهدف.

ـ هناك اتفاق عالمي بين المنظمات الشعبية (اللاحكومية)، وعددها يربو على ٢٠٠ منظمة (منها اتحاد العلماء العالمي، واتحاد الأطباء لدرء الحرب النووية...) من اجل أن تجد أفكار السلم الانسانية امكانية لها للتحقق عملياً، والتخلص من الأسلحة النووية والغائها كسلاح.

لكل ذلك يجب التوجه إلى الجماهير لكي تتبنّى هذه الأفكار باقتناع راسخ. وبدون ذلك لايمكن تحقيق تلك الأفكار التي تجعل مصلحة البشرية (بقاءها وسعادتها وتطورها بسلام) فوق أية مصلحة أخرى.

إصـــــــدارات وردتـــــــــنـــــــا

جمعة كنجي : ذلك المسافر ، قصص ، دار بترا ، دمشق .

جواد الزلفي : عناق الأعشاب ، مجموعة شعرية ، دار آدابا ، هولندا .

سالمة صالح : شجرة المغفرة ، قصص ، دار المدى ، دمشق .

سلام عبود : أمير الأقحوان ، رواية ، مركز الحرف العربي ، السويد .

صلاح الحمداني : أقصى النهارات ، مجموعة شعرية ، دار المدى .

زهير شليبة : غائب طعمة فرمان ، دراسة مقارنة في الرواية ، دار الكنوز الأدبية ، بيروت .

عبد اللطيف اطميش : جمرة على حافة القلب ، مجموعة شعرية ، دار سعاد الصباح ، القاهرة .

ياسين النصير : المساحة المختفية ، دراسات في الحكاية الشعبية العربية ، المركز الثقافي العربي ، بيروت .

«تأملات إسلامية حول المرأة»

عرض/ابراهيم معروف

لفترة طويلة، تكرس لدينا، في مجالات التفكير الاجتماعي والابداعي، إنطباع أو إفتراض لم يسعنا مناقشته مع أنفسنا بشكل جدي، ذلكم الافتراض هو: هل أن مسألة تحرير المرأة أمر مقترن بالطرف العلماني من المفكرين وممثلي الحركات الاجتماعية دون سواهم؟ وبتحديد أدق، كنا سلّمنا تقريباً، أن مصطلح التقدمية، كشعار، أرتبط بالعلمانيين من المفكرين دون رجال الدين.

بين يديّ كتاب فريد يتصدى لهذا الافتراض، كتاب لرجل دين ومفكر شمولي البحث والاطلاع، يأخذ بالتشريع ويتفاعل بوعي مع متطلبات العصر ومشاكله الحديثة، كتاب لرجل يأخذ بالجديد برفق وتأمل ليعيد قراءة القديم دون التلاعب بجوهره أو المنافقة بالمضمون، كتاب يسترسل بهدوء وثقة ليناقش ويثير فينا فضول التساؤلات التي ما انفكت تستجلي الموقف الانساني الصحيح لطبيعة «حركية المرأة» وموقعها من المجتمع كما يفهمها الاسلام، كتاب لا يقدم نظرة الاسلام للمرأة فحسب، بل يقدم أيضاً فكر صاحبه السيد محمد حسين فضل الله بكتابه «تاملات أسلامية حول المرأة».

الكتاب قديم وحديث؛ قديمٌ إذ أن بين يديّ طبعته الخامسة، فيما قدمت «دار الملاك» طبعته الأولى عام ١٩٩٢. وهو جديدٌ لمعاصرة موضوعاته لجمهور واسع من المسلمين، والشرقيين في اوربا والمجتمع الغربي، ممن بدأت مسألة عمل المرأة ومسؤولياتها تشكل قضية حساسة في مجالات الخدمات الاجتماعية وسوق العمالة في الغرب، كما هو

مفيد للمجتمع الغربي لتشكيل صورة واضحة وصحيحة وسط تشويهات، مقصودة وغير مقصودة، من تيارات أصولية وغير أصولية.

وقد أثار الكتاب، حين صدوره، بأسلوب تناوله وزاوية نظراته ومنطلقاته للمرأة، جدلاً واهتماماً تقييمياً. فكتبت عنه أبرز الصحف البيروتية حينما قدمته دار النشر لأول مرة بـ ١٦٥ صفحة، لكنه اليوم يضم ملاحق هي مقابلات وكتابات نقدية تشكل مع أصل الكتاب وحدة متكاملة للموضوع واعترافاً من النقاد بقوة الكتاب، الذي وان كان بالأساس أحاديث متنوعة إلا أن قوة الترابط بين موضوعاته، وشمولية المسألة المطروحة بين دفتيه تجعله بحق كتاباً لا غنى عنه لفهم جوهر نظرة الاسلام الى موضوع المرأة، ليس موجهاً للمرأة خاصة بل للكيان الأسري الصغير والمجتمع الكبير، وهو بالتالي يرقى إلى أن يكون مرشداً وحافزاً معرفياً لتنظيم وتأطير الواجبات والحقوق سواء للرجل أو للمرأة على السواء.

هناك عدة قيم في الكتاب تحفز على قراءته ومناقشته ايضاً، فهناك القيمة المعرفية من خلال رؤية الكاتب في تفسيره للشرع والعقيدة بروح عملية وجدلية محببة تستند الى أحكام القرآن الكريم. ولذا قد نستدرك لنقول: ألا يفهم المسلمون شريعتهم!؟ ونجيب بنعم، ولكنّ لماذا يحدث اللغط في أحيان كثيرة؟ وهناك، أيضاً، قيمة تحريضية في الكتاب تضع المرأة في دائرة الضوء مطالبة إياها بممارسة حقها وواجباتها وانفعالاتها وانسانيتها وعواطفها بالانسجام مع العقيدة، وبتفهم متطلبات الواقع والحضارة، دون الاخلال بمعادلة الانسجام بين الترابط العائلي والالتزامات العقائدية، من جهة، والتحرر، من جهة اخرى.

هكذا يستهل السيد فضل الله الباب الأول ببحث شخصية المرأة ودورها الفاعل، سواء في نشاطها الديني أو في علاقتها بالواقع العملي والانفتاح الثقافي، مؤسساً بذلك مدخلاً أولياً لسبر غور شخصية المرأة وعقلها وإيمانها، فيتساءل: «هل السبيل الى اكتشاف شخصية المرأة... يتمثل في النصوص الدينية أو في دراسة عناصر شخصية المرأة الذاتية من خلال حركة وجودها في الواقع الحي، وفي مستوى انفتاحها على الافاق العلمية...». ثم يستطرد بمقارنات تتوزع بين الفكر والممارسة، ليتوصل الى اقتناع «بان الأمر يتطلب استغراقاً في الواقع الانساني للمرأة كما هو للرجل، قبل عملية الدخول الى النصوص...». وهو «لايرى من الضروري أن يكون وعي الرجل للمسألة الثقافية والاجتماعية والسياسية أكثر من وعي المرأة» حينما يعيشان في ظروف ثقافية

واجتماعية وسياسية متشابهة.

وهو ذات الاستنتاج الذي تصورنا أن العلمانية تنفرد بالاجابة عليه إذ هو يدلنا بالقرائن من خلال نماذج تاريخية كشخصية مريم ومواجهتها لقومها، أو ملكة سبأ وتشاورها مع شعبها، أو شخصية خديجة الكبرى وفاطمة الزهراء وزينب .

يتصدى السيد فضل الله، في قراءته للنصوص القرآنية، للإجابة عن المسألة الأساسية في التمايز بين الرجل والمرأة كما يُساء فهمها، فيرى أن القرآن يفهم خصوصية المرأة وانسانيتها من خلال تتبعه للمنهج الانساني للتشريع في تعامله مع قضية الفروق الفردية والغريزية والمهماتية. وهو هنا لا يسلك منهجاً توفيقياً، بل يرفض التوفيق «كطريقة للتوافق مع فكرة عصرنة الاسلام» مؤكداً «أن المسألة، عندنا، هي الانطلاق من حقائق الاسلام لاثبات مستوى الحقيقة من خلال عناصر الوضوح الكامنة في ظواهر النصوص القرآنية».

في مجال تحرير المرأة يفرد السيد فضل الله، فصلاً مهماً طارحاً فكرة ذات طابع تحريضي ضد تكريس المفهوم الخاطئ للتقليد الاجتماعي الذي يقيد المرأة في دائرة الخدمة «التي تضطهد انسانيتها وتعاملها كما لو كانت مجرد شيء من أشياء الرجل التي صنعت للاستمتاع من دون أن يكون لها دور فاعل في الحياة». وهو يضع دور الأبوّة بموازاة دور الامومة. فالطرفان يمارسان ادوارهما الحياتية، وان بدا دور الرجل خارجياً ودورها متصلاً بالجانب الجسدي العضوي من وجودهما.

تأسيساً على ذلك، ينتقل الى مناقشة مفهوم العفّة، والحرية المطلقة، والاختلاط والحجاب الذي تكتسب مناقشته أهمية كبيرة نظراً لارتباطه بواقعنا المعاصر واختلاف مديات النظر الى معناه ووظيفته، بما لايؤدي الى الغاء احساسها الانساني بانوثتها ضمن دائرة التعبير المتاحة لها.

في أحاديث أخرى يضمها الكتاب، وتشكل ثورة على تخلف المرأة كجزء من تخلف المجتمع، يقول: «ان الرجل والمرأة ضحيتان لمزيد من الاوضاع الاسلامية الداخلية على مستوى السلطة...».

يثير في أبواب اخرى مديات انطلاق انوثة المرأة ضمن حركة الواقع المتاحة لها مؤكداً «أن الاسلام شجع المرأة على أن تستثير انوثتها في الحياة الزوجية، تماماً كما أراد للرجل أن يعيش ذكورته في هذه الدائرة الخاصة» لكنه لا يفسح المجال للمرأة في تحريك أنوثتها كعنصر من عناصر حركتها داخل العلاقات العامة سواء عند الخروج أو العمل أو

الاختلاط، بما يفهم منه ان الاسلام لايشجع المرأة في الانطلاق للمجتمع من مواقع الاثارة وتأكيد طبيعة الانوثة.

واستطراداً لهذه الصورة يطرح السيد فضل الله في موضع آخر مسألة «الصداقة بين الجنسين» و «الحب بين الرجل والمرأة» والخطوبة كعلاقات لا يرفضها الاسلام وصولاً الى الزواج كرباط مقدس، رافضاً مفهوم المهر من زاوية اعتباره ثمناً للمرأة، مشدداً على اهمية الصفات الدينية والخلقية كرادع في السلوك.

في مجال العلاقة بين الزوجين يرفض باصرار مبدأ الغاء طرف لطرف آخر مستخلصاً: «ان لكل من الزوجين خصائص وجودية إنسانية تختلف عن خصائص الطرف الآخر» مذكراً بضرورة إذكاء مشاعر الرحمة بدلاً من القسوة كما يدل على ذلك النص القرآني الذي أورده.

على أننا في قراءتنا الكتاب، يجب أن نتوخى الحذر وتجنب الانفعال. فالطرح جريء وتحريضي. والمواضيع حساسة وربما أسيء فهمها أو أُخذت بشكل مجتزأ دون ادراك المواءمة في نظرة الكاتب الواقعية والمنسجمة مع العقيدة. لذا فمن المتوقع أن يأخذ المقهور والمستعبَد تلك النصوص التي تتفق ووضعه على أنها حجة للانقلاب على السائد ورفض للمعتاد دون ادراك القيمة التشريعية في ذلك.

ولذا فان عملية خلق حوار واعٍ وتربوي بين أفراد الأسرة ضمن منظومة الافكار والقناعات، التي يطرحها السيد فضل الله، هي ما يجب اتباعه في التعاطي مع الموضوعات المطروحة في الكتاب، وربما ستشكل تلك الموضوعات سياجاً ثقافياً للجيل الجديد الذي تربى وسط تصارع ثقافي متنوع في الغرب وبات بعيداً عن أحد جذور مكوناته الثقافية الأولى، إضافة الى النتيجة السلوكية التي تجعل من موضوعاته مادة حوارية بناءة بين أفراد الاسرة؛ وهذا ما يدعو إليه الكتاب ومانرجوه نحن من بناء أسرة عصرية مرتبطة بالجذور.

تأملات اسلامية حول المرأة، السيد محمد حسين فضل الله

دار الملاك للطباعة والنشر والتوزيع ــ بيروت، الطبعة الخامسة ١٩٩٢-١٩٩٦.

صوت لحقوق الكرديات

كمال محمود

في اربيل صدرت مؤخراً الفصلية الثقافية دنك (صوت) للدفاع عن حقوق المرأة ونشر ابداعها. صاحبة الامتياز بخشان زنكنه ورئيسة التحرير بهار علي بالاشتراك مع الكاتب الصحفي هادي محمود، مع لجنة استشارية من المثقفات والمثقفين. تطرقت افتتاحية العدد الأول الى جهود المثقفين والمعنيين بتحرير المرأة من تسلط الرجل والحرمان من مشاركتها في تقرير شؤون المجتمع. واكدت أن الدورية مفتوحة لمختلف الآراء حول هذه القضية مستقلةً عن الأطر الحزبية وعن منظمات المرأة جميعاً.

في مقالته «لنكن صادقين على الاقل مع انفسنا»، يشير جمال عبدول الى معاناة الكرد عبر التاريخ مؤكداً ان المرأة تعاني، بالاضافة الى المشاكل العامة عدداً من المشاكل الخاصة الناجمة عن العادات والتقاليد البالية. وطالب بضمان الأمن والسلام للنساء قبل كل شيء واتاحة المجال لمساهمتهن الفعالة في مختلف المجالات.

وتتناول بخشان زنكنه، في تقريرها الضافي، تطور قضية المرأة في الربع الأخير من القرن العشرين فأستعرضت المؤتمرات العالمية للنساء من مؤتمر عام ١٩٧٥ الذي أرسى اساساً للتعاون بين منظمات النساء والامم المتحدة واعلن الاعوام ٧٦-١٩٨٥ عقداً للعمل من أجل «المساواة والتقدم والسلام». وصودق عام ١٩٧٩ على ميثاق ازالة التمييز ضد المرأة. لكنه لم يطبق حتى الآن. ثم تحدثت عن المؤتمر العالمي في بكين ونتائجه مؤكدة ان البشرية لا تستطيع التصدي لمهام القرن القادم بدون اشراك المرأة

مع الرجل على قدم المساواة، وان مؤتمر بكين كان منعطفاً تاريخياً في نضال المرأة. ثم قالت «وفي كردستان نحتاج الى جهد كبير لنقطع طريقاً وعراً طويلاً لبلوغ اهداف ذلك المؤتمر». ولوحظ أن الكاتبة اغفلت مساهمة وفد المرأة الكردية ومندوبات بقية المعارضة العراقية، خاصة في جلسات المنظمات غير الحكومية.

وتناولت شمام شوقي «تأثير الخوف على نفسية المرأة» بالتركيز على مظاهر الخوف الاجتماعي الناجم عن النظام الابوي في العائلة، والخوف الاقتصادي والخوف السياسي. واستشهدت بامثلة من حياة النساء، ثم اقترحت حلولاً لمشاكل المرأة لتخليصها من الخوف.

وكتب ناصر حسامي عن أوضاع المرأة في التشريع الإيراني، حيث يحدد القانون المدني سن الزواج بـ ١٥ سنة للذكور و ٩ سنوات للإناث وما ينجم عن ذلك من «مشاكل لا يتقبلها العقل» مشيراً الى أن هذا القانون خرق المواثيق والعهود التي ابرمتها ايران قبل أكثر من ٤٠ سنة والتي يعترف بها «القانون الاساسي للجمهورية الاسلامية» في مادته ٧٧.

في مقاله «جسد الأنثى. . . مستعمرة اجتماعية» شبهت دلسوز محمد وضع المرأة بالمستعمرات من حيث صور السيطرة والاحتلال والاضطهاد والقسوة والاستغلال الاقتصادي والسياسي والتخلف الاجتماعي والثقافي، وان المرأة تعاني «من النظام الكولونيالي داخل المجتمع الكردي حيث تعتبر المرأة بضاعة يملكها المجتمع ويتصرف بها الرجال.. وان هذه الحالة تبلورت حتى في الاحزاب والمنظمات واجهزة السلطة الادارية حيث تتجلى تبعية المرأة للرجل في جميع المجالات. وتؤكد بان الاسلام لم يحرم المرأة من التعليم كما يزعم اشباه الملالي في القرى. ثم تتطرق الى قتل المرأة «غسلاً للعار» وتسأل: لماذا تقتل المرأة وحدها؟ وتذكر وقائع واحداثاً مؤلمة في هذا الشأن. ومع ذلك فهي (دلسوز محمد) متفائلة في تقدم المرأة على طريق المساواة والحرية. . .

«التمايز بين المرأة والرجل اساس القسوة والاضطهاد ضد المرأة» عنوان المقال الذي كتبته بهار حيث تقول بأن المجتمعات البشرية تمارس باسرها القسوة والاضطهاد ضد المرأة وتعدد انواع القسوة التي تعاني منها المرأة وتشير إلى بداياتها التاريخية وتأثيرها على نفسية المرأة وافكارها ومواقفها.. وتعلل أسبابها الاقتصادية والسياسية والاجتماعية في الظروف التي يسود فيها الرجل وتبين ما تعاني المرأة الكردية من التعذيب الجسدي والقتل وتعرضها لانواع الاعتداءات، حتى الجنسية، وحرمانها حتى من

حقوقها الشخصية وخاصة في قانون الأحوال الشخصية والعادات والتقاليد الاجتماعية. وتتوصل الى بعض الحلول تعتبرها معقولة لازالة الغبن عن المرأة ومساواتها مع الرجل في ميادين الحياة المختلفة.

وفي المقال الذي كتبه هادي محمود بعنوان «مساهمة المرأة في النشاط السياسي واتخاذ القرار» يقول «ينبغي أن تشمل مساواة المرأة مع الرجل المجال السياسي ومراكز اتخاذ القرارات» ويدرك بأن مجرد اتخاذ مثل هذه الضوابط لايعني تحقيق المساواة بسبب تراكم العوامل التاريخية والعادات والتقاليد التي لها طابع رجعي والتي فرضت نفسها في سايكولوجية المجتمع ـــ ويناقش بعض الحجج الواهية حول تخلف عقلية المرأة وضرورة تبعيتها للرجل. ثم يتطرق الى نظرة الاسلام الى نشاط المرأة في الميدان السياسي ويشير إلى أن معظم الفقهاء لا يسمحون للمرأة بالمساهمة في القيادة السياسية.. مما نرى انعكاسه في ضعف تواجد المرأة في قيادة الأحزاب السياسية.. ثم يقترح وضع برنامج مكثف وعملي لتخطي السلبيات ومظاهر تخلف المرأة ومن أجل تحقيق مساواتها مع الرجل.

وكتبت أميرة محمد حول «تاريخ الحركة النسائية» واعتبرت «استغلال واضطهاد المرأة اقدم واوسع استغلال في تاريخ الانسانية..» وان رفع الظلم والقسوة عنها رهن بتحرر الانسانية من القيود والسلاسل الاقتصادية والسياسية والاجتماعية.. ثم تشير إلى تعاظم دور المرأة منذ زمن الحرب العالمية الأولى بسبب نقص الرجال وتتحدث عن تطور الحركة النسائية في معظم القارات وتورد أرقاماً عن ازدياد مساهمة المرأة في مجال الانتاج والادارة وغيرها.

وتطرقت الدكتورة شكرية رسول في موضوعها «صراع المرأة الكردية.. بين الشعراء وصوتها الأصيل» الى معاناة المرأة وتحملها انواع الظلم التي يخجل التاريخ من سردها.. أما في المجتمعات الحديثة، فانها فقدت ليس فقط استقلالها الاقتصادي بل وسحقت لديها حرية الحب أيضاً، وتعدد نماذج من الاستغلال والاضطهاد الاجتماعي والسياسي والاقتصادي.. ثم تشير الى انعكاسات صور المرأة لدى الشعراء في المجال الكلاسيكي والرومانسي والواقعي وتذكر نماذج من شعرهم لاسناد اقوالها. وتصل في الختام الى الاستنتاج ان المرأة الكردية لم يكن لها أي دور قديماً.. إلا انها استطاعت ان تجد لها موطئ قدم في ميادين الحياة المختلفة.. وتدعم اقوالها بصوت المرأة المكافحة ذاتها وتذكر نماذج من نتاج النساء في مختلف الميادين.

ويقول شورش في مقاله «العلاقة بين المرأة والرجل صراع غير متوازن» ان الأزمة الاقتصادية التي نجمت عن الحصار الاقتصادي وتدمير البنية التحتية والفراغ الاداري بعد انتفاضة ١٩٩١ في كردستان أثرت على الوضع الاجتماعي. . . ويشير الى ازدياد ظاهرة الطلاق. وينتقد نظام سيطرة الرجل في العائلة والمجتمع وكذلك في العلاقات الاجتماعية القديمة وقانون الأحوال الشخصية ويناقش مفرداته ويعتبره في صالح الرجل وضد حقوق المرأة.. لذلك نجد المرأة محرومة من حقوقها الانسانية ويتردي وضعها الاقتصادي والاجتماعي والثقافي.. الخ.. ويرى في إزدياد وعي المرأة تجاه مشاكلها ومسبباتها قوة تدفعها الى المشاركة الفعالة في النضال لايجاد الحلول لها..

وترجم ب. ثارام مقالة لكلارا زتكين بعنوان «مساهمة المرأة في النضال من أجل انتصار الاشتراكية واجب ضروري».

وهناك أخيراً مقال كتبه ثاري بابان بعنوان «المرأة والفن التشكيلي» يتطرق فيه الى مساهمة المرأة الكردية في ميادين الفن عموماً والفن التشكيلي بصورة خاصة. وقد انجزت اعمالاً فنية وشاركت في المعارض والنشاطات الفنية المختلفة.

إصـــــــدارات وردتـــــــنـــــــا

الاغتراب الأدبي : فصلية ، لندن ، العدد ٣٤ ، بمساهمات لاميل حبيبي ، حنضل الشيخ خزعل ، زهور ونيسي ، مظفر النواب ، حسن سليمان ، سميرة المانع ، وسام هاشم ، عصام الباشا ، عبد الإله عبد القادر ، لميعة عباس عمارة ، خلدون الشمعة ، هاجر القحطاني ، كريم عيد ، فاطمة عبد ، يوسف العلي ، كريم جواد ، سلام عبود ، جمال مصطفى ، قصي الشيخ جعفر ، جيمس جويس .

تافكوت : فصلية ، العدد ١ ، بمساهمات لامجد ناصر ، طارق الطيب ،صلاح عبد اللطيف (رئيس التحرير) ، قاسم حداد ، جمال جمعة ، عبد الله الريامي ، جمال مصطفى ، عبد الكريم راهي ، عبد العزيز بومسهولي ، ادمون عمران ، خوان غويتسلو ، مصطفى عبد الله ، محمد المسلاتي ، لؤي حمزة عباس ، سلام عبود ، غادة السمان ، كارلوس فوينتس ، هيفاء زنكنة ، محمود شريح .


أدب وفن

الدراما معرفة منهجية ووعي خلاق

د. نور الدين فارس

«الفن هو الفن لأنه ليس الحياة» ـ گوتيه

ـ ١ ـ

لكي يتفادى الانسان احتمالات الزلل والخطأ، التي يمكن أن تهدد مشاريعه وانجازاته، انكب على التأمل والتفكير والتجريب بغية الاستعداد من خلال التخطيط والبرمجة لتنفيذ تلك المشاريع بدراية ومهارة دون فشل أو خيبة. وكلما كان وعيه منظماً ومبرمجاً بادراك وعمق، كانت هفواته أقل، وصار في امكانه تلافي النقص وتجاوز الخطأ. لهذا ظل الانسان ينقب، يتخيل، يدرس ويجرب باحثاً عن أفضل المناهج والتقنيات المبرمجة لتطوير انجازاته في شتى المجالات، العلمية والفكرية والفنية. ولعل الاغريق من أوائل الامم التي أولت اهتماماً جاداً لمنهجية المعرفة وبرمجة التقنية، خاصة ما تعلق بالابداع الفني، انطلاقاً من منظورهم الى الفن كصناعة رفيعة، لاسيما بعد ظهور المدرسة النيرة التي ابتدأت بسقراط وانتهت بارسطو. وتعتبر مبادرة الاغريق هذه من أعظم انجازاتهم العقلية، إذ طالما اعتبروا الفنان كالصانع الواعي من حيث المهارة، ولابد ان يتوفر على نوع من التخصص في القدرة والتقنية ليستوعب مستلزمات عمله المؤثر في من يحتاج اليه، خاصةً وثمة شيء في كل تجربة فنية يمكن ان يسمى ـــ وفقاً لجانب من معنى الكلمة، الشكل. واذا توخينا الدقة قلنا: انه شيء له طابع الايقاع، النمط، والنظام،

كما أن هذا الشكل سبق وان تم تصوره قبل فرضه على المادة[1] وهذا يقتضي بالضرورة أن يحتوي الفنان بوعي اسباب تخصصه عبر المران ومراجعة المقاييس والاصول التي هي محصلة خبرات وتجارب ناضجة ورائدة في مجال الابداع والتقييم. فالتقنية المنهجية الواعية الى جانب الموهبة يمكن أن توفر امكانيات قيمة لتطوير العمل الفني وتقدمه. . .

مع تطور وعي الانسان واتساع مداركه في العصور الحديثة، أخذ يؤمن أن المعرفة النابعة من الشك والتجريب والنقد والمساءلة ثم الاستقرار هي التي تكفل له النجاح في نشاطاته، وان معظم انجازاته واكتشافاته المرموقة أرتهنت جدلياً بانعتاقه أولا من أسر «تابوهات» واوثان عهود القهر والظلام وما ارتبط بها من عبودية مطلقة لأوهام ومسلمات واحكام مسبقة لا تناقش ولا تُرد أو تُغيّر، ثم انعطافه بشدة ــ ثانيا ــ نحو اعادة تقييم المفاهيم والرؤى والقيم المرهقة باعباء الماضي الجامد والمتخلف، السائدة في حياته ومحاولة تغييرها وتجديدها بالاتساق مع منطق الحاضر، وتهيئتها مجدداً لمتطلبات المستقبل ووفق تقنيات منهجية علمية متخصصة نوعياً، ترتكز آلياتها على التحليل والتجريب وإعمال العقل.

لم تقتصر البرمجة والتقنية على العلوم والاخلاق والطبيعة، انما امتدت الى الفنون ايضاً وخاصة الدراما، التي تعتبر أم الفنون، لتوفرها على الشعر والموسيقى والتشكيل والغناء والنثر. فهي بسبب ثراء نظريات مذاهبها الفنية وتنوع افاق اساليبها الابداعية وطبيعة تعقيدات اصولها المعمارية، تطلبت منظومة مفاهيم ومبادئ فكرية وادوات اجرائية خاصة ومتميزة ــ تقنية منهجية نوعية ــ ولهذا حظيت باهتمامات واسعة من قبل المفكرين والمبدعين. وكان طبيعيا ان تتأثر تقنياتها بآرائهم واجتهاداتهم، التي هي انعكاس للانعطافات الحضارية التاريخية الكبيرة وما جاءت به من اكتشافات وتغيرات علمية وثقافية عميقة وشاملة..

ان هذا التأثير طال حيثيات الفروع والتفاصيل في هذه التقنية الا أنه ظل محدودا، بهذا المقدار أو ذاك، بالنسبة الى الاسس والاصول المبدئية الملازمة لخصوصية الدراما النوعية وطبيعتها الذاتية.

تتموضع آليات هذه التقنية في محورين اساسيين: اولهما المحور الفكري، الذي يرتكز على المبدأ، الموقف، الدرامي. الذي يكشف عن صراع ـ تضاد، اي تناقض الافعال والآراء والاهداف، هذا المبدأ، من حيث الجوهر، هو تمثّل لروح التجاوز والمعبر

عن قلق وجود، قلق مصير، يقوم على الشك، التساؤل، النقد والتمرد. وتشخيص هذا كله من خلال ارادة الانسان وحده، في تقرير مصيره ومستقبله، باعتباره مركز الفعل الدرامي وسيده ـ وبغض النظر عن كل ما به من قيود واوهام ورواسب موروثة مطلقة.. تسعى هذه الارادة، الى قهر العقبات وتجاوز الممنوعات لبلوغ أقصى ما يمكن من الحرية(٢) والمعرفة اعتماداً على الجدل الواعي في محاكمة سلبيات القديم و وضعياته الراكدة التي تعيق التغيير، وتكبح التجديد في الحاضر والمستقبل: وهذا لا يتحقق دون نضال الشخصيات وكفاحها. ورغم الصراع بينهم إلا أنهم يبقون في وحدة دائمة، حتى يتبلور التغيير. وكلما كانت هذه الوحدة متماسكة كان الصراع قوياً وأكثر وضوحاً وتبريراً(٣). ومن غير الممكن تصور المبدأ الدرامي أو تمثله دون فكرة مهمة تتضمنه، تغذيه وتؤجه أيضاً بدوافعها السببية المحكمة والمقرونة بنتائج مبررة ومتقنة، من بداية الدراما، حتى نهايتها. فضلاً عن هذا، فالفكرة هي العقل المدبر والفعال في معمار الدراما، لأنها توحد وتوازن وتوجه معظم الأدوات والعناصر الاساسية في تنسيق وتركيب البناء الدرامي. وبدون رصيد من الافكار، كما يرى بيرناردشو، لا يستطيع العقل أن يعمل ولا المسرحيات أن توجد. وبنفس المنظور يؤكد المخرج السوفييتي الشهير ـ مايرخولد ـ: الفكر يأتي أولاً، والمسرحية المعتبرة تتميز عن غيرها، بالدرجة الاولى بعمق افكارها(٤). ولهذا يستغرب ديماس الأبن من انعدام الفكرة في الدراما. لذا راح يسأل المؤلف: كيف يمكن أن تتذكر الطريق التي سوف تسلكها، ما لم تعرف اين أنت ذاهب. ان الفكرة هي التي سوف تدلك على هذا الطريق(٥). والفكرة بالنسبة الى المبدأ الدرامي ليست غاية اجتماعية ـ أخلاقية تعبر عن المغزى وتوحي بالقصد الأسمى الذي من أجله ابدعت الدراما فحسب، انما هي كذلك ضرورة تقنية فنية ملحة، باعتبارها المصدر الأساسي الذي يرفد ـ ميكانيزمات المبدأ، الموقف، الدرامي من خلال الفعل الذي يحمل بذرة نقيضه في ذاته، ومنه ينطلق نضال الاهداف المتعاكسة والقرارات المتناحرة باتجاه التغيير. . .

اما ثانيهما فهو المحور الاجرائي ـــ التنفيذي المتمثل في توفير وتحضير المستلزمات الفنية الضرورية، من ادوات وأطر وسبل لتنفيذ المحور الاول ـــ الفكري، المعبر عن روح الدراما وجوهرها، ومنحه الشكل الفني المتميز والمرموق. وعلى رأس هذه المستلزمات المقارنة بين الوضعيات وانتقاء اكثرها توتراً واصطداماً، لاسيما تلك التي تحمل في ذاتها بدايات الفعل سواء كان خارجياً او داخلياً. فهو وحدة كاملة بذاتها،

حركة مكونة من فعل وفعل نقيض، رد فعل وقرار حول نضالهما المتصادم، كما هو كشف واضح للفرد بقناعاته. واهدافه[٦].

أما الوضعية الاصطدامية فتتجلى كاختلاف حيوي في حالة معاكسة تجاه شيء آخر. لذا فهي مؤهلة لارساء دعائم الموضوع الدرامي الذي يلائم طبيعة الفكرة ويرسم معالم المادة الاساسية التي تنسج النص الدرامي وتوحي بمضمونه في آن واحد.

ان عملية تحضير عناصر الموضوع: الوضعية، المشاكل، الوقائع، الشخصيات، الحكاية والاغاني..الخ. لاتخلو من تداخل وتعقيدات بسبب تراكم الاحداث وازدحام التفاصيل وتعدد الشخصيات وتوفر أكثر من خط واحد للموضوع، فتتضخم المادة الدرامية التي كأي مادة فنية أخرى، تخضع للانتقاء والعزل للحفاظ على طبيعة الجنس الدرامي. ولايرتبط العزل والانتقاء بموهبة المؤلف فحسب، انما بوعيه الدرامي والمامه بطبيعة الموضوع وما يريد ان يطرحه من دلالة. . .[٧]. ومنظوره الى الكون والمجتمع والفرد.

ان معايير التقنية المنهجية ومقاييسها النوعية المستوحاة من نظرية المعرفة الدرامية ليست قضائية، الزامية مطلقة، كما يعتقد من يجهلها، انما هي منظومة حيوية فنية مرنة تخضع لأعمال العقل والاجتهاد وتستفيد من مستجدات العصر، الفكرية والجمالية. وهذا جعلها، منذ عصورها المبكرة، مثار اهتمام وبحث و مجادلة على المستويين الفكري والفني بين الفلاسفة والمفكرين و الادباء والفنانين، ابتداءً من ارسطو حتى هيغل، لوكاتش وبريخت. ومازال تطورها مفتوحاً على العصور المقبلة وما تجيء به من تحول وتجديد في التفكير والابداع. وهذا بالذات ما وفر امكانيات هائلة امام الدراما العالمية لترسي ركائز نظريتها المعرفية وتقنياتها الفنية وتحث خطاها بنجاح في مدارج التطور والتقدم.

لئن حققت الدراما العالمية أفضل انجازاتها الفنية نتيجة لارتباطها الايجابي بنظرية المعرفة الدرامية واستلهامها تقنيات ومناهج تلك المعرفة في التقييم والابداع، فهل تتوفر الدراما العربية على علاقة ما بنظرية المعرفة الدرامية وماهي مصادرها؟ وهل تعتمد أصولاً تقنية منهجية ــ مرجعية معينة في انجازها وتقييم معطياتها..؟

ـ ٢ ـ

لكي تتوفر أجوبة موضوعية وافية عن هذه الاسئلة يتعين أن نتابع بعض نماذجها التطبيقية المتميزة في أكثر من قطر عربي بغية التنقيب عن مصادر الهامها وتأمل اصول معمارها واستقرار خصوصية آليات تقنيتها، ومن ثم الكشف عن مستويات معايير قيمها الابداعية فنياً وفكرياً على الصعيدين المحلي والعالمي. ولعل من أهم هذه النماذج هي الأعمال التالية:

مسرحية السلطان الحائر لتوفيق الحكيم، تستقي ميكانيزمات دوافعها ومنطلقاتها من فكرة صراع السيف والقانون من أجل سيادة القانون و العدل، التي هي بمثابة القاعدة النظرية التي تتأسس عليها المسرحية المذكورة. الفكرة ليست جديدة ولكنها حيوية بسبب فاعليتها الدائمة وتأثيرها المتواصل في كافة الأزمنة، وخاصة في البلدان النامية. ولكي يتم تجسيد كامل لهذه الفكرة في صور موضوعية عبر العناصر المحسوسة ـ مرئية وخفية ـ كالشخصيات والاحداث والاصطدامات لبلوغ الهدف المطلوب استلهم الحكيم وضعية متميزة من تاريخ حكم المماليك في مصر(٨) وهي في غاية الاصطدام والتوتر، تم تشكيلها من معادلات متباينة واتجاهات متنافرة يمكن ان تفجر جملة من المشاكل وردود الافعال والمواقف المتناقضة والصراعات الحادة لانجاز الموضوع المناسب الذي يستوعب المبدأ الدرامي من جهة ويشخص الفكرة ويجسدها من جهة ثانية.

تُوجَّه تهمة صاعقة الى السلطان ـ الذي هو من المماليك ـ من قبل أحد السماسرة في سوق العبيد، مفادها ان سلطان البلاد، الذي نُصّب حديثاً، مازال عبداً مملوكاً لسلفه السلطان الراحل، الذي عاجله الموت قبل أن يعتق وريثه السلطان الحالي.. تتأكد التهمة وتثبت بعد محاكمة السمسار علناً في ساحة المدينة وبحضور السلطان نفسه.. آنذاك يفتي قاضي القضاة بتعطيل السلطان وايقاف صلاحياته لغاية بيعه وانعتاقه لأن العبد لا يُولى على أمر الامة شرعاً.

هذه الوضعية المتأزمة بحدة أوجدت انقسامات خطيرة داخل النظام نفسه: فئة السيف: السلطة التنفيذية، الوزير، صاحب الشرطة.. والجلاد يتمسكون بالحفاظ على السلطان ــ رغم عبوديته ــ ويرفضون بيعه لحماية مراكزهم ونفوذهم ثم فئة القانون: السلطة القضائية (قاضي القضاة واتباعه من مشرعين وقضاة) تطالب بتطبيق القانون

نصاً وروحاً، وفق مبادئ الشريعة واصولها المقدسة.. أما الفئة الثالثة ــ عامة الناس ــ كالسمسار صاحب الحانة، عاهرة، مؤذن، اسكافي وغيرهم من المواطنين فقد جرى تجريدهم من أية وجهة نظر اجتماعية او فكرية، ودون أي دور متميز في هذه الأزمة رغم كونها تشكل الطرف الأكبر في ما يتعلق بمصير النظام.. لم تعهد لهذه الشخصيات مهمات فاعلة انما وظفوا كأدوات سردية اخبارية تملأ فراغات الموضوع وتساعد على ترتيب احداثه. لوعولجت مشكلة عبودية السلطان من خلال رؤية درامية نقدية جدلية ضمن آليات تقنية ــ المحور الأول ــ لتبلور المبدأ ــ الموقف الدرامي المطلوب والذي يقود عملية التخطي فيزيح القديم ويأتي بالجديد ليتم التغيير، لكن شيئاً كهذا لم يتحقق، لأن فتوى البيع مذيلة بشرط استثنائي مريب في صالح الحاكم ــ السلطان والنظام بهدف حمايته واستقراره بصورة مبطنة.. موضوعة بيع السلطان ربما كانت مقبولة، لكن شرط اقتران هذا البيع بالتنازل عن المبيوع وتوقيع حجة عتقه فور الشراء ــ كما ورد في تذييل الفتوى ــ فهو فخ محكم نصبه القاضي بمكر وانتهازية لا يناقض الشرع والقانون فحسب، انما يتنافر مع ابسط مفاهيم البيع والشراء القائمة على حرية التملك وضمان حقوق البائع والمشتري دون تهديد أو اكراه من فجر المقايضة حتى رأسمالية اليوم. ولعل العاهرة التي تورطت بشراء العبد ـ السلطان، كانت واعية لما يرمي اليه قاضي القضاة حين خاطبته بلباقة: أهذا هو شرطك؟ لكي اشتري يجب أن أُعتق، لكي أملك يجب الا أملك. اترى هذا معقولاً؟[٩].

عبودية السلطان أوجدت امكانيات شرعية وعرفية للإطاحة به، بل افرزت دوافع انفجار هبة شعبية مؤهلة لأن تعصف حتى بنظام المماليك بأسره في مصر.. لولا تردد الحكيم نفسه، بسبب نزعته الاتباعية وانعدام قناعته بالتغيير ومايترتب عليه من نتائج فكرية واجتماعية.. لهذا ترك القاضي يدافع عن القانون شكلياً، كما سمح له عملياً ان يتلاعب بالالفاظ وبادارة جدل صوري مثالي يخلط المفاهيم لتبرير تحرير السلطان واعادته الى سدة الحكم، والحفاظ على نظامه المملوكي القائم في آن واحد.. وهذا ما تم فعلاً في نهاية المسرحية.. مهدت وضعية السلطان الحائر للفعل الذي يحمل في ذاته بذرة نقيضه، فلاحت ومضات المبدأ ــ الموقف الدرامي المناسب، بيد أن هذا الفعل أخذ يتكسر ويتراجع داخليا وذهنياً نتيجة الانصراف التام نحو البحث عن المثال المستحيل والمطلق الذي ينشده الحكيم، المتمثل في سلطان (من فصيلة المماليك المعروفة بالبطش والارهاب والاغتيالات) يحترم القانون ويطبقه بنزاهة وانصاف وعدل مطلق

على نفسه وعلى رعاياه بالتساوي. وحين خذلته الوقائع التجأ الى التحايل على منطق الاشياء وطبيعتها، فابتدع عدلاً موهوماً مرتهناً بشروط غير طبيعية ولا منطقية، كما هو الحال بالنسبة الى تذييل الفتوى، الذي جرد المشتري (الغانية) من حريته وارادة اختياره وبذلك ينفي مبدأ العدل والحرية الذي تناضل من أجله المسرحية. هذه المغالطة الفكرية، التي ظهرت في أوج تأزم الوضعية، لم تشوش الفكرة فقط، بل أبطلت جدليتها وحولتها الى مساجلة لفظية يتناظر فيها السيف والقانون بمنطق شكلي ويتحايل بادوات ومقاييس ايهامية مجردة أخمدت الفعل، وخلخلت المجابهات فشتتت الفكرة وضاع الهدف بين مدارات تجريدية وانعطافات وهمية لا قرار لها. بدأ الصراع بين الغانية والقاضي قوياً للحظات ثم راح ينحدر وينطفئ لأنه أضحى مفتعلاً بعد ان فقد تبريره وتماسكه، فانعدمت لحظة التخطي وعادت الاشياء الى سابق عهدها، والا ما الذي تغير بعد كل تلك المفارقات والمفاجآت الحوارية العامة..الغانية اشترت السلطان، وفي الحال أذعنت الى توقيع حجة عتقه وتحريره فوراً ويحد السيف. والسلطان المملوك الذي بيع وأُعتق في ذات الوقت عاد الى عرشه منتصراً مبجلاً، يحف به الوزير وقاضي القضاة والجلاد وصاحب الشرطة، أما الزعم بانتصار القانون وانهزام السيف كما جاء في نهاية المسرحية فهذا ما لم يتحقق الا على مستوى المنطق الصوري المثالي المحصور في ذهن الحكيم وحده والذي يعنى بانسجام الفكر مع نفسه وبغض النظر عن مستوى تجسيده على صعيد الوقائع الموضوعية. وهذا ما لايتناقض مع نوايا واهداف حكام السيف الذين يتبارون كحماة للقانون والعدل والحرية جهراً ويرتكبون افظع جرائم الغدر والارهاب والاغتيال خفية. . .

إذا انتقلنا الى مسرحية «الملك هو الملك» لسعد الله ونوس، فسوف نلتقي بحفل تنكري يضم اربعة اصناف: فريق السلطة: الملك وحاشيته، وفريق التاجر المفلس، ابو عزة، وعائلته مع تابعه عرقوب. يشغل هذان الفريقان معظم ساحة الحفل، أما الفريقان الثالث عبيد وزاهد، والرابع الشيخ طه وشاه بندر التجار، فهامشيان من حيث الفاعلية، وعلى اطراف حلبة التنكر..

لماذا هذا الحفل وما الذي يتوخاه..؟ وماهي قيمته الفكرية والفنية على مستوى الانجاز والابداع..؟

لعل المؤشرات الاولية المقدمة لمعطيات العرض تنبئ ان الحفل أقيم ليتمثل مقولة سياسية متداولة رغم قدمها، مفادها أن سلطة القوة ثابتة وأبدة، اما الاشخاص، الحكام،

فهم المتغيرون وحدهم ولا فروق اساسية بين اخيارهم واشرارهم، أو شرفائهم وأراذلهم، فالجميع ادوات عمياء محكومون لمشيئة ـــ ماكنة سلطة القوة، وفرض قوانين وآليات هيبتها وجبروتها بكل الوسائل، الشرعية وغير الشرعية. فالملك هو الملك ورغم نسبية هذه المقولة واستثنائيتها، فان الحفل راح يبرهن بكل امكانياته على صواب المقولة المذكورة، كقاعدة ذهنية راسخة عامة ومطلقة دون التمعن بمعطيات العصر وتطوراته ـــ من خلال موضوع النص ووفق وجهة نظر المؤلف وقناعاته الفكرية والفنية.

من يتأمل الوسائل والاساليب التي شيدت بناء المسرحية وكونت مؤشرات ابعادها الفكرية والفنية فسوف يلاحظ منذ البداية لافتة تقول «الملك هو الملك» ـــ انها لعبة تشخيصية لتحليل بنية السلطة في انظمة التنكر والملكية فنتوقع مشاكل ساخنة مع بؤر توتر ومجابهات حادة، بين فئات تتباين اجتماعياً وذهنياً، ومن غير الممكن أن يتم لقاؤها، ولو من أجل اللعب، دون مواقف وآراء متناقضة ومتضادة، لاسيما وهو لعب سياسي اجتماعي، بين الحاكم والمحكوم. ويكفي هذا المؤشر لنهوض درامي معتبر.. كما أن تحذير الجلاد، ممثل الملك بقوله: «المسموح على قدر الممنوع وفي التوازن السلامة و الأمان وان التخيل مسموح الا إذا انقلب احدهما الى واقع او فعل»(١٠). فيمكن ان يقوم بتعبئة لمشكلة كبيرة يتمخض عنها فعل يحمل نقيضه فيكشف الشخصيات بوضوح ويبين اهدافها ومواقعها أولاً، ثم يقود صراعا مبرراً وقوياً حتى لحظة التغيير ثانياً. فالتحذير يغذي النهوض المنتظر باعتبار الكبح والمنع يحملان الخرق والتخطي والمجابهة. الا أن اذعان عرقوب، تابع التاجر المفلس، وتخاذله السريع أمام التحذير بقوله: «لا..لا هي أحلام فردية لا تتحد ولا تفعل»(١١) وصمت الفريق الثوري عبيد وزاهد وانزواء فريق الشيخ طه وشاه بندر التجار، هذه المواقف المجردة من أي رفض أو مجابهة أُحبطت معظم التوقعات الدرامية المنتظرة، وأشاعت على مستوى المعالجة ممارسة وضعية خارجية لوضعية محدودة ـــ ساكنة، غير مؤهلة إن لم تكن عقيمة لتوليد الفعل ونقيضه في مدار الصراع والتغيير. عليه بات كل فريق منطويا على ذاته ـــ لا يتحد ولايفعل معزولاً يسرد همومه ومعاناته مستسلماً لاحكام حظه العاثر . كما أراد الجلاد.

اذا كانت ثمة لعبة تنكرية فعلاً، فهي ما دار في البلاط الملكي، وفي اللوحات الأخيرة من المسرحية، حين استيقظ ابو عزة من سكره الشديد ليجد نفسه متربعاً على عرش

البلاد، التاج على رأسه والصولجان في يمينه، بعد أن تواطأ الملك مع عرقوب سراً على نقله الى البلاط وهو في أقصى درجات السكر. وفي الحال راح الملك ــ اللعبة ــ ابو عزة يقضي في شؤون الرعية بقرارات رعناء واعتباطية، إذ بدلا من أن يحاسب التجار الذين يحتكرون قوت الناس ــ ولهم ضلع في افلاسه ــ ويمارسون الغش والخداع في البيع والشراء، راح يساومهم ويعقد الصفقات معهم، وحين حضرت زوجته وابنته تتظلمان اليه، بسبب جوعهما، تنكر لهما وطردهما.. كل هذه الحماقات والسفاهات كانت تجلب الضحك والغبطة الى الملك الأصلي، الذي راح يتابعها من احدى الزوايا الخفية في البلاط بلذة ونشوة، وحين أخذ ابو عزة يكتسب ثقة الجلاد ومقدم الأمن وود الملكة الاصلية، انتفض الملك الحقيقي صارخاً: قولوا كانت لعبة.. الملك هو الملك.. أنا هو.. اللعب ممنوع والخيال والحلم ممنوع[١٢]. وقبل أن يتلاشى صدى صرخته تبخر ابو عزة من البلاط. وبذلك تنتهي اللعبة برمتها. أما الآخرون، مثل عبيد وزاهد، فلم يكن لهما حضور فعال ومتميز في اللعبة. فهما يتهامسان عن نضال ثوري واحتجاج جماهيري دون أية فعالية ملموسة بهذا الشأن، كما يتحدثان عن طبع وتوزيع مناشير تحريضية لم تطبع ولم توزع الا على لسانيهما، كذلك حديث اللقاءات الجماهيرية التي لا وجود لها، لأن كل هذه البطولات لاتتحد ولا تفعل. فهي مجرد ترديدات شفهية أو شروحات وصفية من هذه اللوحة أو تلك الفاصلة، دون أن تملك أي تأثير جاد لا على اللعبة ولا على لاعبيها. وهذا منطبق على الشيخ طه وشاه بندر التجار ايضاً. ان محاولة المؤلف انتقاء موضوع ملائم يحتوي اطروحته ــ الملك هو الملك ــ للكشف عنها والبرهنة عليها في آن واحد، كانت مرتبكة وغير مضمونة لأن الأطروحة ذاتها ــ كمقولة عامة ــ لم تكن كفكرة مدروسة ذات دلالة مهمة وموضوعية يمكن أن تتبادل الفاعلية والتأثير مع الادوات والنماذج التي تتمثلها وتؤكدها.. هذه المقولة تصلح لزمن الاباطرة والقياصرة ومحاكم التفتيش في عصور الاستبداد والانحطاط والظلام، وانتهت بزوالهم بعد أن انقلبت العديد من الانظمة الملكية الى جمهوريات ديمقراطية انتخابية وما تبقى منها اصبحت ملكيات دستورية برلمانية تعددية في بلدان العالم المتقدم.

واذا جاز اسقاط هذه المقولة على البلدان النامية فبسبب ظروف أملتها مصالح واطماع قوى امبريالية وتقضي بالضرورة الى تسليط طراز خاص من الحكام ــ ملوك، امراء.. شيوخ، وحتى رؤساء جمهوريات (يحصلون على نسبة ٩٩٪ من اصوات الناخبين) يخدمون اطماع ومصالح تلك القوى رغم ارادة شعوب بلدانهم وبذلك

يحافظون على عروشهم حتى الموت. هذه الظروف ليست قدراً أبدياً مطلقاً كما تعالجها المسرحية من خلال مقولتها، انما هي حالة غير طبيعية، مرهونة بنضال وكفاح هذه البلدان من أجل تصفية نفوذ القوى الكبرى واقتلاع جذور الاستبداد والدكتاتورية. ان تباشير هذا الكفاح والنضال أخذت تلوح في آفاق هذه البلدان، اذ ثمة معارك باسلة وشهداء وسجناء الرأي في العديد من هذه البلدان، بل ان بعضها حققت انتصارات باهرة على زمر التسلط الاحادية والثيوقراطية والعشائرية، فمقولة الملك هو الملك ليست قاعدة مطلقة ـــ كما وظفها المؤلف، فاوجدت تناقضاً عميقا بين خصوصية الحركة والتغيير الملازمة موضوعيا ـــ لبعض مكونات الموضوع وبين مضمون المقولة الثابت والمطلق.

ان افعال التنكر المعروفة خاصة في كتاب الف ليلة وليلة الذي استقى المؤلف منه لعبته ـــ لايمكن ان تتم دون تأزم واصطدام ومجابهة، نتيجة لجهل الناس هوية المتنكر، اضافة الى أن التنكر غالباً ما يتوجه الى الاوساط الفقيرة المضطرة الى التحايل او الابتزاز لأجل لقمتها، وهذا ما يجعل التنكر مصحوباً باخطاء ومفاجآت غير متوقعة وتغيرات لم تكن محسوبة، ولكي تكون وضعية التنكر منسجمة مع المقولة عمد المؤلف الى تجريدها حتى من آلياتها الطبيعية والحيوية لكي تتطابق مع دلالة الثابت والمطلق المقصودة، وهذا ما حصل للفقراء الذين أخذوا يتمثلون المقولة بسلوكهم. فهم كما أُخبر عنهم متباينون اجتماعياً وذهنياً ومصلحياً، وهم في هذه الحالة غير صالحين لتمثل المقولة ولا للبرهنة عليها مالم يجردوا تماما من جدلية تباينهم. وهذا ما تم فعلاً، وهكذا حافظ المستضعفون منهم على بؤسهم وانكسارهم من البداية الى النهاية، ورغم امكانياتهم على الرفض والاحتجاج لم يحاول احدهم المجابهة ولو مرة واحدة مع نظام متسلط وفاسد يذلهم ويقهرهم. حتى اللعب الذي أُختيركشكل لمعالجة البناء لم يسلم من التعطيل والتجريد والتجميد. فاللعب بكافة الوانه واشكاله جدلي لانه يقوم على التنافس والمجابهة والصراع ومن ثم التغيير، نصراً او هزيمة. لكن اللعب الذي تمثل اللعبة ـــ المسرحية ـــ تجرد مسبقاً حتى من نية المجابهة والمنافسة ليكون صورة طبق الأصل من دلالة المقولة المطروحة. ولهذا أضحى مشلولاً، لايتحد ولا يفعل. وترك اللاعبين يائسين مقهورين ومهزومين. عدا الملك السفيه والفاسد. هكذا هبطت الوضعية بعد تفريغها من شحنتها الدرامية وبات حضور المبدأ ـــ الموقف الدرامي مستحيلاً لاضمحلال الفعل وانعدام نقيضه. فأجهض التغيير وعمد الثابت، ولذلك هيمن المبدأ ـــ

الموقف ــ الروائي لكثرة ما توفر في اللعبة من آليات وادوات سردية اخبارية وصفية مترجمة الى حوار او عن طريق الشروح والملاحظات. كلها تتجزأ الى لوحات وفواصل لترتيب البداية والنهاية.

وحين نستقرئ مسرحية الجراد لمحي الدين زنكنة ــ من العراق ــ فسوف نجدها ترتكز على دلالة مهمة توحي بخطر جسيم، مصيري، كما لو أن غزواً خارجياً يكاد أن يطبق على مدينة ما.. أو وطن من الأوطان. تنشطر ميكانيزمات الوضعية الى جبهتين متناحرتين بضراوة، الاولى وهمية يرمز لها المؤلف بالجراد ويصرّ على الايحاء بحضورها الأيهامي في كافة المعارك من بداية المسرحية حتى نهايتها، ومن خلال الوصف التقريري الخارجي والملاحظات والمقدمات والشروحات سواء من قبل المؤلف نفسه او بواسطة احدى الشخصيات:

الزوج: وقد حطت جرادة على وجهه يضربها بعنف، تاتي اخرى، يقاوم بضراوة، يضرب بشدة، الجراد يهجم، يحيط بكل واحد باعداد متفاوتة الكل يقاوم(١٣).

وقد تقوم الشخصية نفسها بهذا الوصف والشرح:

السائق: الجراد.. الجراد.. جراد كثيف.. جراد هائل. هبط كقطعة ليل سوداء.. جثم أمامي كحائط الصلب حاولت اقتحامه(١٤)..

ان معالجة تمثل الجراد ــ ايهامياً ــ مباشرة. واغفال محاولة معالجته مجازيا كما فعل ارستوفان في «الضفادع والزنابير» وسارتر في «الذباب»، جعلت امكانيات هذا التمثل في الفاعلية والتاثير ضئيلة، وهذا ما حمل المؤلف على الاحتماء بالوصف والسرد والاخبار لتلافي النقص والهبوط، تبع ذلك سيطرة اللحظات الماضية على مساحات واسعة من الجبهة، اما محاولة تصميم حركة الفعل، في الحاضر والآن، فهي ضيقة وتكاد أن تقتصر على بضع شخصيات حائرة في مجابهة وهمية لعدو غير منظور..

لو جسدت دلالة الغزو من خلال وضعية مدروسة دراميا وبمنهجية واعية من حيث مشاكلها، وقائعها وشخصياتها لتوفرت على منطلقات اصطدامية وافعال متناقضة في غاية التناحر والمجابهة العدوانية ولتأصلت لبلوغ اعلى المواقف الدرامية.

اما الجبهة الثانية فتتشكل من المواطنين وهم صنفان الأول اعلامي اخباري فردي يشغل اللوحات الثلاث الأولى، يظهر ويختفي دون نسق اوتصميم.. أوكلت اليه مهمة نقل الاخبار، حول حركة الجراد، ومعاركه وضحاياه وانتصاراته. واشد المتحركين من هذا الصنف هم الطبيب، السائق، المزارع، بائع متجول، وكيل متجر، بائع صحف..

ممرضة واطفال مدرسة. جميع افعال هؤلاء محكية وردودهم مروية ماضية وفق توجيهات المؤلف وشروحاته، لانهم بلا مواجهة فعلية.. اما الصنف الثاني فيتألف من ام وابنها وبنتها ويتميز بالفاعلية والتماسك ضمن مسار مرسوم بتصميم دقيق عبر اللوحات الثلاث الأخيرة. ورغم كون وضعية هذه العائلة محدودة نسبياً، إلا أنها لا تخلو من اصطدامات موضعية، اضافة الى مجابهة الجراد الايهامية، تمثلت في مجابهات خامية بين افراد العائلة ذاتها. فتوفرت مواقف درامية مهمة. فالشخصيات اخذت تتناحر بعضها ضد البعض الآخر وتتحد متماسكة في آن واحد نحو حسم هذا التناحر فتوفر صراع واضح ومبرر.. الأم تمنع ابنها وبنتها من الخروج من البيت بعد أن اقفلت الباب باحكام خوفاً عليهما من الجراد والموت كما أنها لا تسمح لأي كان بدخوله لنفس السبب، يحاول الفتى والفتاة الانطلاق الى الشارع لمكافحة الجراد ومساعدة ضحاياه، الا أن الأم تمنعهما بشدة، واذا التمست جارتهم كسرة من الخبز لطفلها الجائع، رفضت للاحتفاظ بالخبز لابنها وبنتها ــ وحين يصل خطيب البنت، الذي استحال الى جرادة بعد أن باع نفسه للجراد ليصطف مع العدو ضد الوطن، يحاول الابن والبنت طرده بقسوة لكن الام تنحاز الى الخطيب وتدافع عنه، دلالة على ضعفها واستسلامها. وفي خضم التناحر الشديد بين أفراد العائلة ذاتها ــ حول المجابهة والاستسلام ــ تختفي البنت وتنهار الام وقبل أن تستجيب الى الخطيب لتنقلب الى جرادة مثله يقتلها الابن ثم يختطف الطفل الجائع ابن جارتهم وينطلق الى الشارع، وبالغاز خاطفة تأجلت دوامة الموت المروية بلا نهاية..

لاشك ثمة أهمية واضحة لجبهة الجراد في الايهام بوضعية الغزو الطافحة بالمشاكل والاضطرابات العنيفة، الا أن غيابها موضوعياً رغم المحاولات الحثيثة للايحاء بها جعل المواجهة أحادية معتمدة على توجهات المؤلف وملاحظاته وشروحاته لتغطية الافعال المخبرية بردود وصفية ومروية وبذلك تهيأت نسبة عالية من السرد والاخبار على حساب الموقف الدرامي الذي اخذ يتراجع ويتضاءل لغلبة الرواية على الفعل وهيمنة التقرير على الجدل. كما ان شمولية دلالة الغزو وانفتاحها على ابواب عديدة دون تخصيص، بالنسبة للمؤلف، اوجدت صعوبات عسيرة في عملية أنتقاء آليات الموضوع. فازدحمت الادوات وتراكمت المواد دون فرز وتمييز بين المهم والاهم، واختزال الفائض والاحتفاظ بالضروري والأساس، ثم بلورته وتعميمه بشكل أعمق و أصدق من خلال التجربة الفنية، لتشييد البناء الدرامي الذي يقوم، من حيث الجوهر، على التكثيف

والتركيز. والدراما بطبيعتها الفنية والفكرية لا يمكن أن تكون مستودعا# لكل مصائب الأمة في حفل لا يتجاوز الساعتين، كحد أقصى. هكذا كانت اكداس المشاكل المتلاحقة والمتشابكة في موضوع المسرحية، وان اتفقت مع سعة الدلالة وانفتاحها، الا انها كانت السبب في ارتباك الاحداث واضطراب الشخصيات وابتعادها عن المسار الدرامي والهدف الفني والفكري في التخطي والتغيير..

- ٣ -

بعد رحلة التنقيب بين فضاءات بعض العينات الدرامية السالفة يمكن تأشير أهم السمات العامة التي تميز آليات بنائها ورؤى ابعادها الدرامية التي تضافرت من أجل تقنيتها وانجاز صياغتها فنياً وفكرياً. ولعل اوضح هذه السمات تتمثل في الآتي من آراء وملاحظات:

عرفت الدراما العربية تطورات كبيرة، من أواخر الستينات حتى الآن، على مستوى التمثيل والاخراج، اضافة الى تصاعد الوعي الدرامي نتيجة الزيادة الملحوظة في افتتاح معاهد التمثيل وانشاء دور العروض المسرحية في العديد من البلدان العربية، الى جانب انتشار البحوث والدراسات النظرية والصحافة الفنية.بيد أن المتتبع الواعي لشؤون الدراما العربية يجدها تعيش متاعب مضنية، فما زالت أسيرة لم تتحرر، كماهيّة، من ارتجال الوصفيات المحددة ـــ الساكنة. ولم تتخلص من هيمنة الجملة الخبرية، السرد، التقرير، الوصف الخارجي، التعلق بلحظات الماضي.. الخ. ولهذا ظلت رهينة لحظات الحكاية المروية الوعظية، فتضاءل الفعل وانعدم نقيضه فتوارى المبدأ الدرامي، وتعطلت نتائجه، لأن الدراما اصبحت قريبة جداً، وعلى حساب خصوصيتها النوعية، من الرواية او القصة، مبدأها السرد المترجم الى حوار ساكن متبادل بين شخصياتها، ضمن وصفيات تقليدية مستقرة لا تتبدل، انطلاقاً من ذهنيات مشوشة ازاء دور الانسان الواعي، والموقف من متطلبات العصر الفكرية والاجتماعية والفنية..

اذا تجاوزنا مظاهر الاشياء الى جذورها واصولها فسوف تجابهنا اسئلة عديدة: كيف ولماذا ظلت الدراما العربية رغم مضي مايقارب القرن والنصف على ميلادها بفضل مارون النقاش، تجتر قوالبها الشكلية التقليدية ومضامينها المنقولة والمحافظة، ماهي اسباب تخبطها وارتباكها في بلورة منظورها وصوغ معايير تقنيتها وابداعها..؟ أحقاً هي

عاجزة ومتخلفة معرفيا وفكريا عن مواكبة التطورات الكبيرة التي انجزتها الدراما العالمية..؟ اين يكمن سر هذا العجز والتخلف ولماذا..؟

لعل معظم الردود والايضاحات بشأن هذه الاستفسارات تندرج في صميم أزمة الثقافة السائدة في البلدان العربية، لاسيما وان الدراما جزء حيوي من هذه الثقافة. ان لم تكن أحد اركانها الاساسية. ورغم اهتمامنا بالعديد من مظاهر الحضارة وما تتوفر عليه من علوم ومعارف وفنون (جامعات مكتبات، استيراد مخترعات). الا أن ثقافتنا السائدة ظلت متأرجحة من بداية عصر النهضة العربية في القرن التاسع عشر حتى اليوم، بين مبدأ الاتباع والنقل وبين مبدأ الابداع والعقل، وهي ـــ أساساً ـــ وبتأثير سلطة القوة أميل الى المبدأ الأول، فقد تعلم الكثيرون القراءة والكتابة وتعرفوا على منجزات حضارية واستخدموها في منافعهم فاصبحوا متحضرين بأزيائهم وبيوتهم ومركباتهم ومآكلهم ومشاربهم. أما روحياتهم ونزعاتهم الكامنة في اعماقهم فقد ظلت عصبية الرأي عشائرية الولاء، اتباعية الادراك مشدودة بقوة الى ما ورث من أعراف ومسلمات من غياهب عصور القهر والانحطاط لأن ما تعلموه لم يُعنَ بالوعي العلمي والثقافة الموضوعية، بل انصرف الى الوصف الشكلي والتقريري من خلال الاهتمام بمظاهر الاشياء دون جواهرها بغية الحفاظ على ماهو سائد ومستقر.. ومن هنا تبدأ معضلة التناقض المبدئي مابين نظرية المعرفة الدرامية القائمة على الشك والنقد والمساءلة والجدل والتخطي والابداع والتغيير وبين مفهوم الثقافة السائدة، الراسخ على اليقين المطلق المؤسس على النقل والتقليد والمحافظ على القديم المتبع، والرافض بشدة لأي مسعى للنقد والتحليل باتجاه البحث عن الجديد. ومما يغذي هذا التناقض ويكرسه هو ان معظم انظمة الحكم القائمة رغم تظاهرها بالحضارة والتقدم فهي (من وراء الكواليس) تدعم الثقافة التقليدية السائدة ولاتتجاوب مع منتقديها من مفكرين ومبدعين ومتنورين إن لم تقمعهم، لأنها تستمد من اتباعية موروث هذه الثقافة مشروعية استبدادها وهيمنتها. هكذا لم تعد احباطات الدراما العربية متأتية من محرمات الثقافة السائدة فحسب، انما من ممنوعات سلطة القوة عندنا أيضاً. فهي تسخر الثقافة بأشكالها، وبضمنها المسرح، في خدمة مصالحها والحفاظ على هيبة نظامها الفردي الشمولي. ولهذا فمن غير الممكن ان تتعايش مع الدراما الفنية، المؤسسة تقنياً وفكرياً على مبادئ وأصول التحليل، الجدل، التخطي، التغيير والتجديد، واذا اضطرت بعض هذه الانظمة الى قبول الدراما كواجهة اعلامية لمجاراة العصر ـــ شكلياً ـــ فهي ترتهن

ذلك القبول بتصفية أو تعطيل تقنيتها المبدئية فكرياً وفنياً لأنها لاتتوخى من الدراما أكثر من حكاية حوارية فوتوغرافية تقليدية سواء أكانت تاريخية، اسطورية، أو واقعية تتغنى بمآثر القديم وتمجد مكتسبات سلطة الحاضر.. وبذلك تتفادى زلازل التخطي وتتجنب عواصف التغيير..

لقد افرز حصار الثقافة الاتباعية المطلقة وضغوط سلطة القوة الاحادية، البطريركية، اتجاهات عديدة في مسار الدراما العربية على مستوى نظريتها المعرضية وآليات تقنيتها المنهجية. فثمة اتجاه راح يتملص بمكر ودهاء من ضغوط وحصار الثقافة السائدة والسلطة القائمة في آن واحد. وبدوافع تجارية غير معلنة، ابتكر حجة استياء الناس من المسرحيات الفكرية المركبة.. والمسرحيات الدعائية والاعلامية المتوترة. والبديل هو الرجوع الى المواضيع الشعبية التقليدية الموروثة، من شقاوة ومفارقات عائلية قبلية وما تعلق بها من أرث وسطو، وحب وثأر، بأطر فكاهية خفيفة مباشرة لا تناقض الاعراف والتقاليد ولاتزعج السلطة القائمة. وهذا كل مايتطلبه الناس من المسرح على شتى مستوياتهم..

وراح اتجاه آخر يدعو الى الانغلاق على الذات والانعزال عن كل ما هو غريب، فهو اتباعي ينفي نظرية المعرفة الدرامية العالمية وما يتعلق بها من آليات تقنية منهجية، باعتبارها معرفة غازية، تهدد الثقافة السائدة وما تشتمل عليه من قيم ومفاهيم موروثة مقدسة. ولهذا فهو يدعو بالحاح الى الرجوع نحو التراث والتنقيب فيه عن أصل عربي للمسرح يكفل تقنية محلية نابعة من تربة الوطن وتقاليده العريقة... فالتأصيل وحده يقهر الغزو الثقافي، ويغني عن التقنيات الوافدة، ويثري الثقافة السائدة أيضاً. منذ الستينات يتناظر أشياع واتباع هذا الاتجاه في المحافل والمؤتمرات المسرحية الحكومية، ويحررون الاف الصفحات تحت واجهات طائفية وعصبية. تنظيراً وتجريبا حول الغزو الثقافي المسرحي والتأصيل..! ولحد الساعة لم تتبلور عند واحد منهم أية رؤية درامية مؤصلة ولا محسّنة على المستويين الفني والفكري، لا في المغرب العربي ولا في مشرقه..

أما الاتجاه الحداثي، رغم ما يعانيه من اعاقة، فهو موضوعي الرؤية علمي الذهنية، يلتزم بانجازات الفكر الحديث ومعطياته التحليلية النقدية والجدلية، ويؤمن بنظرية المعرفة الدرامية ويحترم منجزات وآليات تقنياتها المنهجية باعتبارها موروثاً حضارياً انسانياً مشتركاً، ساهمت في تطورها وتقدمها شعوب مختلفة فهي ملك الجميع وبوسع

أي فنان واعٍ ومتحضر ان يستوعبها ويستلهم منها الآليات والأطر الملائمة لافكاره ومواضيعه المحلية والوطنية. ويبقى حظ هذا الاتجاه مرهونا بمستقبل الثقافة الموضوعية والديمقراطية في البلدان العربية..

وبين الاتجاه الاتباعي التأصيلي والحداثي يتوسط اتجاه توفيقي وسطي فهو لا يرفض نظرية المعرفة الدرامية العالمية، بل يستفيد من بعض آليات تقنياتها لتوصيل أفكاره وآرائه الخاصة من خلال الدراما، ولكنه يتحفظ بشدة أزاء آلية الجدل ــ المبدأ ــ الموقف الدرامي. في تلك التقنية للحفاظ على معتقداته الفكرية والكونية الراسخة من التجديد...

الدراما، كأي فن آخر، عمل واعٍ لا يمكن ان ينشأ بصورة عفوية مرتجلة دون منظومة معرفية وقاعدة نظرية ــ فهو من أشد الفنون حاجة اليها وحرصاً عليها كي تحفظ طبيعتها النوعية وخصوصيتها الفنية، لاسيما وهي تركيب معقد لمجموعة فنون تداخلت وانصهرت في مرجل فني ليعاد خلقها مجدداً كنوع فني متميز. . .

إن عالم الدراما بأسراره وعجائبه، عالم معقد ومدهش ورائع . هذا العالم لايقوم بلا مهندس موهوب مثقف واعٍ درامياً، قوي الحدس، حاد الذكاء، ماهر الاستقراء والاستدلال، واسع الاطلاع، جدلي الفكر، عميق النظر، ثري الخبرة والتجربة الدرامية والحياتية، يستشف المجهول، يحيط بهموم الناس، ويعاني عذاباتهم، يقدس الحياة والحرية والانسان، دون تعصب او انحياز لدوافع طائفية او عرقية، منفتح الروح والعقل يوقن بالتقدم والتغيير، يحترم الرأي الآخر. عند ذاك يستطيع هذا المهندس أن يستوعب روحية الدراما ونظرية معرفتها ويدرك بوعي خلاق نواميسها النوعية الكونية التي هي المنبع والوحي لكل انواع التقنيات الرائعة والفائقة.

الهوامش

(١) مبادئ الفن. ر.ج ــ كولنجوود ــ ترجمة: احمد حمدي محمود. ص. ٢٤

(٢) مدخل الى المأساة ــ التراجيديا ــ الدكتور انطون معلوف. ص ٢٤.

(٣) نظرية الدراما ــ سنيشنا يانوفا. ص ١١٠.

(٤) الحياة في الدراما. أريك بينتلي. ترجمة: جبرا ابراهيم جبرا. ص ١٥٢.

(٥) المسرحية بين النظرية والتطبيق. محمد عنبر. ص ١٦٥.

(٦) علم الجمال. هيغل. جـ ١ ـــ ص ٣١٠.

(٧) من فنون الأدب / المسرحية. اندكتور عبد القادر القط. ص١٢٠.

(٨) المماليك عبيد اتراك: جراكسة ومغول جندهم الايوبيون في الجيش واستولى بعضهم على الحكم في مصر ١٢٥٢–١٥١٧ وبسطوا نفوذهم على سورية. قضى العثمانيون على دولتهم الا ان اعيانهم ظلوا مصدر فتن واضطرابات، حتى تخلص منهم محمد علي باشا في مذبحة القلعة المشهورة في القاهرة ١٨١١ تميز عهدهم بالفوضى والارهاب والعنف والاغتيالات ـ المنجد في اللغة والاعلام ص ٥٤٦ دار الشرق ـ بيروت.

(٩) السلطان الحائر ـــ توفيق الحكيم. الفصل الثاني، ص ١٢٠.

(١٠) الملك هو الملك سعد الله ونوس ص. ٧.

(١١) الملك هو الملك سعد الله ونوس ص. ٨.

(١٢) الملك هو الملك ـــ سعد الله ونوس. ص ١٠٩.

(١٣) مسرحية الجراد ـ محي الدين زنكنة. اللوح الثالث ٦٨.

(١٤) نفس المصدر. ص ٤٨

وهران ـ الجزائر
١٩٩٦/٥/٢٧

إصدارات وردتنا

سنابل : شهرية للأطفال ، النرويج ، العدد ٣ ، (يحررها صافيلو) .

عشتار : العدد ١٨ ، أستراليا ، بمساهمات لحسين الشويلي ، طالب العبودي ، عدنان البرزنجي ، عبد الغني الخليلي ، مازن يوسف تلّو ، مريم جوزيف ، ابراهيم أحمد ، حسن ناصر حسين ، آن فيربيرن ، مشرق الغانم ، ناجي حسين ، جمال كاظم ، فاهم ادام ، كاظم طوفان ، هادي العلوي ، انعام الصفار ، عبد الوهاب طالباني ، علاء مهدي .

الوركاء : العدد ١١ ، بمساهمات لفائز الزبيدي ، كاظم حبيب ، كاظم الحلاق ، بزار الاربيلي ، هـ .ك . اندرسن ، عبد الوهاب البياتي ، فاضل العزاوي ، يحيى السماوي ، فاضل السلطاني ، توفيق عبد العظيم ، هادي المهدي ، صباح المندلاوي .

بدايات القصة والرواية في العراق

د. علي ابراهيم

هل للرواية والقصة جذور في التراث العربي؟ في الإجابة على السؤال انقسم الكتاب الى فريقين: ـــ الأول يرى ان الرواية والقصة منقطعتا الجذور عن التراث العربي وقد وصلتانا عن طريق الترجمة او الاتصال المباشر. ويرى الفريق الثاني أن القصة والرواية المعاصرتين، هما امتداد للبدايات القديمة المتمثلة بالحديث النبوي وقصص القرآن والمقامات وباقي القصص الشعبية وغير ذلك من الأساطير على مر العصور. يقول جورج لوكاتش ان الرواية بالمفهوم الغربي ظهرت في القرن الثامن عشر مرتبطة بالتطور الصناعي والاجتماعي الذي حاولت الرواية عكس سماته، فانبثقت تقنيات حديثة متأثرة بالمدارس الفكرية والاجتماعية والسياسية، وظهرت المدارس الادبية ابتداء من الرومانسية والواقعية والتسجيلية والواقعية الاشتراكية وانتهاء بالموجات الجديدة.

الرواية العربية بدأت في القرن التاسع عشر متأثرة بالرواية الغربية. ومن خلال دراسة ابرز اعلام القصة والرواية العربية امثال نجيب محفوظ، حنا مينا، الطاهر وطار، غائب طعمه فرمان والآخرين، نجد أنهم كتبوا رواياتهم متأثرين بالادب الغربي، علماً انهم درسوا الادب العربي القديم الذي يعتبر جزءاً أساسياً من ثقافتهم. لقد اختاروا مضامين محلية وكتبوا اعمالهم على غرار الرواية (أو القصة) الأوروبية.

أما المحاولات الأولى التي حاولت أن تختط لها طريقاً مستقلاً مستندة على القص

العربي القديم فلم تستطع أن تخلق عملاً روائياً كبيراً يوازي الاعمال العالمية، واصحاب هذا الاتجاه يعتبرون سليم البستاني ومحمد المويلحي في روايتيهما «الهيام في جنان الشام» و «حديث عيسى بن هشام» أول من حاولا كتابة الرواية بمعزل عن التأثر الغربي. ثم جاءت بعد ذلك الرواية التاريخية التي تناولت قصص العرب ورجالاتهم المشهورين وكان رائدها جرجي زيدان. ويمكن القول ان «القصص» و «الروايات» التي حاولت أن تكون امتداداً لتراث القص العربي، هي عبارة عن مقامات متجددة أو حكايات تختلف عن القصة والرواية الحديثتين من حيث التكنيك الفني.

وهناك فريق ثالث حاول أن يوفق بين الاتجاهين السابقين فهو لا يعتقد ان القصة العربية في شكلها الحالي هي نتيجة للتأثر الأوحد بالقصة الغربية، ويرى أن القصة في جذورها الاولى، وفي الشكل الذي ندعوه بالقص الساذج، تلتقي في كثير من السمات مع القصة الغربية عندما نعرف ان قصص «الديكامرون» أو «المائة قصة» لجيوفاني بوكاتشيو في القرن الرابع عشر، مبنية في شكلها ومضمونها حسب البنية المعروفة في الألف ليلة وليلة فلا يحق للباحث الموضوعي ان ينكر أهمية هذا الأثر الذي اطلع عليه عمالقة الأدب العالمي، ولايمكن ان نقلل من شانه ازاء ما ذكر من بدايات القصص العالمية ولكن يبدو ان هناك انقطاعاً في التسلسل التدريجي لتطور القص العربي ارتباطاً بانقطاع التطور الاجتماعي والحضاري خلال الفترات المظلمة التي مرت بالعالم العربي. ان التاريخ العربي لا يخلو من القص فهو مرتبط بنشوء الأمم، وأن جذوره تمتد الى آلاف السنين في أدب قدماء المصريين والاقاصيص الهندية على ألسنة الحيوان وفي الأدب الاغريقي. واول الوان القصة ظهرت في العراق قبل ما يقارب الخمسين قرنا متمثلة بالاساطير السومرية وعلى رأسها ملحمة گلگامش.

ما تقدم يؤكد أن القصة والرواية بشكلهما الفني الحديث ظهرتا في الأدب العربي نتيجة لتأثرهما بالقصة والرواية الغربيتين، ولذا اجمع النقاد على اعتبار أن رواية «زينب» لمحمد حسنين هيكل هي أول رواية ظهرت في الأدب العربي الحديث، ويعتبر بعض النقاد ان الكتاب الذين يؤرخون بدء الرواية العربية بظهور «زينب»، انما يرجعون ظهور الرواية العربية الى تأثيرات غربية صرف، وهم من ناحية يتجاهلون آثاراً روائية او محاولات كثيرة سبقت ظهور هذه الرواية. غير أن جورج سالم احد الدين ذهبوا هذا المذهب يعتقد ان الأعمال التي ظهرت في القرن التاسع عشر سميت رواية تجاوزاً لأنها في حقيقة الأمر نوع من القصص يشكل مرحلة انتقالية ويمكن اعتباره انهاء للفن

القصصي القديم واعلانا عن موته وارهاصاً لفن الرواية الحديثة.

***

في دراسة عبد الإله احمد القيمة «نشأة القصة العراقية وتطورها في العراق» يقول «ان الأدب العراقي الحديث، انما هو في حقيقته شعر وقصة، لاشعر ونثر» وهو بذلك يؤكد على ضعف النتاج الأدبي العراقي في مجال المقالة والمسرحية والنقد. وسنحاول متابعة بدايات القصة منذ نشأتها الأولى في القرن التاسع عشر. ففي تلك الفترة كتب ابو الثناء الآلوسي مقامته الموسومة «سجع القمرية في ربع القمرية» التي اعتبرها عباس الغراوي أول قصة حياتية من نوعها تهدف الى الاصلاح كما فعل الغربيون، فكان باني القصة في العراق، لانه بذل جهداً واضحاً من أجل تطوير المقامات، معتمداً مضامين نفسية واجتماعية متجاوزاً الموضوعات الخيالية. لكنه لم يستطع أن يفرق بين القصة والرواية والمقامة، ففي تعريفه للمقامة يقول «ان القصة رواية جعلها في عداد المقامات» ورغم هذا التركيز على دور أبي الثناء الآلوسي في تطوير المقامة، إلا أن ما قدمه من نتاجات لم يبتعد كثيراً عن الموروث من الأدب العربي. لكن هذه المقامة ليست اول محاولة في القصة العراقية الحديثة. كان د. يوسف عز الدين يعتبر ابا الثناء الآلوسي رائداً للقصة وسار الدارسون على هذا الاستنتاج، إلا انه وجد فيه طابع الاستعجال فعدل عنه واعتبر ان ما نشر في «صدى بابل» مترجماً يشكل البدايات الطبيعية للأدب القصصي بضروبه المختلفة. وهنا نتفق على ان مقامات ابي الثناء الآلوسي ليست رائدة القصة ولا مؤرخة لها، إلا أنها خطوة باتجاه تجاوز اسلوب المقامات.

أما في القرن العشرين فان النشاط الفكري والثقافي في العراق ظهرت بوادره وتنامت بعد اعلان الدستور العثماني لعام ١٩٠٨ وشمل المجالات الأدبية ومن ضمنها القصة. وهنا لابد من الاشارة الى اننا اذ نركز على الجانب الفني، لا ننكر دور الجانب الفكري اذ أن القصة في العراق ولدت وهي تحمل رسالة اجتماعية ــ سياسية. وان جميع رواد القصة كانت لهم ميولهم، بل ان بعضهم قادة تجمعات واحزاب سياسية، فكانت نتاجاتهم وعاء لنقل افكارهم بغض النظر عن ضعف وسائلهم وأساليبهم الادبية. فكان القاص يمارس دور الناقد والمفكر والواعظ الاجتماعي في آن واحد. والقصة العراقية الحديثة ارتبطت بالجديد فكرياً وفنياً بسبب تأثرها بالقصة الغربية كما اسلفنا.

ومن الصعب تناول نشأة الرواية بمعزل عن القصة بسبب تداخل الفنين ولان اغلب الرواد كتبوا القصة والرواية وبعضهم لم يكن يفرق بين القصة والمسرحية والرواية.

وبعد الاحتلال البريطاني نشطت حركة التمثيل للتعبير عن سخط العراق وتبرمه بهذا الاحتلال فكثر ما يسمى بـ «الروايات المسرحية» التي حملت في طياتها الفكر العربي والتراث الاسلامي لاثارة الحماسة في النفوس وتملأها بالأمل.

لقد تأثرت بداية الرواية العراقية بالقصة التركية الحديثة والرواية المصرية وادب جبران خليل جبران وتأثرت بشكل كبير بالرواية الغربية المترجمة. ولأول مرة ورد مصطلح «رواية» في المجلة التي اصدرها المعلم داود صليوا عام ١٩٠٩ والتي عرفها بـ «مجلة فكاهية ذات روايات غرامية ادبية ووقائع تاريخية» واطلق اسم رواية على قصة «رواية بعض الظن اثم» ويبدو انها مترجمة لان جميع الاسماء التي وردت فيها اجنبية وتدور حوادثها في برلين. ونشرت جريدة «صدى بابل» عام ١٩٠٩ في عددها الأول رواية «العدل اساس الملك» وهي مترجمة ايضاً. وهناك محاولات جرت في العهد العثماني من قبل الجاليات التبشيرية في الرواية والمسرحية. وكتب سليمان الدخيل قصة «ناظم باشا» وسماها رواية أدبية تاريخية اجتماعية سياسية. وقد كتبت باسلوب ساذج.

ان د. يوسف عز الدين يعتبر كل هذه المحاولات البدائية أشبه بمقالات وان سميت روايات إلا أنه يعتبرها المرحلة الأولى بينما قصص الرؤيا هي الخطوة الثانية في تطوير الأدب القصصي وهنا يختلف مع عبد الإله احمد الذي يعتبر قصص الرؤيا هي المرحلة الأولى في القصة العراقية. وهي حكايات يدعي كاتبها انه رآها في منامه، كتبت هذه القصص بين ١٩٠٩-١٩٢١ وكانت اولاها «رؤيا العربية» ونشرت دون اسم كاتبها، وآخرها «وقفة على ديالي وحديث مع فينوس» نشرت باسم مستعار هو (عراقي امين) ويظن انه عطاء أمين. ومن سمات هذه القصص استخدام الاحلام للدلالة على الواقع الاجتماعي المعاش للتخلص من الرقابة الاجتماعية والرسمية، اعتماد اسلوب السجع، الاستفادة من الشعر العربي لدعم موضوع القصة، الوعظ المباشر، تدخل الكاتب وخاصة في النهايات والاستفادة من حكايات الف ليلة وليلة.

ولم يخرج كتاب قصص الرؤيا عن هذه الأُطر عدا عطاء امين في قصتيه «لوحة من ألواح الدهر أو فصل من رواية الحياة» و «عاقبة الحياة». وقد اعتبرها عبد الإله احمد اول محاولة جادة في القصة العراقية. لكننا لاحظنا أن كثيراً من سمات قصص الرؤيا

المذكورة تنطبق عليها، رغم ان موضوعيهما تجاوزا اطار قصص الرؤيا وتناولا أحداثاً واقعية، ويبدو أن عطاء امين كان متأثراً بالمسرح الذي ظهر في العراق قبل القصة القصيرة والرواية فنراه يستخدم الحوار بكثرة.

ويعتبر عبد الإله احمد الباحثين الذين أرخوا للقصة العراقية قد وقعوا في خطأ إذ اعتبروا ان القصة العراقية بدأت بعد الحرب العالمية الأولى بمحاولات محمود احمد السيد، لان محاولات عطاء امين هي البداية الحقيقية للقصة العراقية، لكنه يؤكد في موضع آخر من دراسته ان القصة والرواية فعلاً بدأت بعد الحرب العالمية الأولى. ونلاحظ ان عطاء امين الذي يستشهد به الكاتب كتب انضج قصتين له عام ١٩٢٠.

كما أن عبد الإله احمد لا يعتبر سليمان فيضي رائداً للقصة القصيرة بل للقصة الطويلة او الرواية، وفي الواقع ان عمله الوحيد «الرواية الايقاظية» الصادر عام ١٩١٩ هو تطوير لقصص الرؤيا. فقد اعتمد الحلم أيضاً لكنه لم يشر اليه سوى في المقدمة واعتبرها البعض اول رواية عراقية على الرغم من انها تفتقر لمقومات القصة، وعدها بعض الباحثين من المسرح.

بعد «رواية» سليمان فيضي بثلاث سنوات نشر محمود أحمد السيد روايته الأولى «في سبيل الزواج» عام ١٩٢١ والثانية «مصير الضعفاء» عام ١٩٢٢، والثالثة «النكبات» وتنكر فيما بعد لهذه الأعمال واعتبرها روايات «غرامية فاسدة وسخيفة».

وظهرت «روايات» اخرى نذكر منها «عجائب الزمان» لآكوب كبرائيل، «تحت ظل المشانق» لعبد الرزاق الحسيني عام ١٩٢٤. «في الفرات الأوسط» لمحمد حسن القطيفي عام ١٩٣١، «العفة اوفريد وجميلة» لمحمد بحر العلوم البصرة ١٩٣١، «رنة الكأس» لعلي الشبيبي و «البنادق المسروقة» لصبري عبد الله عام ١٩٣٩، وكلها بدايات ساذجة تفتقر الى المقومات القصصية الفنية.

ومن خلال الجرد الذي اجريناه للنتاجات الأدبية وكتابها معتمدين على «معجم المؤلفين العراقيين في القرنين التاسع عشر والعشرين ١٨٠٠–١٩٦٩» لكوركيس عوّاد و «الادباء العراقيون المعاصرون وانتاجهم» لسعدون الريس و «فهرست المجاميع القصصية والروايات» و «فهرست القصص والروايات المنشورة في الصحف والمجلات العراقية» الملحقين بدراسة عبد الإله احمد (المصدر الذي ذكرناه) ظهر لنا عشرة كتاب وهم حسب الترتيب الزمني لظهور نتاجاتهم: محمود أحمد السيد، جعفر الخليلي، عوني بكر صدقي، عباس حلمي الحلي، يوسف هرمز، خليل عزمي، آكوب

كبرائيل، يوسف حناني اسحق، جودي عيسى قلاب، محمد بسيم الذويب و ٣٨ كاتباً ممن نشروا قصصاً في مجلات تلك الفترة وثمانية اعمال نشرت بدون ذكر اسم كاتبها. ومن هذه الأعمال روايات نشرت على شكل مسلسلات. وبرز من القصاصين فيما بعد انور شاؤول، شالوم درويش، وسليم بطي. ولاحظنا أن اغزرهم انتاجاً هو محمود احمد السيد الذي صدرت له خمسة كتب قصصية، بينما لم يكتب الآخرون سوى كتاب واحد لكل منهم ثم اختفوا عن الساحة الأدبية نهائياً، فلم يواصل سوى محمود أحمد السيد حتى وفاته في الثلاثينات، وجعفر الخليلي الى الخمسينات وانور شاؤول وشالوم درويش حتى الاربعينات. وفي الثلاثينات ظهرت اسماء اخرى ساهمت في إرساء اسس هذا الفن وتوسيعه وهم: ذو النون ايوب، عبد الحق فاضل، عبد المجيد لطفي، خالد الدرة، ابراهيم حقي محمد. ويمكن اعتبار هؤلاء جميعاً رواداً للقصة العراقية وفي مقدمتهم محمود احمد السيد الرائد الأول لأنه اول من حاول كتابة القصة الفنية في العراق. وهو أول ممثل لنهج التفكير الواقعي الاجتماعي. تمثل هذا النهج بروايته المهمة «جلال خالد». وهي من الناحية الفنية قمة ما وصل اليه في مرحلته الثانية، رغم انه لم يسمها رواية بل «قصة عراقية موجزة» وقال عنها أنها «لايجازها لاتماثل القصص التحليلية الكبيرة.. فانت تراها أشبه بالمذكرات أو الحديث» وفي مكان آخر يؤكد «وتصح هذه القصة الموجزة التي أشبه شيء بالحديث (نوفل) لأن تكون أساساً لقصة مطولة وافية (رومان) قد اكتبها في المستقبل». ويظهر من هذا أن محمود احمد السيد كان عليماً بأصول الفن الروائي إلا أن أدواته الفنية كانت قاصرة، فحاول ان يغطي على هذا النقص بهذه التعليلات.

وفي الأربعينات حصل ركود في النتاج الأدبي وسببه ليس فقط الحرب العالمية واضطرار بعض الصحف الى التوقف او اصدار نصف العدد المطلوب بسبب شحة الورق كما ذكر البعض، بل كذلك ان هذه الفترة كانت عاصفة بالاحداث، انتفاضة نيسان ١٩٤١، وثبه كانون ١٩٤٨، اضرابات متكررة، اعتقالات واعدامات واغلاق صحف، كل هذه الاحداث لم تدع مجالاً لاستيعاب هذه الاحداث واخراجها بعمل قصصي او روائي. ان تلك التجارب اختزنت في الذاكرة ولم تتفجر إلا في الخمسينات التي تميزت بغزارة النتاجات ونوعيتها وتكاد أن تكون البداية الحقيقية للقصة الحديثة. فقد ظهر في هذه الفترة ادمون صبري، غائب طعمه فرمان، مهدي عيسى الصكر، محمود الظاهر، عبد الرزاق الشيخ علي، حازم مراد، نزار عباس، حربية محمد، جبرا ابراهيم جبرا، بالإضافة

الى آخرين واصلوا الانتاج نذكر منهم جعفر الخليلي (من العشرينات)، عبد المجيد لطفي، عبد الحق فاضل، ذو النون ايوب، خالد الدره، ابراهيم حقي (من الثلاثينات) عبد الملك نوري، شاكر خصباك، عبد الله نيازي، صفاء خلوصي، حسام الدين نامق (من الاربعينات).

وبودي الإشارة الى نشاط القاصة العراقية التي غابت في البدايات لاسباب تتعلق بالتخلف الاجتماعي والامية، إلا أننا وجدنا لها حضوراً منذ الخمسينات متمثلاً بحرية محمد، وفيما بعد ظهرت اسماء اخرى سجلت تواجداً على الساحة الأدبية مثل بثينة الناصري، ديزي الأمير، سالمه صالح، لطفية الدليمي، سهيلة داود سلمان، بلقيس نعمه العزيز، سهيلة الحسيني، ميسلون هادي وسواهنّ.

حوار مع القاص والروائي العراقي شاكر الانباري

رواية «ألواح» فضاءات الكتابة البصرية

اجرت الحوار سعاد جروس*

اهتمامك بالغ بمسألة اللغة، والمطلع على أعمالك يلاحظ تطورك باتجاه لغة تشكيلية بصرية بكلمات اكثر منها لغة أدب فقط، خالية من الالاعيب اللغوية. كيف وصلت الى هذه المرحلة وماهو مفهوم اللغة لديك؟

اللغة عندي حياة، بكل ما تعنيه الكلمة، ليست أداة تواصل فقط، بل هي أيضاً فكر وفلسفة وفن، وهي لعب ومرح وحرية مطلقة، امارسها في مغامرة الكتابة، اخلق بها، وابدع عالمي الذي اريده. انها تغذيني بهاجس الخلق، أي ترتفع بي من منزلة الإنسان العادي، ذي الحاجات اليومية والمشاعر المألوفة، الى منزلة الانسان الخالق، الصفة التي نشترك بها مع الخالق الأكبر، نحن ابناءه. كل كلمة أو جملة لها مذاقها الخاص، وجودها المتفرد في بناء النص، قصة «أو رواية»، لذلك اختار مفرداتي بدقة، المفردات الدالة على اللون والطعم والفكرة، او المميزة بوقعها الموسيقي. وهذا الاختيار غير المجاني، للكلمة او الجملة، والاختيار الصائب في موقع وجودها، ربما هو الذي يجعل منها لغة تشكيل لها القدرة على الاسماع والابصار واشباع الحواس اجمع. واللغة التشكيلية قريبة من هذا المفهوم، لغة اللون، والمفردات والخطوط والفضاءات.. الخ. تتضافر كلها لابتداع المعنى وتوصيل الرسالة الى الآخر، المتلقي.

---

* صحافية سورية

هل تعتقد فيما لو نقلت روايتك «الواح» الى لغة اخرى ستبقى كما هي أم أن كثيراً من الأشياء المتعلقة باللغة خاصة ستسقط من النص؟

لا أعتقد أن ذلك سيؤثر سلباً على الرواية، فهي ليست رواية شعرية، مثقلة بالانشاء العربي التقليدي، بالعكس، جملها تتناغم تماماً مع الفكرة أو الموضوع الذي تروم معالجته، ربما تمتلك شيئاً من محلية المكان والشخصيات والاحداث، لكنها تتضافر كلها لرسم لوحة عابقة بالالوان والرؤى والاحلام والانكسارات لمرحلة مهمة من تاريخ البلد، المسمى العراق، وأظن أن القارئ المغاير لنا حضارياً سيجد متعة فيما يقرأ، لأنه يطلّ على مشهد لم يأت في نشرات الاخبار أو التحقيقات الاعلامية أو تقارير الدبلوماسيين، النغمات الداخلية لشعب هبطت به الأحداث، المعروفة، الى جحيم الكارثة. المادة المطروحة، فنياً، على الصفحات، لن يجدها في مكان آخر على الاطلاق. الوردة الذابلة بفعل دخان المعارك، الكابوس في رأس بائع شاي، عشتار، ربة الخصب وهي تتمختر في شوارع بغداد القديمة، سقوط بغل مثقل بالاحمال من قمة جبل، جثة رجل ملقاة على الطريق، تمثال لرجل مشوّه في غرفة، وهكذا. بنية قائمة على حبكة التفاصيل الصغيرة، والحركات الموسيقية المختلفة الرنين، والتي تكوّن، بالنهاية، سمفونية رائقة.

بعض الالواح اتت متطابقة مع بعض اللوحات لفنانين معروفين، الحلم مع نذير نبعة، الرجل الطاغية مع يوسف عبدلكي، سقوط البغل مع خزيمة علواني. ويلاحظ تاثرك الواضح بالفن التشكيلي من خلال صياغات اللون للحالة، أو لرائحتها، والتكوين التشكيلي فيها، وكما هو معتاد أن نرى الفن التشكيلي يستقي من الادب لا العكس. برأيك ما خصوصية التعامل الأدبي مع التشكيلي في صياغة الرؤية الفنية؟

كتبت رواية الواح بعد أن قرأت كثيرا من الكتب، بينها كتب عن الحالة اليومية للشعب في ظل الحرب كتبها مراسلو CNN ، وقرأت كتباً عن أصول القبائل العراقية والطوائف والاديان وطقوسها، كما استفدت من القصص التاريخية المتداولة في المكان، وخلال سنتين من عيشي في جو كتابة الرواية وظفت كل ماتقع عليه يدي لكي استخدمه في النص، وكان من بين ذلك لوحات نذير نبعة، بعد ان احسست أن فيها تقاطعا مع حالة الحلم، التي عاشها بطل الرواية، ونساء نذير نبعة في لوحاته يبرزن من عالم سحري وحلمي، فيه سلام ومحبة وخدر، وهو ماكان يتوق اليه بطل الرواية في الحياة الجحيمية

التي عاشها. أما الرجل الطاغية ومواصفاته لدي فقد تشابهت بالصدفة مع نموذج يوسف عبد لكي، وربما جاءت الصدفة بسبب تقاطع ضرورتين، كما يقال فلسفياً، اي اننا، كفنانين او كتاب، نطمح الى الانتقام من ذلك النموذج بتأطيره ونزع صفة القداسة عنه والسخرية منه أيضاً، وليس من الغريب رؤيته في الاعمال التشكيلية والمسرحية والشعرية وباقي الفنون. يمكن القول أيضاً ان الفنون اجمع، راحت تعيش امتزاجا وتداخلا وتبادل ادوار، اخرجها من خصوصيتها الصلبة، الخاضعة لقوانين ثابتة. وبما انني امتلك ذائقة حسيّة في التعامل مع النص الروائي، وامتلك هوى فطرياً بالفن التشكيلي، فيمكن تخيل التواصل لاحقاً، وقد بان ذلك في ترقيش الجملة بمفردة لونية وحسية ذات وقع، اختيرت بدقة اختيار الالوان لصياغة جملة لا يعبرها القارئ الا وتعثر بها، وكأنها حبيبة تناديه الى أحضانها بشوق التواصل.

عالجت فكرة الموت او مابعد الموت كامتداد للحياة الواقعية، والوصول للحديث عن الواقع بتجريد عال لابد أن نعبر نفق الموت. هل من الممكن الحديث عن معنى هذا الموت، وهل هو ضروري لنكون اكثر شمولية وحكمة في فهم الحياة. . .؟

الموت لغز، منذ ان وعى الانسان كينونته كانسان عاقل ظل الموت عالما غامضاً، يستعصي على الفهم- في الاديان والفلسفة والطقوس، كان لجانب الحياة ما بعد الموت فسحة واسعة من نشاط الذهن. وفهمته الشعوب بمقاربات متباينة، مضحكة أحياناً وأحياناً مأساوية أو بهيجة. وثمة من افترض أن الموت لا يعدو أن يكون حالة من حالات التحول يعيشها الكائن. انه برزخ للعبور الى مستوى آخر من الوجود. من هنا حولت هذا الاعتقاد الى واقع مفترض، اي تخيلت البطل واحدا من مريدي تلك الفكرة، لتعميق الحس الدرامي في الرواية، ووسيلة لتوحيد اطرافها المتشعبة. أما رمزياً فكان الموت صدمة اخرجت الانسان من فهمه القديم للاشياء الى فهم آخر أكثر اتساعا، بسبب قوة تلك الصدمة، كما كان محاولة لفتح عالم جديد فوق واقعي يستطيع الانسان ضمن مواصفاته رؤية المستقبل والحاضر والماضي، رؤيتها ببصيرة حادة وفهم. كما يحصل فيه اختلاط الازمان والامكنة والاحداث، لأن الكائن، الروح، الطيف، ذاكرة متأججة فقط علقت في تلافيفها حتى التفاصيل الصغيرة.

تتقاطع مع الديانات البوذية أو الشرقية فيما يتعلق بمسائل الموت أو الحياة والتناسخ.. لماذا تتجه نحو هذه المعتقدات، تحديداً، كأساس ثقافي لاعمالك؟

لدي قناعة متأصلة بأن كل ما انتجته البشرية من اديان وثقافات هو ارث لي، وامتلك كامل الحق باستخدامه وتوظيفه في الكتابة. كذلك، فان الاقتراب من فلسفات شرقية مثل تلك، واعني بالفلسفات وجهات نظر متكاملة عن معنى وجود الانسان ومبرر وجوده ورؤية الحياة في جريانها اليومي، وعلاقة الانسان بالاشياء، وهي تفتح نافذة جديدة يطل منها القارئ العربي على انماط اخرى من التفكير والرؤى. والديانات التي ذكرتها تقترب كثيراً من قطاعات من الفكر الاسلامي وبعض من طقوسه، مثل الصوفية والاشراقية والحلولية. ومرجع كل شئ الى النور الأعظم، بادئ الخلق ومبدعه، وأنا، وإن اقتربت في بعض الصور والشطحات الروحية في كتاباتي من المفاهيم البوذية والشنتوية والمانوية، لكنني لا اؤمن بها بالضرورة، إذ تظل نافذة للتأمل وافتضاض اجواء جديدة. انا أميل الى الذهنية العلمية في النظر الى الاشياء، بحكم دراستي للهندسة المدنية، لكنني لا أغفل جانب الحلم واللاوعي والحدس والتأملات والحقيقة المتعددة الأوجه والاحتمالات، وفقدان الحدود احيانا مابين الواقع والخيال، او الحقيقة والاوهام المنتجة من قبل العقل البشري.

انحيازك لوصف وتسمية المكان واضح، حتى أنه أتى على حساب الزمن الذي موّهت ملامحه ضمن ملمح حقبة زمنية معينة، لتبدو اعمالك مغرقة بالمحلية المكانية. ما اهمية المكان في العمل الادبي...؟

المكان، ابنية وشوارع ومدارس وانهار وغابات وجبال وشموس وليال وروائح وطعموم ومشاهد بصرية، هو ماء الرحم الذي يسبح فيه الانسان، ابن المكان، وطفله. من كل ذلك تتشكل لديه أحاسيسه وعواطفه وملامح وجهه وانفعالاته. وليس من السهل انفصال الاحداث التي تجري لشعب ما، أو انسان ما، عن المكان، عن المكان ذاك. فالجو القصصي او الروائي حركة مكانية وزمانية يؤطرها التاريخ. وأنا، ككاتب، أرغب بخلق ذلك الجو ثانية، تحويله من وجود واقعي ملموس الى وجود فني، خالد، أو هكذا اطمح له أن يكون. وما دامت كتاباتي تتجه ذلك الاتجاه، الحسي، التشكيلي، فانها تعتمد المكان مادة اولية لعملية الخلق. واذا كنت لا امتلك مادة اخرى غير المكان المحلي، خاصة وان

الرواية تتناول احداثا محلية، لذلك كان للمكان نكهة حادة في عملي المدعو «الواح». انني لا أكتب عن اشكالية فلسفية لدى الشخوص، ولا عن تحولات الذهن، بل عن تحولات مكان، انهياره، ولادته بشكل جديد، هويته في ظل كوارث ومآس، ظلاله والوانه المتناغمة مع ما يحسه انسان ذلك المكان من أمل ويأس، مشاعر موت وفرح واحلام وخيالات. والمكان، أخيراً، هوية، الجذور المعبأة برحيق الحياة الوارفة ابداً والتي لابد لها أن تنمو مهما عصفت بها امواج الخراب.

هل ترى ان ذكر اسماء الشخصيات لرسم ملامحها الشخصية مهم في العمل الروائي، خاصة وانك تبتعد عن تسميات جميع الشخصيات باسماء علم... وما هي المسميات الممكنة للشخصية؟

لو رجعنا الى الروايات الكلاسيكية، كما عند دستويفسكي أو نجيب محفوظ، لشاهدنا أن الكاتب يخلق شخصيات روائية، بملامح محددة وافكار تميز بعضها عن البعض، وتنامي الرواية متأت من صراع تلك الشخصيات او تقاطعها او تنافرها، تتخلق عقدة الرواية او محركها الذي يقودها الى النهاية. لكن الرواية الحديثة ابتعدت تماما عن هكذا نمط، لم تعد رواية شخصيات متماسكة، خطية التطور، واضحة الرؤى. نحن نعيش تمزق الشخصية، طفوها في المكان والاحداث، تحولاتها الكونية وخروجها من جلودها المحلية التي توارثتها مئات السنين بسبب العزلة والتخلف. نحن أمام انسان غير متماسك، شاك في قدراته، يعاني من هيمنة المجموع، الانسان المديني، ابن الكرة الأرضية، برمتها، الذي راح يمد ابصاره الى الكون ايضا. من هنا لم يعد ذكر الاسم مهما لتحديد ملامح. التطور المعاصر يقضي على الخصوصية الفردية، يساوي التعابير وانماط الفكر وحتى الخيالات احيانا. لماذا؟ لاننا نعيش مرحلة قفزة حضارية هي الاولى في تاريخ الجنس البشري. ما يهم هو موقع ذلك الفرد في اجواء عصره، دوره، تمثّله لتلك التطورات. ففهم شخص واحد، وان كان غفل الاسم، يضيء تاريخ مكان برمته، لقد اصبح اي شخص شريحة مختبرية تروي الكثير مادمنا نمتلك وسائل الرؤية والكشف.

كتبت ثلاث مجموعات قصصية وروايتين، مادور القصة في بناء العمل الروائي..؟

كان الانتقال من كتابة القصة القصيرة الى الرواية انتقالاً طبيعيا. لم تعد القصة

القصيرة تستوعب ما اطمح الى قوله. ومديات الحرية في الرواية أكبر مما هي عليه في القصة. القصة القصيرة لا تستوعب الفنون الاخرى التي استفيد منها، كالفن التشكيلي واللقطة السينمائية والاساطير والتراث وحكايات المكان الذي كتبت عنه. فالقصة حساسة جداً مثل جوهرة، لايمكن اللعب بها. الاهتمام بالمفردة وموقعها داخل الجملة، الاهتمام بالجملة كحامل للنص الأكبر تعلمته في كتابة القصة القصيرة، وادخلته في الرواية ايضا، فاللغة في «الواح» تلعب على لغة القصة القصيرة ولغة الرواية، في توازن قلق لا اعتقد ان من السهولة الحفاظ عليه بامتداد مئتي صفحة.

لا نكاد نلمح أي اثر لحلم او كوميديا او فرح يريح قارئك. فاجواؤك خانقة. ألا تعتقد ان ذلك عبء على القارئ؟ ان تجعله كئيباً طوال فترة قراءة العمل؟

لا أفكر بمزاج القارئ حين أكتب، اشكل العمل على هوى مزاجي أنا. والنص هو الذي يفترض ملامحه او يكونها. ولا يخفى ان قراءة نص جميل في لغته وحركته ولعبه تدخل اقصى المسرّة في قلب قارئ فضولي، جاد، حساس، حتى وان كانت الكتابة عن أحداث مأساوية او بشعة. فصياغة البشاعة باسلوب جميل ممتع، فن رفيع يغازل مطمح الانسان الى الارتفاع درجة ولو بسيطة عن هيمنة الواقع. الكوميديا تعني اللعب، وفي «الواح» يجد القارئ أقصى مدى للعب، لعب مع الزمن، مع الاحلام، مع صلادة الواقع، مع الاسطورة والوصف والحياة، واخيراً لعب مع الموت نفسه، وهذا امتع لعب يعيشه الانسان فيما لو واتته الشجاعة على ممارسته.

دمشق ١٩٩٦/٧/٣

هَمسٌ مُقْتَضَب

يحيى علوان

- «الاشجار تموت واقفة» . لا تحني هامتك . درِّب نفسك على المشي مرفوع الرأس .
- في كل قصيدة عنقاء . شاعر .
- مَنْ يسبح ضد التيار ، يَصل النبع الصافي .
- لا تَقُلْ أنَّ الحرية أعلى شيء لديك . فقد يصادرونها ويغلقون الخزانة عليها!
- تُدافع عن الكلمة؟ إنقلها الى الهجوم ، فذلك أجدى .
- لا تكسر فَرع الشجرة الذي تجلس عليه . إلا إذا أُريد شنْقك عليه .
- من الرقم 0 يمكن صنع سلسلة .
- شجاعة الضعيف ، وتواضع القوي ، أمران يستحقان التقدير .
- بعض العواقب لا تطيقُ مقدماتها .
- إبنِ جُمَلاً مؤقتة . فقد تحصل هزات أرضية .
- كم من الكلمات الأخيرة تتدافعُ بالمناكب لاحتلال الموقع الأول؟
- السرقة الشخصية يعاقب عليها القانون . ماذا عن نهبِ شعبٍ بأسرهِ؟
- مَن كان وزيراً للثقافة أيام شكسبير؟

● تعامل مَنْ بحجمك . فإن تعامَلتَ مع الأقزام ، إحدودبَ ظهرُكَ . وإن تعاملتَ مع العمالقة كُسرت رقبتُك . لأنك لا ترى موطئ قدمك .

● الشاعر ببغاء! إذْ أنّه يُردد ما لم يُقَل .

● آه لو نَطقت العين ، الأذن!

● مستقبل الآلات كالح . الانسان الآلي سيكتسحها .

● كن واقعياً وإطلب المستحيل .

● خيرٌ لك أن تنتزع حَقّكَ من أن تستجديه .

● ثمة ملحدون مؤمنون .

● كل الحقائق التاريخية تشيخ .

● أضعفُ حلقة في السلسلة أقواها . فما أنْ تتكسر ، تنفرط السلسلة كلها .

● الأمي يُملي دوماً .

● في الهندسة : الخطوط المتوازية تلتقي في اللانهاية . لاتزال تُؤمن بذلك حتى اليوم .

● لا تلامسُ القَممُ القيعان إلاّ وقتَ الهزات .

● كيف تُدرّب ذاكرتك كي تتعلّم النسيان؟

● كل ثروة قابلة للتأميم ، إلا ثروة الفكر .

● الجبان يمتلكُ شجاعة أن يطأ مقبرة الأبطال بقدميه!

● كثيرٌ من المندحرين يحتفل بهزائمه ، ضيفاً في حفلات المنتصر .

● روح العصر تصعق حتى الملحدين .

● تبحث عن الحقيقة؟ أي منها؟*

● لماذا يتعين على الانسان أن يكون صلباً كالفولاذ؟ أُفكرُ دوماً : يكفيه أن يكون من لحمٍ ودم .

● حتى المؤخرات ترتدي أقنعةً ، لأسباب معلومة!

● مَنْ يُحمَل الى الهدف ، عليه ألا يعتقد أنه وَصَلَهُ .

* فلاسفةُ الصين الاقدمون لم يعرفوا حقيقة واحدة. كانوا متسامحين إزاء حقائق أخرى.

● من الشراشف صنعنا رايات حمراء ، في حين صنع آخرون من الرايات شراشف ناموا عليها .

● لا تسأل الله عن الطريق الى الجنة ، لأنه سيدلك على اكثرها مَشقّة .

● إستغلال الانسان للانسان؟ قضية إنسانية! قواعدياًا!*

● كيف تُسميها أوهاما ، إذا كانت قابلة للتحقيق؟

● «الدين أفيون الشعوب ، يارفيق»...

« موافق! ولكن قُلْ لي بالله عليك أيَّ مُخَدر تتعاطاه أنت؟»

● يجدر بالصاعقة أن تخجلَ من الانتهاء في سلْك أخرق . مانع للصواعق .

● لم يستطع أكبر مفسري الأحلام أن يشرح لي معنى الحلم بالحرية .

● أنتَ تُتأتِئ ، عندما تردِّد ما هو مَقيلْ .

● مأساة ، أن يعتقد الكومبارس ، أنه يلعب الدور الرئيسي .

● إحذر نَفْسك إن إنسجمت مع سلطة!

● حيث تَستوطن قلّةُ الذوق ، هناك شيء من الفظاظة .

● معيار التسامح ، الموقف من الرأي الآخر ، غير المريح ، طبعاً!

● أصعب شيء ، أن تتسلّق قمةً من ١٠ سم .

● الساعة العاطلة تشير ، على الأقل مرتين في اليوم ، الى الوقت الصحيح .

● يمكنه ممارسة النقد الذاتي ، شريطة ألا يشهد عليه أحد .

● طالبْ بتعويض إذا تَبيّن أن السراب حقيقة!

● ماذا تُسمّي أحداً لايجد إلا نفسه في أقوال الكلاسيكيين؟

● المحرّمات تتوالد ، وإن كانت تدّعي أنها غير قابلة للمساس بها .

● رغم إستقامتك ، عليك أن تحذَر المنعطفات .

● ينخفض سعر الحرية كلما كَثُر الطَلَب عليها!

---

*الصفة تتبع الموصوف.

● أنصَعُ العبادات ، عبادة ربٍّ لا وجود له . فهي خالصةٌ من النفعية والابتزاز .
● موضوعات الصمت لا تنضب .
● ماذا يُضعف مقاومة الشر؟ إعتياده .
● حذار في إختيار أحلامك! فبعضها قد يجد طريقه للتطبيق .
● قمّةُ النكتة : مكتئبٌ يستطيعُ إضحاكَ مكتئب آخر .
● كَثُرَتْ السنوات . لكن همّها بقي فيما إذا كان حاصِلُ جَمْعِها يكوِّن عصراً .
● لا تَدعْ حرية الكلمة تسلب حرية الفكر .
● تبعات الأبداع لا ديمقراطية .
● إصنَع أساطيركَ بنفسك . فان الآلهة لَم تَفْعَلْ غير ذلك .
● ماذا لو أن «القيم الخالدة» حملتْ تأريخ نهاية مفعولها؟
● يُراق الدمُ لأنه سائل .
● تُخطئ إن ظننت أن أُميّاً لا يستطيع إرتكاب جريمة؟ من ألفها الى يائها .
● إظهار السريرة والتعرّي شيئان مختلفان تماماً .
● إحذر مَنْ بيده بندقية ، وإنْ كانت بلا عتاد . فقد هَشّمت جماجم عديدة .
● مرةً هربت مني فكرة . طاردتها . رأيتُ جمعاً من الناس يطاردها أيضاً . أطلقتُ ساقي للريح كي ألحق بها ، قبلَ أن يصادرها الرقيب .
● جنون العَظَمة! مرض الأقزام الطفولي .

الشاعر طارق ياسين:

عاش ومات في الظل

سلام ابراهيم

تنفرد تجربة طارق ياسين الفنية في اشعاره المكتوبة بالعامية العراقية كونها اتخذت مساراً مختلفاً عما كان سائداً في الستينات حيث انشغل جلّ شعراء العامية المجددين بالهم السياسي المشوب بحماس ثوري رومانتيكي مستمد من أفكار اليسار التي كان لها شعبية واسعة في الشارع العراقي، منطلقين في الفضاء الجديد، الذي فتح بابه الشاعر المبدع مظفر النواب بما احدثه من ثورة تجديدية إرتقت بالقصيدة القديمة والاشكال الشعرية التراثية، كالموال والدارمي، الى بنية جديدة لها القدرة على استيعاب الهموم المعاصرة، خالقاً تياراً شعرياً جعل الكثير من المواهب الشابة تحاول تقليد القصيدة النوابية الحالمة بالتغيير الثوري والمبررة لقيم النضال والشهادة بأسلوبها المشحون بالعاطفة الرشيقة الناعمة ومتانة بنائها الجديد والمبهر. فكانت ضوءاً شديد السطوع أعمى مجايليه والاجيال اللاحقة، الا ذوي الموهبة الشعرية الراسخة الذين تمكنوا من ايجاد اصواتهم الخاصة واسلوبهم المتميز، أذكر منهم، على سبيل المثال، علي الشباني، عزيز سماوي، كاظم الركابي، شاكر السماوي. وهؤلاء بدورهم حاوروا المنقذ البعيد الذي بكفه مفتاح الاحلام والثورة. فاكتظت قصائدهم بالمخاطبات الموجهة الى الذات الغائبة والموضوع والروح في تناوب الملامة والتذكير بالامجاد والامثولات لشحذ الهمم، مخاطبات تحولت مع بوادر انحسار المد اليساري الى مراث حزينة ابتدأها النواب أيضاً في قصائده المتألقة (ليل البنفسج، روحي) ناعياً الحلم المقتول بشجن محب دنف،

فلامس لوعة أجيال عاشت تألق الحلم وانحساره وباسلوب جديد نأى عن المباشرة في قصائده الحماسية مما جعل القصيدتين المذكورتين ترتقيان الى مصاف الهم الانساني الشامل، وظلتا متداولتين جيلاً بعد جيل. ان قصائد الخيبة المظفرية، والتي لم تخلُ قصائده السياسية الحماسية من ظلالها، عبرت عن نبض الناس في تلك الأيام ومزاجهم. فنبهت فنياً لموضوع سيصبح لاحقاً محور الجيل المبدع من شعراء المدرسة الحديثة وشغلهم الشاغل. فكتبوا العديد من القصائد المحاورة للحلم البعيد بحماسة منطفئة ورجاء خائب، من أشهرها «خسارة» علي الشباني المنشورة في «خطوات علَى الماءً ١٩٧٠» واغاني الدرويش لعزيز سماوي المنشورة في ديوان بنفس الاسم عام ١٩٧٣. وضعت القصائد المذكورة والتيار الذي خلقته الحلم الثوري بمصاف الاحلام العصيّة المستحيلة في قراءة دقيقة للواقع فيما خطاب اليسار العراقي غارق بتفاؤل موهوم اورثه مذبحة وعزلة.

رغم أن طارق ياسين كتب قصائد معدودة تدور في المحور المذكور، بتاثير شرطه الاجتماعي وعلاقته الصداقية المتينة بشعراء هذا التيار، الا اني وجدته في مخطوطة ديوانه مشغولاً بالانسان كوجود ملتبس، وماهية غامضة، يكتظ حباً واغتراباً. يبدو أن الشاعر أطّال التأمل حتى بلغ كوة الرؤيا، وحكمة الصمت، فلا جدوى من الحلم في زمن الطوفان:

اختبي بجلمه تفهمك/ واحتقر كل الكلام

لم يصل شاعرنا الى فضاء الصمت الجليل، صمت الأمكنة المقدسة المثقل بالمعاني، صمت ليل التوحد بالمجهول دون تجربة دامية ميدانها الذات الكاشفة. ففي قصيدة من جميل قصائد العامية العراقية المعاصرة حاور فيها بشر المدينة مبشراً برؤيا تتناص مع رؤيا نوح:

فرّيت المدينة بليل/ فرّيت المدينة وخبطت ع البوب/ گتلّكم إجت الريح . . دهو البوب/أخاف الريح تخلع بوبكم ونظل دشر . . وادور بينه ادور/ وكل واحد يحط لوحه على چتافه سفينة وينتظر طوفان/ وگتلكم... وگتلكم . . وگتلكم . ./ وگلتو هَلوَلد حلمان!!!

هذه نبوءة شاعر مات منذ ربع قرن، كأني به كان يرى ما رأيناه لاحقاً من بحور دم وخراب في جرحنا الدامي، العراق.. ماذا يفعل نوح الجديد؟ ماذا يفعل ازاء صمم الذات الجماعية ولا مبالاتها؟

ولا واحد سمعني اشگلت گلبي إنشگ/ ولحم چفوفي وگعّته ابدرابين المدينة . .
وانهرى من الدگ/ فريت المدينة بليل

ماذا غير الصمت؟ والانطواء على الذات العارفة؟ لقد اشكلت الدنيا على طارق، فلم يتزوج، ولم يكن سوياً في يومه، فقد ذكر اصدقاء له أنه كان ينام أياماً عديدة ناسياً كونه معلم مدرسة. وكان يرفض رفضاً قاطعاً النشر في صحف الاحزاب، وعندما نشر له اصدقاء مقربون قصيدتين قصيرتين «سد مأرب» و «الباب والريح» في صحيفة الحزب الشيوعي العلنية «طريق الشعب» اهتز كيانه ذعراً، وتوارى عن الانظار وكأنه سيعتقل غداً. كان واثقاً من الضياع، من الخراب. فوصل إلى ساحة عزلته متخذاً من الصمت والجدران وغياب الاخر، فلا خلاص من أسوار الدنيا. ففي قصيدة تتناص مع قصيدة لكفافي عن رجل ينتبه من شرود ليجد جدراناً صماء بلا نوافذ ولا أبواب بُنيت حوله وهو غافل، فيتعجب كيف لم يسمع ضجة البنائين. لكن انسان طارق ليس ساهياً بل دؤوباً يبحث في السور عن ثقب، منفذ يفضي الى متاهة اسوار.. يبحث دون جدوى. فالحصار مطلق، والوعي به حاد:

عبر اسوار بنيادم /الحد ما ضاع بنيادم /ابين اسوار ما تنعدّ /لاتحضن مدينة . . ولا تحيط بشيء /ولاتحوي... غير بنيادم /وظل محصور

(اسوار بلا مدينة)

في وحشة دنيا خاوية، قلب طارق ياسين الشأن البشري، من انفراده في متاهة الاسوار، من عزلته المتحققة نصاً وحياة. فتعمقت رؤياه الكاشفة.. الوجود البشري الفارق ببحور الدم، والمتدله بغريزة القتل البدائية، هذه الغريزة المتخذة اشكالاً متناسبة مع تطور الحضارة، الغريزة. . . السور بين الشاعر والآخر:

والشمس حايط دم . . يوگف بينك وبيني /ويعلو بعلو سنيني .

لم تستقِ اشعار طارق ياسين نفَسَها وتكوينها من التفاصيل اليومية أو الصورة الوصفية الجميلة، بل ان رؤيته تتمحور في اتجاهين: الأول، التفلسف والحكمة مما استدعى ولادة اشكال شعرية لم تعرفها القصيدة العامية العراقية من قبل، فمع انعدام المخاطبات الصارخة سادت الصورة ـــ الفكرة في تأمل وجودي لا ينِي يثير الاسئلة:

وين رايح بالمحبة؟/ اشكثر رغباتك... امنين تفوت؟ /والدنية شگصفها .

***

فتخلقت قصائد الحكمة المكثفة لخلاصات التجارب التي تذكرنا بحكم موالات الشاعر الكبير «حاج زاير» لكن هنا ببنية قصيدة معاصرة وبهم انساني جديد وبشكل فني حر يبدو في القراءة الاولى غامضاً ملتبساً لعمق فحواه. ففي محور البراءة والتلوث نقرأ القصيدة القصيرة:

الغزالة اللي رسمها الظل /ماتشبه هذيچ الواگفج ع التل / رجلي بفي رجلها . . وعينها بعيني . . وبين ايدي/اوجهها الصدگ علو التل

والثاني، قصائد البوح الروحي للآخر بصورها الاقرب الى شطحات المتصوفة، التماهي بالصديق العارف بأشجان الشاعر:

ظلّي وظلك ايصرن رقم واحد /وأول شيء يصح كل شي ويصح لاشي /تشبهني وأشبهك . . صرنه إحنه اثنين /ومن نتلاگه أنه وياك . . نتضيع سوه ونحتار /تشبهني واشبهك . . والشبه ثاني وضوح .

اما حينما يستقي قصيدة من التفاصيل اليومية فلا تكون الصورة الوصفية إلا توكيداً للفكرة الفلسفية، فيلتبس مسار اليوم بفحوى التفلسف والأسئلة وصولاً الى حكمة الخواء، منتقياً الامكنة والاوقات المناسبة لحالة المتأمل المنعزل، في مقهى تطل على ناصية الطريق:

تتأمل وجه طفلَه إلعصر من جامه مكسورة /أو في الفراش الخالي قبيل النوم /تفتكر ترتاح ايدك ع المخدة . . وراسك يفتر دواره /نمت وتخيلت نفسك نسر ميت طار كل عمره خساره .

وبهذه الطريقة يوظف طارق اليومي للبعد الفلسفي في رؤيا خالقة ابدعت علائق جديدة بين المفردة ــ الصورة ــ الفكرة، وبالتالي بنية القصيدة العامية العراقية الحديثة. ومن المؤسف ان تكون هذه القصائد لم ترَ النور رغم مرور احدى وعشرين سنة على وفاة الشاعر.

إن هذا المنحى المنفرد في القصيدة العامية الذي خطه طارق ياسين بتجربته الفنية انعكس على بنية القصيدة ولغتها فاقتربت من الفصحى اقتراباً بيّناً مع استخدام مكثف لمفردات سكان المدن وانفتحت لاحتواء الهموم المستجدة مع تضخم مدن نصف حضارية طبْعَتها الهجرات الكثيفة بأخلاق هجينة:

الساعه وحده... تفتكر تجلم بوحده

املي نومك بالتشهي . . واخجل بگد الاحلام

قداحة الحرمان وضغط الغرائز في ليل مدن قاسية، منغلقة قامعة للشهوات:

ارسم ع الورق زنجيه نص الليل ،عليها گلايد المرجان

وأختل جوه ابطها... وانچوي بخدها .

وانعكست ثقافة الشاعر وسعة اطلاعه وتنوع اهتماماته الأدبية على اشعاره، فقصيدته استثمرت انجازات القصيدة العربية الحديثة والقصيدة الاجنبية. نلمس ذلك بوضوح في قصيدة هي الاهم بمخطوطة طارق، ومن قصائد معدودة هي خير ما توصلت اليه القصيدة العامية العراقية التي تعطلت مسيرتها بسبب الصراع السياسي والحروب. فتأخذنا الدفقة الحسية في الصورة الشعرية بغموضها المحبب المتأتي من عمق الحالة الشعورية الى لذاذات الروح لحظة انبهارها المطلق في الجمال:

طلعنه من نهار البارحة متيهين/ معنى الشمس واليوم وظلال الناس/ بين وجوهنا وخط الشمس نافورة متعطلة/ اوجه طفله/ مثل مي حوضها الراكد/ وشعرها يضوي بالشارع/ مشت خطوه عكس مجرى الهوه . . وداست اسامينا/ وقدمها ترصع بروحي

«وضوح اول»

القصائد تحتاج الى تأمل ودراسة مختصين بالقصيدة العامية العراقية. واقدم من خلال الصفحات التالية نماذج تنشر لأول مرة مرتبةً وفق منهج التقديم، راجياً من المؤسسات العراقية القادرة (دور نشر، مجلات) واصدقاء الشاعر تبني طباعة المخطوطة المتوفرة لديّ والمنقولة أصلاً من قصاصاته المبعثرة التي عثر عليها اصدقاؤه في غرفته بعد وفاته، وسأقدمها عن طريق ث ج لكل من يبادر لتنفيذ هذا المشروع النبيل لمبدع عراقي عاش ومات في الظل.

الدنمارك ٢٩/ ٤/ ١٩٩٦

مشروع قصيدة

تفتكر ترتاح ايدك ع المخده... وراسك يفترّ دواره
نمتْ وتخيلت نفسك نسر ميت . . طار كل عمره خساره
وضرب جنحه ابصخره أكبر من مداره
الساعه وحده . . (تفتكر تحلم بوحده)
تفتكر تگدر تمد ايدك وهي اسلاك متكهربة وتتلمس نهدها
إملي نومك بالتشهي ، واخجل بگد الاحلام
صعد مجد الليل لعيونك وطبگها على الايام
ويوم الاحد ما اجه ابالك نهاره
الاحد مدگت ساعة وحده
واهجست راسك ثگيل عالمخده
وحلم وجّه عالمخده
الروح تحجي ، الگلب ساكت
انتبه راسك سفينه... اتعطلت بليل المدينه
گبل ما تعطل الموجه وتتلف بصدر السفينة
انتبه راسك ، مدينة الناس بيها تجي وتروح
وشوارعها العريضة لا تجي ولا تروح بيها
اصرخ بقارة ضيگه حتى لا ينسمع صوتك ، وانت تحلم بالكلام
صعد مجد الليل لشفاك وطبگهن ع العبارة
تفتكر تمتلي ايدك يوم الاحد
وانت فارغ مثل ساعات النهار
اتخاف من روحك وتنساها چذب ساعه وحده
اتخاف من ايدك وتثنيها بخدر فوگ المخده
اتضوج من ظل السكملي
اتغمض عيونك تصير الغرفه ظلمه
عينك اليسره ضعيفه تقره باليمينه رساله
على گلبك احفظتها من زمان
اتبركس بنشوه غميجه وفوج بيها

واچوي احلامك المگصوصه بجگاره
اتوخرّت جدامك الحيطان . . اللي بچيت مره عليها
وزتتك للبيت ما أمّنت بيها
اختبي بچلمه تفهمك
تبسط ايدك . . تاخذ وتندم وراها
صعد مجد الليل للچمله وطفاها
لو گمر روحي ، ما اطوف الدنيه من اولها لاخرها
واذب روحي بدجاها
لو بيديه احرگ اوراقي القديمة والجديدة
واشمر همومي بلظاها
الشمعه من يگفي ضواها
الليل هم يگضي وياها
اختبي بنفنوف ضيك ، حتى تتعلم شنو معنى النفاهه
الليل املس... والضوه مثل الحجاره
الليل املس وانت حلمك خشن يزلك ع المخده
الليلَ املس مثل زبده
اختبي بلحظه تفهمك
آخر حچايه تفكر بيها . . نغتال الكلام
افرز الفيْ الرمادي الترف من جنح الحمام
تفتكر يمتلي گلبك ريش ناعم
لمن يرد السلام
اختبي بچلمه تفهمك
واحتقر كل الكلام

(القصيدة غير مؤرخة)

رؤيا

فرّيت المدينة بليل.
فريت المدينه وخبطت ع البوب

گتلهم اجتِ الريح . . دهو البوب
أخاف الريح تخلع بوبكم وتظل دشر . . ، والدور بينه تدور
وكل واحد يحط لوحه على چتافه سفينه وينتظر طوفان
وگتلكم... وگتلكم . . وگتلكم
وگلتو هالولد حلمان!
ولا واحد سمعني اشگلت گلبي انشلك
ولحم چفوني وگعته ابدرابين المدينه . . وانهرى من الدگ
فرّيت المدينه بليل
شفت الريح جتي من بعيد تون . . بداية سيل
شفت النجم فص محبس باصابعها
وظهر جدها محني على السجّادة
طوه أخر صلاته ، . . ورچه السجاده بركن حجره
وجتّه الطفله من فتحة الباب تفوت
خضره تصيح گعدوني .
وقدمها الحافي يرسم ساجيه ازغيرونه بالگمره . . ورِوحه العدله تسمعها
وجمرات الجگاير فتحت بالظللمه عين الديچ . . راد يصيح
وتوترت حنجرته
وصاحت من بداله الريح
وصياحي اختلط بالريح
وبقيت اصرخ . . اصيح الحد عمود الصبح مابين ابين الريح شفت الخيل . . ، يجدع ع الحصو
والجير حافرها
ورثوا من شرارتها جگايرهم
وركبوا على ظهور الخيل
والعشره الزغيره توگع عگاده

ـ ١٩٧٢ ـ

اسوار بلا مدينة

بنيادم لگاچ بگاع مصفرّه

يحضنج سور من جوه ويحضنج سور من بره
وشمَيدور بنيادم وراج ايدور جدامه عريض السور
وشميدور يعلى بعينه سطح السور
ومامن حفره إلا وظفها باب السور
وظل يدور

بنيادم تعب من كثر مفتر صار فرّاره
داخ وچلتْ افكاره
وفدح لمن لگاله حدر سورج بره وصلة فيْ
فرشها ونام فوگاها . . وعليها ارتاح
وصلة فيْ فرشها السور للغربه

گشط منها باظافيْره وستر وجهه اللي ينضح عرگ
ينضح حيره بنيادم
ينضح تعب بنيادم
بنيادم ايدور على وصله باب كل عمره

يمكن تنفتح بالسور
بنيادم
يمكن گدر ايطگله شبر بالسور
بنيادم

كتب ع الحايط ايامه ، وعذابه ، وليس هوه يدور
بنيادم

بنيادم رجع وبراسه ظل يدور . . شكْل السور
اخذ يحفر... وغابت الشمس ع السور
وطلعت الشمس ع السور
حط عينه على الثلمه واخذ ينظر
بنيادم ــ أخذ ينظر من الثلمه الفتحها وبَهتْ بنيادم
لمحْ من عِدها سور آخر بعد هالسور
وظل يحفر وظل يثلم
عبر اسوار بنيادم

الحد ما ضاع بنيادم
ابين اسوار ما تنعد
ترك خلفه ثلم گامت وراه تنسد
وبنيادم ابد مارد
واشاف اسوار ما تنعد
ولاتحضن مدينه ولا تحيط بشي
ولا تحوي فرد شي غير بنيادم
وظل محصور

الطير والصيّاد

الطير گل للسمه
انتي . . مُلكي . . مُلكي
وگبل ما ينتهي من الياء الاخيرة
طار راسه بالسمه بصچمه ضريره .

موقف أخر..

وين ما تلگي ظلم
ظلم . . مقنّع ، صريح
حشي اصابيعك باذانك
واغمض عيونك وصيح
متى ما تسكن الريح
تلگه طير مطرس بدمه جريح .

العطش

السـاجيه من تعطل . . البستان يكفر
بالنده والماي . . وتعيّط الزهره
وتركض الاشجار بالشارع عرايا بغير خضره

وين رايح

وين رايح بالمحبة؟!
بروح ماخضر سعفهه
والديوچه الغبشت بتالي حنينك
محّد اشگالت عرفها
وامتله بدمك عرفهه
اشكثر رغباتك منين تفوت؟
والدنيه اشگصفهه

لا امتثال

گتلي هاك.. هاك الابره هاك الخيط شد جرحك
وما مديت الك ايدي وگمت اضحك
وشفت الحيره بعيونك سؤال
أكبر من الابره والخيط وعقلك ونصحك
والسكته عذاب وياك
واخذت ايدك الاخرى وسكتت وياك
ومن بين الدمع گتلك
لا تحتار بالمرّه
انه جرحي بضميري ما تلوحه ابره
ولا يندل عذابه الخيط من برّه

وضوح زول

الى علي الشباني

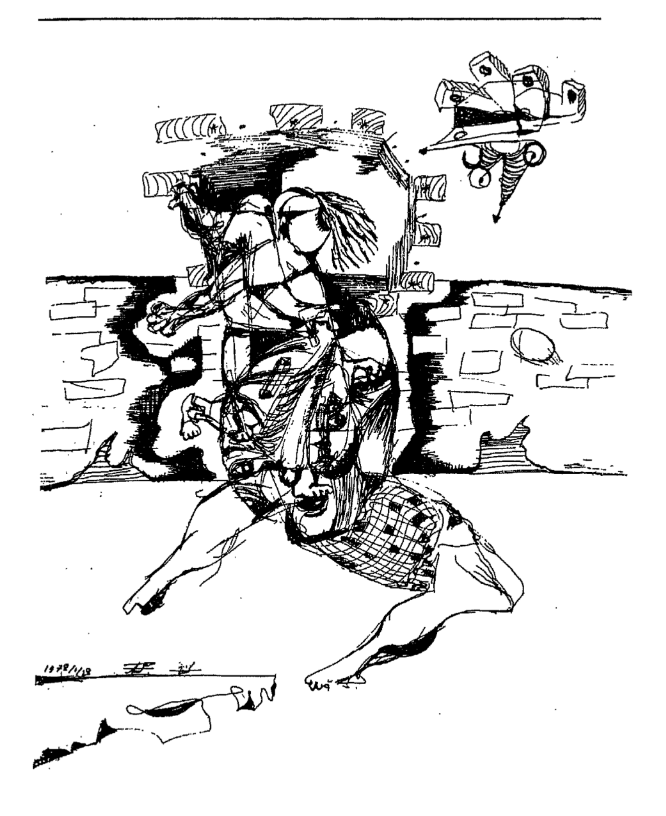
طلعنه من نهار البارحه متيهين
معنى الشمس واليوم وظلال الناس
طلعنه من نهار الألم.. والحايط ألم
...جزعان من ظله

بين وجوهنا وخط الشمس نافوره متعطله
او وجه طفله . .
مثل مي حوضها الراكد
وشعرها يضوي بالشارع
مشت خطوه عكس مجرى الهوه... ، وداست اسامينه
وقدمها ترصع بروحي
ونظرتها الذغيره انحنت فوك المي
وتحرك تحت نظرتها وجه المي
. . . . لگت بالمي اسامينه
علگت فيْ اصابعها جرص ع الباب
... دگاته تمرينه
يمكن فيْ اصابعها يوعينه
ودمعها البارد ايغذي البنفسج
يشهگ . . ويكبر ويصعد ويه امانينه
مشت خطوه وشعرها المضوي بالشارع
ضوه خافت يوخر الفيُ
وعطف وعيونها التلمع يگف بالشمس نافوره
شفنه بعينها صورتها معكوسه ع الولايه
وضحگتها گمر . . لو نجمه مولوده بليالي العيد
تتأمل وجه طفله العصر من جامه مكسوره
وبين وجوهنا وخط الافق ، نافوره مشتعله
طلعنه من هواهم «يا علي» مشبيين
صدگ كل هذا التشونه فراغ . . سنين
خطف بالشارع وجر جفني من عيني
احاچي طفل ضايع يوگف گبالك
عيونه مرايه معكوسه على احوالك
بركه
وعطفك بعينه اللي تدمع يگف نافوره

ضحكتك خبزه مكسوره
وچتف يحمل دوار الشارع وظلّه
رسمت الألم بوابه وفتت منها
اسمعت صوت الخبز بالجسد يتكسر
حصانك عثر خلف السور
والعثرات تكثر وره حدود السور
نجمتك بالنهر سالت
حسّك لعب بالگمره
وختل بين العشب والطين
طلعنه من نهار اسوادنه مضيعين
معنى الشمس والليل وحياة الناس
والممشى ألم جزعان من ظلّه
ظل النخله ثوب اللبسوا الاسمال . . والجده
تركت السور يتفتت وراك
والشمس حايط دم . . يوگف بينك وبيني
ويعلو بعلو سنيني
يحز بالافق خط
والشمس حايط دم
رسمت الدرب بعيونك . . شفيت باطن مداينها
مدينة الفجر وعيونك نوافذها
أشوفك منها مستعجل
مسحت ايدك رسمت الفجر . . واعراس المدينة بحافر حصانك
رسمت التعب بأجدامك
مكان الگلب ظل شاهد على الهامش
نوبه صاعد اويه الناس
نوبه نازل بوحدك
والعالم بين واحد
نازل وصاعد

طلعنه من نهار الاحد انذب الخطو بالديح
واتذوب الخطو بالديح
العالم حبسني اشما گلت واسع
اقره الناس أملهم . . من گبل ما أحجي وياهم وامل روحي
اقره الملل بالگهوه
واحدنه صفه ضمأن
لو خسران لو ربحان
لو مجتول لو شاهد
ظلي وظلك ايصرن رقم واحد
واول شي يصح كلشي ويصح لا شي
تشبهني واشبهك . . صرنه احنه اثنين
من اتضيع تلگاني . . ، وتلگاني من تضيعني
اومن نتلاگه انه وياك نتضيع سوه ونحتار
تشبهني واشبهك والشبه ثاني وضوح
إو وضوحك أو وضوحي . . وصخرتك نَحتْ بيها الزمن والتيار
أكف بين الصدي والصوت ،حايط سومري مفلش
واخط فوگه هوه جروحي
گالت نهدي حدر الثوب گالت نهدي بجروحي
من دارت النيه براسي والشارع عصر روحي
والشارع رحل بالناس . . . ، والشارع رحل بالفيْ
رحل بالألم الانساني
وعقلي براسي بالمگلوب
طلعنه من نهار المعمعه مدخنين
چتف يحمل هموم الناس . . عن الناس

١٩٧٢



تخطيط للشهيد كفاح ابراهيم

تكوين

مهدي محمد علي

قد نبدو في المرآة
شيوخاً مكدودينْ
لكنَّ التجعيدةَ تعني عُمْراً زَهْراً مرّاً
والتقطيبةُ تعني طفلاً سار على جمْرٍ
والشيبةُ في الغُرةِ
تعني رجلاً في الستينْ
وغرابةُ شكلِ الأنف
أتتْ من رائحةٍ لا تُؤنسُ
والحنكُ تشكّلَ
من شدِّ الفكّين على أزماتٍ لا تُحصى
. . . . . .
ها أنذا قُدّامَ المرآة ،
فيا موتُ تقَدَّمْ
إن كنتَ ترى نفسَكَ أجملَ مني!

بصرة حلب
٢١ تموز ١٩٩٦

هذه بغداد تلعنك

حامد بيكه س

تتلمس السكين
وتبعثر الريش ،
الآن يمضي الكدر أليك . .
لا أحد يرتشف جسد النوم
هواء الوجه يزحف
تحت خشب يتوازى مع قضبان تنمو ــ برعب .
الآن الألم... يتكدس ،
الطريق يرتفع
كاشفاً عن سرّ الأصبع
الذي يطير
صوب الرأس . .
أهذه عصا المطر
توخز ماضي البركة!
أهذه وسادة البريء أم صمت الطائر!
العالم فخ الصفعة.
لذا المدينة تهرب ــ منك ،

تجر خلفها ركاماً من النهارات المذبوحة .
كان الوجه يلعن ليالي مكسورة...
آه... من أين أتى هذا الشعاع
الى القبر
وجعل من الوردة
ثدياً للسلاح ،
والصحراء ثوباً للطعنة . .
من أين جاء
هذا الشعاع
وتراكم هنا كمقبرة مبعثرة!
لا أسرار للصاج
العرش خدعة قديمة .

تريد هذا
بلا جروح
أو أوسمة
تريد هذا ، مع الغيمة كلها
من دون دم
أو جثث . .
تسبح بوجه الدم أذن ،
تزحف على الخشب أنتظاراتك ،
لا تسمع صخب القاعة ،
أنتَ وهن الشارع ، قبضة الذعر ،
عُري الحرب ،
ترى اللحم ممتزجاً بموسيقاك
تذبح الفراش والوسادة بملابسك ،
عليك أنَ تقود النهاية
الى المنحدر
ومن هناك أجلدها بتفسخك

أيها الضحية . .
أو أرنُ الى القمة :
ما حولك دمار
يتراكم على عكازتك . .
لحنك تكرره
بعيداً عن الحشد
الفصول تشدك الى عمود العزلة
أيها الوحش . .
كم انسان طوحت به في بئر الموت
يا خراب الرغبة ،
تحاصرك أحلام فجة
لكن مخالبك ترمم الكارثة . .
عبر حبال تتدلى فوق الصدأ
أنت تهبط الى القبح ،
أيها المعدن الخبيث
الشريان يجلدك بيأس ،
يا كابوس العنف :
هذا سجنك مبعثر فيك
هذا دمك تهرب منه الملائكة
هذا جسدك يتوارى في الزيف
هذا رداؤك ملطخ ببقع حمراء ترتعش
وهذه بغداد تلعنك ـ بصمتها

* * *

السليمانية ١٠/٨/١٩٩٥

الافتتاح

كاظم ثامر بشاهري

لم يدم الطرق طويلاً . . الماء ثقيل ولزج... اعتكر مزاج الجمع المتنامي... تراصت الاكتاف ودفعت الباب... اختض مرات ثم تهاوى . . تصاعدت موجة غبار كلسي ، وضربت الانوف دفقة روائح قديمة ملتصقة بالجدران... فرت مسرعة جرذان كبيرة مهدماة الافواه وبنات عرس ولاذت بالزوايا والشقوق... وثمة حشرات طيارة واخرى زاحفة لم تنجدها سرعتها في الهرب فسحقتها اقدام الجمع الذي تسمر امام المشهد مشدوها .

وظل ابو عباس يؤكد لشهور طويلة بعد الحادث انه مرة سمع محمد صالح بجسده الهزيل وشعره الشوكي في «قهوة عبد» المندرسة يدعو الناس وكانت تفوح من شفتيه الكبيرتين رائحة فطائس متعفنة لانه يأكل لحم خنزير ـ والعياذ بالله ـ أن يدعوا بناتهم ـ والكلمات تصفر من انفه الرفيع المدبب ـ سافرات مثل بنات الاجانب فأكتشف «الملا ظهد» مقصده واعلن في حينها على الملأ ان محمد صالح كافر ومرتد والابتعاد عنه وعدم معاشرته فرض وواجب .

وكان قد سمع من أولاده الذين كانوا يطاردون حمامة حطت على بيته انهم وجدوه خلف ستارة النافذة المفتوحة بعظام وجهه الناتئة تحت جلده المتيبس الجاف ـ يرسم صوراً لنساء عاريات .

كان يقول هذا كلما استذكروا محمد صالح ثم يستغفر اللّه ثلاث مرات ويمضي .

تزامن الحادث مع اكمال الفرق المخصصة لاقامة جدارية ضخمة عند مدخل الحي

الرابض فوق ارض سبخية واطئة دعي اليها اشهر الرسامين لرسم صورة الرئيس ، واستمر العمل ثمانية اشهر متواصلة . وحوطت بمساحة واسعة مصقولة بعناية واعمدة عالية تحمل كشافات ضخمة نصبت في اركانها ، تسورها فسائل النخيل وشتلات الورود . وأقيمت في الوسط نافورة تنفث مياهها التي تلونها المصابيح المعدة لهذا الغرض . وافتتح الطريق المسفلت الذي يربط نثار الحي بجسد المدينة الموغلة عمقا بأتجاه النهر . .

وكان الحادث قد غير مسار الجموع الذاهبة لمشاهدة حفل الافتتاح ودفعهم بأتجاه الزقاق الذي اكتظ امام بيت محمد صالح . أم حسين تكرر بين الفينة والاخرى لف الفوطة حول رأسها فتنحسر اكمام ثوبها الاسود عن ذراعيها فيظهر الوشم الشذري على جلدهما المنكمش .

ـ اشتغل مرة مع حسين في بيع الخضراوات... ثم ترك الشغل وحين الح عليه حسين بالعودة الى الشغل ، قال : استريح فترة واشتغل بعدها . فعندي ما يكفي لفترة استريح فيها .

قالت ذلك موجهة كلماتها للجميع ، رد عليها واحد مستفسرا : وماذا بعد؟

ـ ذهب اليه حسين مرات كثيرة يستحثه على العمل . . كان حسين موجوداً ضمن الجمع الذي اكتظ به الزقاق فقال مؤكداً كلام امه :

ـ كنت اقول له لنذهب على باب الله ونطلب الرزق . يجيبني وقد تجعدت ملامحه ، وعيناه الغائرتان تزوغان كأنهما تبحثان عن مفر... يقول : سأفتش عن مهن اخرى مع علي بن محمد . .

أقول له : ومن هو علي بن محمد...

كان يجيبني : أي علي بن محمد...

ثم التفت الى اشخاص قريبين منه وسألهم :

ـ اخوان ، تعرفون علي بن محمد؟

اجاب بعضهم : لا...

ثم استدرك قائلا : مرة وجدته ساهما وفزّ حين دخلت عليه . ابتسم قليلاً ودعاني للجلوس . ثم قال : بناء البيوت والفخار الملون ومراكب صيد الاسماك ومقاليع الصيد والفؤوس ذات الرؤوس الصوانية والكتابة ونظام الري والزراعة والمحراث ودولاب الخزف والعربة والنحت واواني الفضة والنحاس والرصاص .

قلت له : ماهذا؟ قال : ردد معي حتى تحفظها... وبقيت اردد معه لساعات حتى

حفظتها عن ظهر قلب... ثم قلت له : لماذا احفظها... قال : تصوّر هذه الاشياء كانها غير موجودة اطلاقاً... فكم كان مكتشفها حراً! عندما يكون الانسان حراً يكون مفيداً . . أليس كذلك؟

ثم قال : هل جربت السفر...؟

ــ السفر ممنوع!!

ــ يمكنك ان تسافر...

ــ كيف؟

ــ السفر الذهني... انا دائما اسافر الى اصقاع بعيدة جداً من هذه الزريبة . (واشار الى غرفته) .

الحقيقة لم افهم ما يريد كنت اشفق عليه واظنه يهذي . ثم وجه كلامه الى جماعة قريبة منه...

ــ اخوان هل سمعتم بسفر ذهني؟

زم البعض شفته متسائلاً والبعض الآخر ابتسم خفية .

كان رجال الشرطة قد وصلوا وفتحوا الباب مرة اخرى بعد ان اعاده الجمع وانسحب الى الخارج يسحقه هول المنظر .

حزمة ضوء باهته تسفح من شباك الغرفة وتسقط على اشيائها المتطاولة في اللامبالاة . ولم تكن تلك الاشياء غير بقايا مجلات وكتب حائلة الالوان جف عليها قيء اصفر لثمالات فائته . . وقناني عرق فارغة واقداح شاي مندلقة . والاكثر وضوحاً اعقاب السكاير المارحة في كل الاتجاهات ودولاب ملابس خشبي اعرج ناصل الالوان يقف على ثلاث ارجل ويتكئ خاملاً على الجدار يلفظ محتوياته عبر بابه المشرع .

وبين الشقوق المتفرعة في جدران الغرفة ، مثل شجرة جرداء ، اعقاب سكاير مطفأة واوراق مدعوكة ومدفوعة بقوة داخل الشق .

سحب المفوض تلك الاوراق ، تهشمت بين اصابعه وسقطت ترابا . ورقة واحدة كانت اكثر تماسكا وتبدو جديدة بعض الشيء .

فتحها برفق وبسطها امامه ، قرأ في سره : «هو يلج الباب...... وانا اكون /تساؤلات/ جهد كل يوم = سائل لافح /العادة السرية/ سواء وجد او لم يوجد فنحن جديرون بتدبير موتنا /المرآة/ الدين/ الموت اكثر امانا/ حين تغير مكانك تبدو مشعاً اكثر /القضبان . . رجال انيقون» .

كانت حروف تلك العبارات مصممه مثل قطع آجرية كبيرة مرصوفة الى بعضها تشكل هرماً عاليا ، قاعدته الدائرية ترتكز على رأس رجل غائب الملامح تتكسر عظامه ويغور نصفه في الارض المتشققة تحته .

لف المفوض الورقة بتؤدة ووضعها في جيبه ثم اغلق الباب وامر الجميع بالتفرق وعيّن على المكان حراسة من شرطيين .

كان الحي قد تجاوز ظهيرة قائظة . . . . وما زالت تتصاعد ابخرة حارة من عتبات البيوت والجدران المتآكلة .

في هذا الوقت وكالعادة ام حسين تكنس قنطرة الدار وترشها بالماء وتفرش حصيرة من الخوص وتقعي عليها .

لولا ام حسين لكان محمد صالح الآن حديداً وسكراً ودماً ودهوناً وسوائل لزجة اخرى في بطن الكائنات الشرهة ولاختفى اثره تماما وتحلل الى مواده الأولية...

حين رأت تلك الأشكال الخارجة من بيت محمد صالح والمرتسمة امام باب الدار اقتربت منها فشاهدت خيطاً طويلاً من الكائنات الزاحفة ، كانت بطول الاصبع تتلوى ، كأنها حيات صغيرة ، تواصل حركتها بدون اكتراث لاي شيء كأنها تؤدي عملاً مهماً تتشكل في نجمة سداسية شرقَ الدار ، خماسية غربَها ، في المقدمة أهّله ، في المؤخرة سيوفا . . . . بعضها رسمت من نفسها اشجاراً . . اشكال حيوانات .

دب رهط منها والتصق بقدميها ، صرخت بفزع مستغيثة بضع مرات .

تغيرت إتجاهات نتف الجموع الذاهبة بأتجاه مدخل المدينة واحتشدوا امام بيت محمد صالح . واذ وصلوا وفتحوا الباب . . . . تسمروا مندهشين .

فلم يكن محمد صالح غير هيكل عظمي متناثر على ارضية الغرفة تقضم الجرذان وبناة عرس عظامه وتندس في تجاويفها حشرات الذراح والجعل وغيرها .

وتأكدوا من شخصه من خلال انيابه المقلوعة ويديه بست اصابع لكل واحدة .

وظلت حادثة محمد صالح نابضة وقوية في ذهن الحي لشهور طويلة بعد أن جمع عمال البلدية هشيم عظامه في كيس أسود مثل أي قمامة .

رفحاء
١٩٩٣

احب المبدعين.. ولست منهم

هلال كاظم

ما أثير من نقاش حول «انطولوجيا المثقف» على صفحات ث جـ وما صاحبها من ردود انطوى بعضها على التشنج وبعضها على التسامح واستعمال اللغة المهذبة دارت بين القاص ابراهيم احمد والدكتور عدنان عاكف والمداخلات الاخرى ممن تابعوا الموضوع وأعطوا رأيهم، كلها تعكس متابعة جدية من اصحاب الرأي والابداع والكلمة السياسية وكذلك جدية الموضوع.

لست ممن يدعي جدارة للنقاش مع «العفاريت» ولكن شعرت، كمواطن ينتمي الى العراق، ان أدلو بدلوي.

ومناقشتي المتواضعة لهذه الآراء ليست دفاعاً أو تاييداً بقدر ماهي محاولة للمشاركة في ترسيخ تقليد جميل نطمح اليه في حياتنا اليومية في جلسات ونقاشات الاوساط السياسية والثقافية العراقية بروح حرة بناءة بجهود جميع قوى الخير لكي يسمو بنا الى الحقيقة، باعتبارنا قوى المستقبل، وذلك للتخلص من ليل العراق البهيم.

ليس لي مآخذ على ابراهيم احمد لأنه تجاوز على التابو. فاذا اعطى رأيه بثورة تموز فهو حق له وللآخرين. ومن حقنا الشك، الشك بما يسمى بالحقائق التاريخية. أليس «الشك معيار الحقيقة» حسب تعبير بريخت؟

من جانبي شعرت من مقال ابراهيم احمد بتحامل على السياسة أو السياسيين واظهار البقع السوداء من تاريخ واحد من أهم طلائع الحركة السياسية العراقية وعلى

امتداد اكثر من ستين عاما، وهو الحزب الشيوعي العراقي، رغم صدق نوايا الاستاذ ابراهيم. واظهار هذا الجانب فقط يثير الاسى (وليس الاسى وحده) في نفوس جمهور كبير ممن ارتبطوا بهذه الحركة بشكل أو بآخر. (مقالة الاستاذ سعدي يوسف في طريق الشعب عدد ١٠ أواسط أيار ٩٩٦ وتلقي الأضواء على العلاقة بين الحزب والثقافة والاشكاليات العديدة حولها وماهو دور المثقف ودور الحزب). وإذا قيل ان الرواية في روسيا خرجت من معطف غوغول، فان الحركة الثقافية العراقية، على الأقل في النصف الثاني من هذا القرن، قد خرجت من معطف الحزب الشيوعي العراقي وهو ماأكده عدد غير قليل من المثقفين العراقيين. فلا بد من التواضع وتاكيد هذه الحقيقة وفي «التواضع حكمة». وإذا حصل اخفاق فان الاخفاق ليس اخفاق الحركة السياسية وحدها وانما اخفاق المثقف ايضا. ويمكن القول ان المثقف عاش في ظل السياسي على مر التاريخ. واذا كان المطلوب تجاوز النقد الروتيني على حد تعبير ابراهيم فلا أعتقد بعدم وجود ضير في اسهام الكلمة في النقد البنّاء واضاءة الطريق بالفكرة النيِّرة التي تتيح للناس واحزابها وبرامجها تجاوز الاخطاء والنكسات، وهي من صلب مهمات المثقفين باعتبارها مهمات وطنية بالدرجة الاولى لكي «لا تظل الدورة الدموية للحزب تكراراً لأزمات الماضي» ولكي لا تبقى الجماهير أسيرة برامج سياسية مكررة لعشرات السنين، خاصة وان الحزب قد دعا لمرات عديدة، وبالاخص في السنوات الأخيرة، اصدقاءه ومحبيه من المثقفين للمساهمة في رسم سياستة وتطوير برامجه. وهي دعوة صادقة ولابأس من المشاركة الفعلية حيث ينوي الحزب التهيئة لعقد مؤتمره السادس خريف هذه السنة. «وليس كثيراً على الشيوعيين العراقيين ان يفكروا ممتدين من الماضي سبعة آلاف سنة» كما وان الشيوعيين العراقيين ليسوا وحدهم من فكّر بأن بداية التاريخ هي ثورة اكتوبر، وليسوا وحدهم من امتلك تاريخ وحضارة.

وليس دفاعاً عن عدنان عاكف ولكن ما طرح في انطولوجيا الموقف ومابعدها من ردود، وهي وجهات نظر قابلة للنقاش والدحض، ولا يوجد فينا من يمتلك صك الغفران، في تقديري، هي ردود من ذات الاسلوب الذي استخدمه الدكتور عاكف ولكن بلغة سلسة مهذبة افتقدها عدنان وبهجوم مكشوف، مباشر لاينطوي على مجاملة.

ولماذا أعتبرت آراء عدنان وجهات نظر الحزب الشيوعي في حين أن رأي الحزب وسياسته واضحة من خلال بياناته وبرامجه؟ ثم اليست وجهة نظر عدنان وانطلاقاً من مقولة وحدة العمل واختلاف الرأي هي ما نطمح اليه؟ واذا كانت هذه الآراء نشرت في

«صحافة الشيوعيين»، فهو مادعونا اليه لاعطاء المجال للرأي والرأي المخالف لا ان تكون هذه الصحافة حكراً على من يدّعي تمثيل وجهة نظر الحزب ويقرر سياسته. كما ان الصراع بين المثقف والسياسي لم يحسم من قبل عدنان عاكف لصالح السياسي. ان عودة الى التاريخ القديم والحديث ترينا أن التاريخ كان دائماً لصالح السياسي. ألم يخفق افلاطون في جمهوريته؟ والجولة في روما القديمة كانت لصالح نيرون وليس لفقهائها. وانتصر النبي محمد في الجزيرة العربية لكونه تعاطى السياسة، وليس لكونه صاحب رسالة فقط، او لكونه امتهن التجارة في الشام مع شريكة حياته لاحقاً (خديجة بنت خويلد) وقامت الدولة الاموية والعباسية لا بجهود الحركات الفكرية التي سادت في تلك العصور وقامت الثورة الفرنسية على اكتاف اليعاقبة كحركة سياسية فكرية تمتلك في أهم اقطابها، روبسبير ودانتون، وانتهت لصالح نابليون كحركة سياسية باشد اوجهها عنفاً وشراسة. وقامت الوحدة الايطالية وتبلورت ايطاليا كأمة على يد غاريبالدي وليس على يد مفكري عصر النهضة. وكذلك الحال بالنسبة لألمانيا كأمة موحدة على يد بسمارك رغم الفكر العملاق لهيغل وماركس وغيرهما من المبدعين الألمان. واحداث هذا القرن من الثورة البلشفية الى صدام حسين وانتصاره على ميشيل عفلق، احداث التاريخ هذه تعطي الانطباع بأن الصراع هو لصالح السياسي، وقد يكون سبب ذلك هو مكر السياسي ونقاء المثقف.

ان النكسات التي عانيناها في عصرنا الحديث هي انعكاس لقصور المثقف والسياسي معاً (العيب فينا وبحبايبنا) ولا بأس من قولها بدون حياء، وهو ما يدعونا الى التأمل والمراجعة بشكل متواصل.

في معرض مناقشة الدكتور حسن الجنابي للجوانب المظلمة لثورة تموز ومنها «قتل جميع افراد العائلة المالكة غدراً» قد يكون من الضروري التذكير بهذه الأحداث، لما للعنف من نتائج يعرفها الجميع، وفي الوقت ذاته يتكرر طرح السؤال: اية ثورة تمت بدون عنف وبدون دماء؟ من حق الشعوب استخدام الوسائل التي تتاح لها بعد عشرات السنين من العذابات والحرمان كما حدث في انتفاضة شعبنا في آذار ١٩٩١ (رغم بعض الممارسات غير المبررة)؟ وان من حق الشعوب الدفاع عن نفسها ضد قوى عاتية همجية لو اتيحت لها الظروف ثانية وكسب الجولة ضمن ظروف وعوامل اخرى، فانها لا تتورع عن ارتكاب أفظع الجرائم، والتاريخ ايضا شاهد على ذلك. ان الدفاع عن النفس والصراع العنيف ضد قوى الطغيان حق مشروع، حتى المسيح قد دعا صراحة الى الصراع وعلى غير ما يدّعي

دعاة المسكنة والخنوع وذلك في قوله «جئت لألقي ناراً على الأرض». (مانشاهده ونسمعه الآن من غسيل دماغ في بلد الديمقراطية والعالم الحر» روسيا الحديثة، اعلام يصم الآذان ويفقأ العيون عن قتل آل رومانوف (الذين أذاقوا شعوب روسيا لأكثر من ثلاثمائة سنة) شتى صنوف الحرمان، في محاولة لمسح تاريخ مرير عاشته روسيا بداية هذا القرن. لا أدعي تقييم هذه التجربة التي تتطلب عشرات المجلدات من النقد والتحليل و تقصي الحقائق. لست من دعاة العنف لما لاخلاق العنف من نتائج مؤلمة، كما وان ثورة ١٤ تموز هي الاخرى ورثت تقاليد تدخل الجيش في السياسة وليست هي من أرسى الحجر الاساس له ففي حركة بكر صدقي عام ١٩٣٦ وحركة مايس ١٩٤١ ودور الضباط في جبهة الاتحاد الوطني عام ١٩٥٧ وغيرها من الاحداث، نرى الجيش في مركز الاحداث والصراعات السياسية منذ ان تم انشاء المؤسسة العسكرية. وهي حالة شهدتها كل بلدان العالم الثالث تقريباً. رغم التطور الرأسمالي الذي شهدته هذه البلدان. والنظرية التي يتبناها حزب صدام هي وريثة الفكر الفاشي في العنف اكثر مما هي امتداد ونتيجة مباشرة لتدخل المؤسسة العسكرية في الحياة السياسية بعد تموز ١٩٥٨.

نطمح الى تفاري التشنج من أصحاب الكلمة والسياسة، فالكلمة الناضجة والمؤثرة هي حصيلة جهد المثقف والسياسي معاً.

موسكو/ تموز ١٩٩٦

الاخوة المشتركين

يرجى المبادرة إلى تسديد الاشتراك وتجديده (لمن انتهى اشتراكه) لمواصلة إرسال المجلة لكم دعماً للثقافة الجدديدة

الثقافة الجديدة

الاشـــــتـــــراك الـــــســـــنـــــوي

50 دولاراً أو ما يعادلها

100 دولار للمؤسسات

يدفع مقدماً بشيك مصرفي إلى رقم الحساب 42-467127

ANI HAMED AYOUB

BANQUE LIBANO-FRANCAISE

Bar Elias, LEBANON

أو يدفع إلى رئيس التحرير

يرجى المراسلة بشأن توزيع المجلة وما ليتها على العنوان:

الثقافة الجديدة. سورية. دمشق. ص.ب: ٧١٢٢. تليفاكس: 4449724


فكر علمي
ثقافة تقدمية